

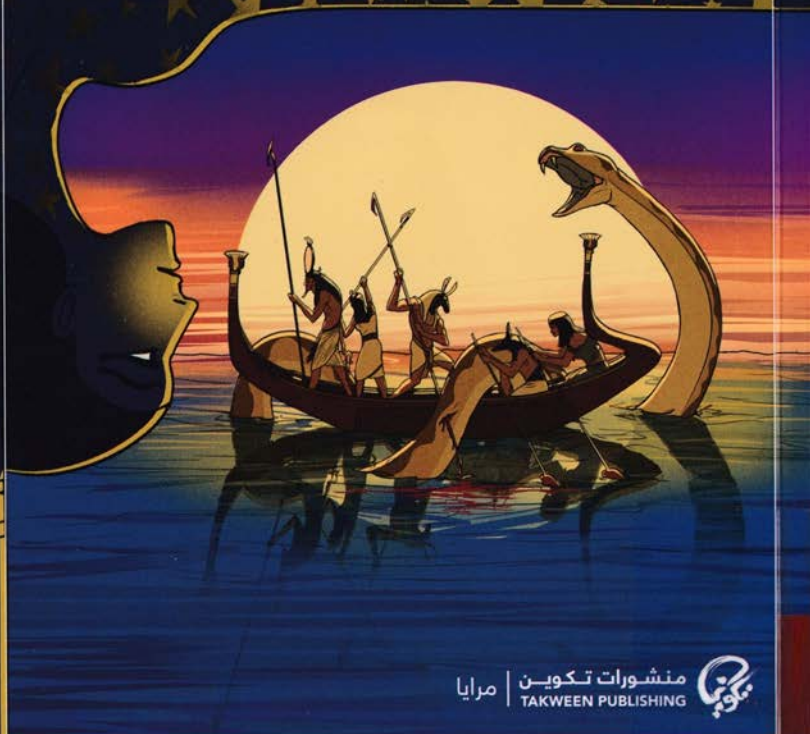
مكتبة

t.me/soramnqraa

محمد أ. جمال

أبناء نوت وأساطير أخرى

حكايات مصرية عتيقة



مرايا

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



أبناء نوت وأساطير أخرى

حكايات مصرية عتيقة

الكاتب: محمد أ. جمال
عنوان الكتاب: أبناء نوت وأساطير أخرى

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية: وجدان توفيق

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تدقيق لغوي: سيد عبد المعطي

تنضيد داخلي: حسن عصام

ر.د.م.ك: 0-52-808-9921-978

الطبعة الأولى - يوليو / تموز - 2024

1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناسر ©

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: + 965 98 81 04 40

بغداد - شارع المتنبى، بناية الكاهجي

تلفون: + 964 78 11 00 58 60

 takween.publishing@gmail.com  takweenkw

 takween_publishing  TakweenPH

 www.takweenkw.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

محمد أ. جمال

مكتبة

t.me/soramnqraa

أبناء نوت وأساطير أخرى

حكايات مصرية عتيقة

منشورات تكوين | مرابا
TAKWEEN PUBLISHING

«نشر هذا الكتاب بدعم من الصندوق العربي للثقافة - آفاق»

المحتويات

٩	مقدمة
١٣	البداية
٣٣	أول تمرد
٥٥	فناء البشر (إلا قليلاً) والبقرة السماوية
٨٥	رحلة الشمس اليومية
٩٥	زمن الهواء والأرض
١١٣	أبناء نوت الجزء الأول
١١٥	ثمرة لقاء السماء والأرض
١٢٤	عالم جديد رائع
١٣٧	قفلوا عليك يا حلو تابوت
١٥٣	اسم الإله
١٧٠	عبر الأخضر الواسع
١٨٢	لملمة أشلاء العريس
١٩٣	التخلص من الجثة على أكمل وجه
٢٠٧	الدوات: من القبر إلى الميزان

أبناء نوت الجزء الثاني	٢٥١
طفولة عليلة وتدريب مقتضب	٢٥٣
المحاكمة	٢٦٠
العين بالعين، وبغيرها أحياناً	٢٧٥
أشكال متعددة للحب	٢٨٩
نهاية محبطة لحكاية مثيرة	٣١١
النهاية	٣٢٥
ملاحق	٣٣٩
الآلهة المصرية القديمة الواردة في الكتاب	٣٣٩
قائمة قراءات ونبذة عن نهج الكتاب	٣٤٦
ختاماً	٣٥٥
شكر وعرفان	٣٥٨
عن المؤلف	٣٥٩

«آه يا دحوتي، ما الذي يفعله أبناء نوت؟
يقتتلون، يتصارعون،
يظلمون بعضهم بعضًا، يسجنون بعضهم بعضًا،
العنف يسود،
استصغروا كل كبير فعلته لهم.
دحوتي، افعل شيئًا».

مقدمة مكتبة

t.me/soramnqraa

وددت أن أستهل كلامي بقول كم كنت مفتونًا بالأساطير المصرية القديمة طيلة عمري، لكن هذه للأسف ليست الحقيقة، بل كنت مفتونًا طيلة عمري -على الأقل منذ تعلمت القراءة- بالأساطير اليونانية؛ بمغامرات هرقليز، وملحمتي الإلياذة والأوديسة، والحكايات التي كانت تملأ الأفلام وكتب الكبار والصغار على حدٍّ سواء. مع الزمن اتسع اهتمامي بالميثولوجيا نسبيًا ليشمل أنظمة ميثولوجية أخرى. كان العامل المشترك الأكبر بين قراءاتي الأولية في الأساطير توفرها بلغة ميسرة مشوقة لقارئ شاب يسعى إلى الاستمتاع بحكاية جيدة قبل كل شيء.

أما الأسطورة المصرية، فيخجلني الاعتراف بأنني لم أعرها انتباهًا كبيرًا في البداية، لم أعرف عنها سوى المعلومات الأولية الشائعة (رع إله الشمس، حتحور ربة الجمال، وست الذي قتل أوزيريس ليغتصب عرشه، وإيزيس التي دفعت حورس ابنها من أوزيريس كي ينتقم من عمه الشرير، وثمة أحدهم برأس كلب له دور ما في تلك المسرحية)، وفيما عدا ذلك لم يقع بين يديَّ عمل فني أو أدبي يتناول الميثولوجيا

المصرية مشوق بما يكفي لجذب انتباهي. وهذا في الواقع أمر غريب،
فبينما لا ننفك، نحن المصريين، نتشدد بتاريخنا وأمجادنا في كل سياق
بداعٍ أو بلا داعٍ، ونحب ترديد أشياء مثل «مصر الحضارة ومصر
الثقافة ومصر التاريخ»، يندر أن نجد أعمالاً غير أكاديمية
تُعنى بسرد حكايات بانثيون الآلهة المصرية القديمة، إلا في فقرات
مختصرة جافة تفتقر إلى التفاصيل والسلاسة والدراما، ما يجعل
محاولة التعرف على الأساطير المصرية القديمة مجهوداً ثقيلاً على
النفس مثل الدراسة لنيل شهادة الثانوية.

ما قدح اهتمامي بالأسطورة المصرية كان اضطلاعي، بمزيج
من المصادفة والحظ الحسن، بدور المترجم لعدة أعمال تُعنى بالتراث
الميثولوجي للعالم، بغرض الدراسة حيناً وبلا غرض غير الاستمتاع
بالحكاية القديمة حيناً. عندئذ تحول اهتمامي العابر بالأساطير إلى ولع،
صرت أعشق أساطير القدامى وأتبعها اتباعاً، وأجد فيها من اللطف
والخفة والحكمة والجرأة والإبداع ما لا أجده في آدابنا المعاصرة. وقدح
ذلك أيضاً غيرتي؛ لماذا تتوفر كل تلك الأدبيات الممتعة التي تحكي
أساطير العالم بلطف ومتعة لا تخلو من عمق وذكاء، ولا أجد الأساطير
المصرية إلا بين الصفحات الأكاديمية المكتوبة برطانة الباحثين ووقار
الدارسين؟

ومن هنا ولدت فكرة هذا الكتاب: محاولة جمع ما تيسر من الأساطير
المصرية القديمة في سردية جديدة تحكي الحوادث العتيقة بلغة معاصرة
ونظرة طازجة، تسهل وصول القارئ المعاصر إليها.

وبعد رحلة بحث غير قصيرة بين صفحات المراجع والنصوص المصرية القديمة (البرديات ونقوش الألواح والمعابد والمقابر والتوابيت)، وجدت ضالتي؛ مجموعة قيمة من الأساطير والحكايات القديمة الممتعة، يمكن تقديمها في سردية واحدة متسلسلة. جمعتها ونسجتها في خط زمني واحد، وسردتها هنا بتذبذب بين الإخلاص للأصل بقدر الإمكان والتدخل الأدبي الخيالي المحدود للحفاظ على سلاسة الحكى، من دون إخلال بهيكل الحكاية الأصلية. في الملاحق بآخر الكتاب ستجد مع الخاتمة ذكرًا وجيزًا لنهجي في البحث والسرد والمصادر، بالإضافة إلى قائمة بأسماء أهم الآلهة الواردة في كتاب.

قراءة هذا الكتاب لا تتطلب أي دراية مسبقة بالأساطير المصرية أو غيرها، تحتاج فقط إلى معرفة أنه كانت على أرض مصر حضارة قديمة طالت وتشعبت لآلاف الأعوام قبل ظهور الهواتف الذكية. حكايات هذا الكتاب هي نزر يسير من أصل غزير مما آمن به المصريون القدماء في بعض الأوقات. إن الديانة المصرية القديمة لم تكن عقيدة واحدة صلبة استمرت بلا تغيير طيلة أعوام الحضارة المسجلة التي اقتربت من أربعة آلاف سنة، بل كانت آلاف العقائد لآلاف المعبودات التي امتزجت عبر الزمن وتبدلت وتوافقت وصعدت وهبطت، لأسباب سياسية واجتماعية وفلسفية وكهنوتية، في كل عصر كانت شعبية بعض الآلهة ترتفع وأخرى تهبط، وسلطة بعض الكهنة تتسع وأخرى تنكمش، وعلى الجميع أن يتوافقوا ويتفقوا لمن سيكون نصيب الأسد ومن سيكتفي بنصيب محدود ومن سيُلقي في غياهب النسيان.

الأساطير المختارة هنا من أشهر أساطير الآلهة المصرية القديمة، وأبطالها هم أفراد التاسوع العظيم -الآلهة التسعة الأعظم بحسب عقيدة هليوبوليس، أولهم خالق الكون أتوم-رع، ثم ابنه التوأمان شو وتفنوت، وابناهما جب ونوت، وأبناؤهما الأربعة ذائعو الصيت: إيزيس وأوزوريس وست ونفتيس، وإن كنت سألتهم بأسمائهم المصرية الأصلية: إيزة وأوزير وست وحت-نبت- ومن ارتبط بهم من الآلهة. رهاني أنك ستحب ما ستقرأ من دون حاجة إلى تحضير مسبق، وأملّي أنك، بعد الانتهاء من هذا الكتاب، ستذهب في رحلتك الخاصة لاستكشاف منابع والجذور.

لا يعني ذلك أن أصحاب الخبرة المسبقة بالميثولوجيا المصرية ليس لهم مكان هنا، بل على الأرجح أولئك من سيستمتعون أكثر بالحكي، وعسى أن تجد هنا، إن كنت منهم، قراءة جديدة تشتبك مع قراءاتك أو تستفزك لتقديم رؤية جديدة، فتنهل بدورك من نهر الأسطورة المصرية الهائل، وتشاركنا إبداعك... ثمة ما يكفي الجميع ويفيض. كفى بهذا تقديمًا، ولنبدأ حكاية أبناء نوت من البداية، أو من قبل البداية... هناك في أعماق نون.



البداية

١

«كنت وحيداً في نون».

هذا ما سيقوله أتوم لاحقاً عن لحظات الخلق الأولى تلك في لحظة ما من المستقبل البعيد، ربما في جلسة بين أبنائه وأحفاده من الآلهة وملوك البشر في رحلة شمس ليلية، يستعيد لهم فيها أجماد لحظة الخلق الأولى، أو ربما في محادثة خاصة مع دحوتي بغرض تسجيل أولى اللحظات، أو مناجاةً لنفسه ساعة حنين للماضي في هرمه، لم تخلُ من آذان متلصصة وأقلام مدونة، خاصة أن مستقبل العالم الذي صممه بنفسه لن يسمح له بلحظة خصوصية واحدة بعد ذلك.

«كنت وحيداً، لم أكن قد خلقت الآلهة والناس بعد، ولا خلقت أنثى، ولا رفعت السماء وأرست الأرض وأجريت حابي، ولا أنبتُ النباتات وجعلت الحيوانات. كنت وحيداً، ولا أجد مكاناً أقيم فيه».

من هنا نستطيع أن نتفهم قصد أتوم ونشعر به، فحتى وهو أبو الآلهة خالق أتو وملك الملوك وصاحب قرص الشمس، وغيرها من آلاف الألقاب، نتفهم مع ذلك رغبته في أن يجد لنفسه مكانًا يقيم فيه وأشخاصًا يحدثهم. في النهاية قصة كل واحد منا، حتى خالق الكون الأسطوري المصري، هي قصة البحث عن بيت؛ هكذا بدأ الكون (ولأن القصة المكملّة لكل واحد منا، حتى خالق الكون الأسطوري المصري، هي قصة الهروب من البيت؛ هكذا سينتهي الكون. لكن لا يزال الحديث عن ذلك مبكرًا... جدًّا).

ذلك كان أول ما دار في خلد أتوم لحظة انبثق وعيه، وهو لا يزال تلاً طينياً يُدعى بنبن في غور نون: كنت وحيداً.

طيب، أعلم أن هذا غريب، ربما يساعدنا إرساء بعض السياق؟

٢

نون هو المحيط الأولي، السرمدي. نون هو المكان الذي كان ولا يزال وسيظل. في البدء -أو للدقة من قبل البدء- كان نون، مياهاً لا نهائية، ساكنة تماماً، لا موج فيها ولا تيار، لا سطح لها ولا قاع، لا تعلوها سماء ولا تحتها أرض. نون مظلم، قاتم. بل إن كلمة «مظلم» لا تنفي بالغرض، فالظلمة التي نعرفها نُعرفها بمقارنتها بالنور، بمدى انعدام القدرة على الرؤية. لكن ظلمة نون تتجاوز هذا التعبير، تتجاوز أي ظلمة عرفها أحدنا في حياتنا المحدودة بالحواس. إنها عدم تام يتجاوز قدرة اللغة على الوصف.

ولعل نون أيضًا ليس مياهاً، البعض يقول إنه طمي، وكلا الرأيين له ما يبرهن عليه من الأدلة^(١). كيف لنا أن نعرف؟

إن نون خاوٍ. خاوٍ مثلما نعتبر غرفة ما خاوية لأنها عارية من الأثاث والسكان والأشياء، متجاهلين أنها تحوي هواء وذرات غبار وحياة ميكروبية لا تُرى ومليارات التفاصيل التي لا تُرى بالعين المجردة. هكذا يمكن أن نعد نون خاوياً طوال الوقت لأنه في أشد لحظات اكتظاظه، لا يتعدى مجمل ما فيه ذرات غبار في غرفة خاوية.

ومع أننا لا نلقي للغبار بالاً في الظروف العادية، فإننا هنا لا يعيننا إلا هذا الغبار، فنحن هذا الغبار.

لا شيء إذن في تلك اللحظة التي تسبق البداية غير نون، وغير ذرات تستجمع نفسها رويداً رويداً، ذرات من طاقة وجود، طاقة خلق. ثمة وجود آخر غامض مبهم يوازيها، لكنه ليس محل تركيزنا الآن. المهم هو طاقة الخلق تلك، ذرات مفتتة من الحياة في أرجاء نون اللانهائية، تنجذب إلى بعضها في نقطة بعينها مثل برادة حديد إلى مغناطيس.

وفي لحظة ما... لتتفق على شيء؛ استخدام ألفاظ مثل: «لحظة، وقت، فترة، الآن... إلخ» هنا هو استخدام اعتباطي، فلا وجود للزمن في ذلك الوقت. الزمن مثله مثل الكون كله لم يُخلق بعد، وكل ما حدث حينها لا سبيل لقياسه، فربما حدث فيما يوازي مليارات من السنين التي نعرفها الآن، وربما استغرق أجزاء من الثانية. ذلك كان خارج نطاق الزمن، ولا نستخدم مصطلحاته إلا لتبسيط الحكمي.

(١) أي ذُكر في أحد النصوص القديمة. وهذا هو نهجنا هنا؛ مجرد ذكر شيء في نص قديم برهان على صحته.

أقول في لحظة ما، تجمعت طاقة الخلق تلك كلها في أول وجود مادي، في تل طيني يُدعى بنين، في غور نون.

وفي لحظة لاحقة، استيقظ وعي بنين، اكتمل نضوج طاقة الخلق فيه ليتحول من جهاد إلى حياة، إلى إله، إلى أبي الآلهة وخالق الوجود القادم. صار بنين أتوم، وفكر أتوم أول ما فكر: أنا وحيد.

كل شيء هو أتوم وأتوم هو كل شيء، هو أنا وأنت وكل من وما نعرف. أتوم هو المادي والمجرد، هو السماء والأرض، هو النبات والأفكار والمشاعر والذرات والإلكترونات. كل شيء عدا نون (وعدا الوجود الآخر المبهم) سيأتي من أتوم، الذي لا يزال حتى الآن بنينًا وحيدًا.

أول ما أدركه أتوم بوعيه المستحدث كان موجة عاتية مباغته من العداء والكراهية والحقد غمرته داخل نون، موجة أدرك أنها لم توجد من قبل، وإنما تولدت الآن فقط، عندما استيقظ وعي أتوم. مصدرها كان الوجود الآخر الموازي له في قلب نون، ليس قريبًا منه بأي حال من الأحوال، لكنه واضح وجلي على خارطة إدراكه: إنه عابب^(٢).

اندهش أتوم لما وجد اسم عابب في وعيه، ووجد كذلك صورة ذهنية في داخله لهذا العابب: ثعبان هائل جبار، يبلغ من الضخامة ما يصعب حتى على وعي أتوم أن يحتويه. يلتف هذا الثعبان حول نفسه ويعض ذيله، في أسى. أسى؟ يفترض به أن يكون هائل القوى لكنه واهن، جريح، ثمة ما أصابه فجعله لا يقدر على شيء، إلا رمي الإله حديث العهد بالوجود بكل تلك المشاعر العدائية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(٢) يُعرف بالتسمية اليونانية الشائعة: أبوفيس.

وتعجب أكثر لما وجد تلك المعرفة المبالغتة كلها يصاحبها شعور بال... ألفة. كل هذا مألوف ألفة مربكة. كيف يألف المرء شيئاً وهو لم يوجد قبل الآن؟ وكيف والكون برمته لم يُخلق بعد؟

غير أنه تجاوز هذا العجب بسرعة، وتجاوز حتى عدائية عابب ورغبته العاتية في تدمير أتوم (التي يبدو أنه عاجز عن تحقيقها لضعفه)، لما وجد أن مسألة خلق الكون هذه تلح عليه بشدة، مع أنها لم تخطر له إلا الآن. إنها طاقة الخلق الهائلة تفور في داخله، ولا تنس أنه أيضاً وحيد. ها هو أتوم، أو بنين، يتأهب لخلق الوجود.

على أي أساس قرر أن يخلق؟ هل كان ما خلقه أول فكرة خطرت له؟ نزوة؟ طاقة منفجرة عفوية؟ مسودة أولية من نص غير محرر؟ أم أنه تأمل وتدبر، وأعمل التفكير في شتى أشكال العوالم والكائنات؟ لا علم لي للأسف بالإجابة عن هذا السؤال، ولا يسعني حتى التخمين. فالعالم الذي خلقه أتوم يبدو حيناً محكماً دقيقاً لا تفوته فائتة، وحيناً عشوائياً طائشاً بلا دليل استخدام.

على كل، بدأ أتوم الخلق، وأول ما خلق كان نفسه.

وهذا منطقي، فمن غير المقبول أن يستمر خالق الكون بهيئة تل طيني. كيف سيحترمه الآخرون؟ وإلا على أي هيئة سينصبون التماثيل ويرسمون اللوحات إذن؟ ماذا سيكون شكله وسط ملوك آلهة الحضارات الأخرى العظام؟ هكذا خلق التل بنين لنفسه جسداً في هيئة حسنة، جسد أتوم الشاب رب الأرباب. نحن الآن نربط هيئته تلك بهيئة الذكور من البشر، لكن ذكور البشر هم من خلُقوا على هيئة رب

الأرباب وليس العكس. لا يعني ذلك أن أتوم كان بالضرورة ذكرًا، فأتوم يسبق ثنائية الذكر والأنثى، وإنما الذكورة بالنسبة له ليست إلا وسيلة للوصول إلى غايته، الغاية التي لم يعد مناص من ذكرها مهما حاولت المماثلة لتأجيلها. هكذا خلق أتوم العالم بحسب السجلات ولا دخل لي بذلك: بالاستمنا.

بعض الروايات المستحجة تحاول اقتراح أنه خلق العالم بالبصق، وهو شيء يناسب أن تحكيه لأبنائك مثلًا أو على مائدة عشاء عائلية انفتح فيها لسبب ما موضوع الرؤية المصرية لخلق الكون. لكن لا مناص من الاعتراف بخلو هذا من المنطق، لم ينجح رجل سعى إلى الأبوة بالبصاق قط، على الأقل بحسب علمي. كان وسيظل مصدر الحياة عند الذكر، إلهًا كان أو بشر، هو ماء الرجل.

فعلها أتوم مرددًا كلمات سحرية معينة لا علم لفانٍ بها، وتدفق ماء الحياة داخل مياه العدم.

أول ما خرج من ماء أتوم كان أبنائه الثلاثة: شو، وتفنوت، وماعت.

شو كان ذكرًا، كان الهواء. امتد شو فور ولادته في فقاعة غازية ضخمة، أحاطت ببنن وتجاوزته مزيج ماء المحيط السرمدي عنه. تلك الفقاعة الهوائية الخاوية ستكون منصة المسرح التي سيتشكل عالم أتوم القادم عليها.

وتفنوت كانت أنثى. كانت الماء، إنها الرطوبة والنداوة في الهواء، إنها المطر والأنهار، الماء العذب الذي لا غنى للحياة عنه. شو وتفنوت

شقيقان، توأمان، لهما نفس الكا والبا (شقيّ الروح). سيتزوج شو من تفنوت، الآن أو لاحقًا، وذريتهما ستكون جب ونوت، ولاحقًا أبناء نوت الأربعة الذين سيعيشون في الكون فسادًا. لكن تلك حكاية أخرى لا تزال في مستقبل بعيد.

أما ماعت فهي الشقيقة الثالثة لشو وتفنوت، لكنها ليست توأماً لهما، بل هي أيضًا من أقل الآلهة ظهورًا وفاعلية (ظاهرية) في الحكايات التالية، لكنها في الواقع من الأكثر تأثيرًا على الكل بشكل غير مباشر. إن ماعت هي النظام، هي العدالة والحق ونظام الكون، إنها قوانين الفيزياء وقواعد الأخلاق. ماعت أيضًا غذاء الآلهة؛ بشكل ما، لا حياة للآلهة من دون ماعت، هي ماؤهم وهواؤهم وخبزهم ولحمهم.

إذن أول ما خلق أتوم كان المجرد والمادي في آنٍ واحد، رمى أساس حياة البشر والآلهة قبل خلق البشر والآلهة. مثلما سيتنفس البشر شو ويشربون تفنوت، ستقتات الآلهة على ماعت، ومع ذلك لا يفنى شو ولا تفنوت ولا ماعت.

على أعمدة الوجود الثلاثة تلك تابع أتوم خلق العالم والآلهة والكائنات، من مائه الأولي المترع بالحياة. كون عظيم ذلك الذي انبثق من أتوم داخل فقاعة شو الهوائية التي تحمي العالم النضر من ماء نون. بيد أنه غير كامل. شعر أتوم أن ثمة شيئًا ما يحتاج إلى خلقه الآن. نعم لا يزال هناك الكثير بلا شك مما ينقص هذا العالم، لا تزال هناك العديد من الآلهة التي لم تُخلق، وهو كذلك لم يخلق البشر بعد، وفي خياله حيوانات من كل شكل ونوع سيتسلى بخلقها تباعًا، بل إنه حتى ينوي

خلق إله مهمته التصميم والنحت والتشكيل، يكتفي بشرح رؤيته له ويترك له مهمة البناء. كل هذه أشياء رائعة وبديعة لكنها مكملة للوجود، ليست مؤسسة له، لن يسقط العالم من دونها. ثمة شيء يفوقهم أهمية، شيء يكاد يبلغ أهمية أتوم ذاته. لا يعلمه ولا يدرك ماهيته، لكنه يدرك أنه لو لم يأت به فورًا، ويحققه ويرفعه فوق العالم الهش الجديد، سيتداعى عالمه قبل أن يبدأ ويتلاشى كل شيء، فتتحقق رغبة الشعبان البغيض الذي لا يني يرميه بالحقد والبغضاء من مكانه من دون أن يتحرك.

ود حينها أن يستشير أحدًا، تمنى أن يكون له مستشار خاص حكيم وداهية يفكر بدلًا منه، وفورًا ظهر في خياله اسم وهيئة دحوتي، الوزير الأمين. هل خلق دحوتي وسط ما خلق أم لم يخلقه بعد؟ نظر حوله بحثًا عنه، فلم يره، لم ير أحدًا أو شيئًا في تلك الظلمة المطلقة التي تغطي على العالم، حتى يبدو للناظر وكأن مخلوقًا ما خُلِقَ وكأن كونًا ما كان. اللعنة على تلك الظلمة... تلك الظلمة! بالطبع! كيف لم يفكر في هذا من البداية؟ إنه يحتاج إلى ما يبدد الظلمة، تبدو له الإجابة الآن واضحة، واضحة وضوح الشمس، إنها الشمس ذاتها.

فور ورود تلك الفكرة إلى ذهنه، انبثقت من مياه نون بيضة^(٣) هائلة، ودخلت في نطاق هواء شو وسماء العالم الوليد، وانشقت، وبزغ منها القرص الأصفر المستعر، ليعمي بوهجه عين خالقه ومخلوقاته. نهض

(٣) وفي رواية أخرى نبتت من النهر زهرة لوتس عظيمة وتفتحت وخرجت الشمس من بين بتلاتها. لا يمكننا للأسف التأكد من صحة أي من الروايتين، فلم يكن هناك من يصور الخلق بالكاميرات.

رب الأرباب ووقف منتصبًا، ومد يده والتقط قرص الشمس، وثبته في عينه، ليصبح أتوم-رع^(٤).

٣

وقف أتوم-رع، على تله الأولي الذي صار مركز الكون، وتأمل خلقه بعينه الشمسية المتألقة. وكان ذلك رائعًا... وغريبًا.

نعم هو من تخيل وحلم وخطط وصمم ونفذ هذا العالم، لكنه يظل مع ذلك مربكًا غريبًا تحت عينه التي تشع كل نور وحرارة وطاقة في الكون^(٥). يبدو العالم أكبر مما حسبه، لا يكاد بصره الشمسي يبلغ آخره، يحتاج للذهاب بنفسه إلى الأطراف البعيدة المظلمة لينيرها ويراهها. بل الأغرب أنه خاو على ما يبدو. أين ما خلق من الكائنات والآلهة؟ يبدو أنه لم يراعِ سعة العالم وهو يصنعه، فنثر مخلوقاته كما اتفق في كل مكان، ولا بد أنهم الآن على وشك الاستيقاظ. قد يمر وقت طويل قبل أن يجدوا بعضهم بعضًا. لكن لا بأس، يبدو العالم مكانًا لطيفًا على كل حال. استنشق أتوم الهواء المنعش الطازج (أحسننت صنعًا يا شويا بني)، وتأمل السماء البيضاء الناصعة، المرفوعة على أربعة أعمدة في أركان الأرض الأربعة، وتأمل الأراضي الخضراء الممتدة حتى يبلغ البصر

(٤) اسم أتوم يرجع للجذر «إتم»، ويعني التمام والكمال. واسم رع كان يستخدم أيضًا في اللغة المصرية بمعنى الشمس، وبمعنى النهار. أيهما سبق الآخر؟ هل سبق اسم الشمس تسمية الإله؟ أم سُميت الشمس على اسم الإله؟ كالعادة لن نعرف أبدًا.

(٥) وهذا الشعور سيرثه منه كل مبدع بعده من الآلهة والبشر، يتأمل صنيعه يده بعد انتهائه منها، ويرأوده مزيج الحيرة والألفة والتعجب والخوف، لا يكاد يصدق أن هذا وُلد منه وحده.

أقصاه، تعجُّ بكل أنواع الغابات والحدائق والأشجار التي تتدفق بينها الجداول والأنهار والبحيرات. وانظر إلى هذا النهر الطويل الجبار الذي يجري تحت السماء ويشقُّ الأرض شقًّا؟ آه، إنه حابي، النهر الذي أراد به أتوم-رع أن يكون أعظم الأنهار ودرة جمال هذا العالم. ينبع حابي من نون مباشرة بحسب ما خطط له، لكنه لا يشبه نون في شيء؛ مياهه صافية جارية تتلألأ بنور الشمس، تكاد تنطق وتقول أنا الحياة.

دار رأس الإله الجديد بمزيج من السعادة، والتأثر، والإنهاك الذي يتبع خلق العوالم عادة، لا سيما تلك التي تُخلق بمثل طريقته في الخلق. وافته رغبة عاتية غير مبررة في البكاء، فبكى. ذرفت عينه غير الشمسية دموعًا غزيرة وكأنها غيث عارم، ما إن تلمس قطرة من دموع خالق الكون طين الأرض الأسود حتى تتحول إلى كائن يشبه في تكوينه كبير الآلهة، لكنه ضئيل هش واهن، مرتبك مذعور ملتاع، ما إن ينهض ويرى أتوم فوقه عظيمًا جبارًا، حتى يركض برجليه النحيلتين هلعًا إلى أن يختفي في كهف أو خلف شجرة أو في حفرة أو في حوض كائن آخر من دموع أتوم. ضحك أتوم طويلًا من سلوك تلك الكائنات الجديدة. وهكذا خلق البشر.

أما عين الشمس، فلم تذرف إلا دمعة واحدة، قطرة من الذهب النحاسي السائل اللامع، نزلت محملة بحب جارف من أتوم يفوق حبه لكل ما خلق أضعافًا، وكأنها دمعة من القلب لا العين. تحولت تلك القطرة قبل أن تبلغ الأرض إلى ربة أنثى أجمل وأبهى وأرق من باقي الآلهة، من باقي البشر، من كل الكائنات، ما خُلق منها وما لم يُخلق بعد.

إنها حوت-حرو^(٦)، قرة عين أبيها، ربة الجمال والحب من قبل حتى أن تُعيّن للآلهة أدوار.

كان أتوم-رع ينحني ليغترف من حابي بعض الماء كي يمسح على وجه الابنة الأحب إلى قلبه، عندما أصابته اللطمة الخاطفة من ذيل الثعبان الأسود، ورمته في الهواء.

٤

كان الألم هو إحساس أتوم-رع الأبرز إثر ضربة عابب المفاجئة، ألم عاتٍ عصف بصدرة حيث أصابه الذيل. لكن خالط الألم شعور آخر بالحنق من نفسه، فكيف له أن ينسى عابب، مع أن هذا الأخير لم يدخر جهداً في إبداء كراهيته ورغبته في تدميره إبان تواجدهما في نون؟ لقد استغرقه الخلق بالكامل حتى نسي عدو الخلق الكامن في الظلام.

ارتطم رب الأرباب بالأرض ارتطاماً، وتدحرج طويلاً فوق الأحجار والأشواك التي لم يقصد أن يخلقها حادة ومؤلمة إلى هذا الحد. قبل أن يأسف على الدمار الذي لحق بالأرض التي هشمها ارتطامه، استوعب لحسن الحظ أن وقت الأسف سيأتي لاحقاً، أما الآن فعليه أن يتفادى ذلك الفك الأسود المهول المفتوح باتساع يكفي لابتلاع نصف الكون، والأنياب التي تنقطر منها كل أنواع السموم. تفاداه بالتحول إلى صقر، والطيران مبتعداً في اللحظة الأخيرة، وضرب فك الثعبان بكل سمومه الأرض حيث كان خالق الكون قبل لحظة.

(٦) ويسمّيها اليونانيون لاحقاً «حتحور».

لكن أتوم-رع لم يفلت من وجع الضربة على الرغم من تفاديه، فقد آلمته الحفرة الناجمة عن ارتطام عاب بالأرض ربما أكثر من الألم الذي سببه عاب ذاته، فالأرض، مثل كل مخلوقاته، جزء منه، وكل ما يصيبها يصيبه، وكل ما يوجعها يوجعه. سيتعلم فيما بعد أن يتعايش مع الألم المستمر الذي يصيبه جراء كل أذى يتعرض إليه كل مخلوق من مخلوقاته... فلا مناص لمخلوق من الألم.

استقر على جبل قريب واستعاد هيئته. هتف في عاب: «ماذا تريد مني؟ لماذا تهاجمني؟».

أجابه الثعبان بفحيح غاضب غير مفهوم وهو يرفع رأسه من الحفرة العميقة. كان جسده الملتوي الملفوف حول نفسه ضخماً مثل سلسلة جبال. لكن جسد أتوم-رع أيضاً لم يكن بحجم أجسام البشر، بل يستطيع أن يكبر ويصغر إن أراد. في الواقع كانت هيئته وهيئة أغلب الآلهة مائعة، تبدل شكلها وحجمها بحسب مزاج ورغبة الإله. هكذا وقف أتوم-رع بحجم غير قليل مقارنة بعاب.

يفترض أن أتوم يفهم كل الكلام واللغات والأصوات، فهو خالقها جميعاً، لكنه للسبب ذاته لم تكن لديه أدنى فكرة عن معنى فحيح عاب، لم يصله منه إلا الشعور الناقم المدمر الشنيع، أما المعنى فضاع في الترجمة.

قال: «ماذا فعلت لك لأستحق كل تلك الكراهية؟ لقد جئت لتوي»، وتابع لما رأى رأس الثعبان يتلوى في الفضاء ولسانه المشقوق يخرج من ثغره ويتقطر منه اللعاب والسم، «وكيف صرت بهذه القوة؟ كنت واهناً جريحاً قبل قليل».

أما السؤال الأول فسيظل لغزًا مستغلًا حتى النهاية، أو قرب النهاية، أما السؤال الثاني فسوف يعرف أتوم-رع الإجابة عنه في المستقبل غير البعيد، بعدما يصبح مسنًا وخبيرًا نوعًا ما بمجريات الأمور. لكننا سنذكرها الآن للتسهيل: عابب كان جريحًا واهنًا عاجزًا عن رفع ذيله حتى وقت قريب، لكن طاقة الخلق والوجود التي أطلقها أتوم وعينه الشمسية أصابت من بين ما أصابت وحش الفوضى القديم، فشفى جرحه وعادت له قوته. بل إن ما أصاب عابب من طاقة الخلق لم يكفٍ فقط لشفائه من جرحه، بل نال أيضًا نصيبًا من القدرة على الخلق، وإن كان نصيبًا متواضعًا مشوهًا، لا يكفي إلا لخلق زمرة مؤقتة محدودة من الأتباع محدودي الوظائف، ما يفسر ظهور هذه المخلوقات/المسوخ العشرين مائة الشكل، التي هي ثعابين تارة، ورجال تارة، وألسنة لهب متراقصة تارة، وأشكال متعددة أخرى، تستعد جميعًا للانقضاض على أتوم.

لكن جهل الإله الشاب آنذاك بدافع الثعبان وسره لم يعطله. ربما لم يخض أي معارك بعد في حياته الوجيزة، لكن غريزته تنبئه أنه مقاتل بالفطرة، وأن هذه لن تكون آخر معاركه ولا أسوأها. إنه رب خالق، وسيحارب شيطانه مثلما ينبغي عليه أن يفعل. على الفور صار أتوم-رع عشرين أتوم-رع. ليسوا عشرين نسخة غير أصلية، وإنما كلهم كانوا أتوم-رع ذاته بكامل قوته وطاقته وعينه الشمسية. هجمت المسوخ على تجليات أتوم المتعددة، وتلقى الإله كلاً منها بالشكل الملائم له، فمن هجم عليه ثعبان صار له أتوم نمسا، من هجم عليه نار أصبح له رع شلال مياه، من هجم عليه بسيف توهجت عين رع حتى صهرت سيفه، وكل شكل هجم به أتباع عابب اتخذ أتوم نقيضه وغلبه.

يجدر بي هنا ذكر أن تجليات أتوم لم تكن لأن هذه خواص الأشياء بطبعها، فمثلاً لم يكن من المقرر بعد أن المياه تطفئ النار، لكن اختيار أتوم للمياه في مواجهة النار جعلها قاهرته إلى الأبد، واختيار أتوم لحيوان النمس أمام الثعبان جعل بين الكائنين عداوة أزلية. أتوم هو الخالق والصفات تتشكل تبعاً لإرادته لا العكس.

صرعت تجليات أتوم مسوخ عابب العشرين، وبدا من تلوي عابب وفحيحه أن كل هجمة تلقاها أتباعه أوجعته شخصياً.

غير أن الثعبان العملاق استجمع قوته ونفض عن نفسه الألم، ونفت أنيابه من السم وإبلاً شديد الكثافة. علم أتوم أن هذا القدر من السم لو أصابه سيقضي عليه وعلى كامل خليقته، فاجتمعت أشكاله العشرون مرة أخرى، وخلق سياجاً حامياً بينه وبين السم على شكل سبع سلاسل جبال متتالية. أتى السم على الجبال كلها وأحالتها رماداً، لكن لم يبقَ منه شيء يبلغ أتوم الذي اتخذ هيئة محارب جبار يحمل سيفاً يحاكي ذلك الذي كان يحمله بعض أتباع عابب المهزومين - استوحى الرب صنع السلاح من جند الشيطان - وانقض به يريد رقبة الثعبان. عدا أن سيف أتوم انكسر على جلد الرقبة السميك من دون حتى أن يחדشه، وفوجئ الإله بأن ذيل الثعبان يقبض على حرية هائلة يندفع بها نحو وجهه، وتفادى أتوم - رع الضربة في اللحظة الأخيرة.

استمرت المعركة لفترة طويلة تبادل فيها الطرفان الكر والفر، كل فعل يقوم به يغير طوبوغرافية العالم ونظام الحياة الذي كان لا يزال طرئاً أبعد ما يكون عن الاستقرار. بدا أن عابب لا يبذل جهداً في

تفادي ضربات أتوم، كل ما حاول أتوم ضربه به لم يصبه بخدش، لا النصال الخشبية ولا المعدنية ولا صواعق الرياح وشلالات المياه والحمم البركانية، كل ما خلقه أتوم كان بلا تأثير على ذلك الكيان القادم من قبل الخليقة، في المقابل لم يدخر أتوم جهداً في تفادي وتحاشي ضربات عابب، فقد علم جيداً أن أي ضربة تصيبه منه سيكون ضررها جسيماً لا يعلم مداه.

ثم كان في تلك المرة، التي تفادى فيها أتوم نفثة سم وطار في محاولة يائسة أخرى لذبح عابب بصاعقة رعدية غير مؤثرة، كان أن تلاقت أعين المتحاربين بكل ما تحمل من كراهية متجذرة، كراهية لن يتحمل أي كائن آخر في العالم خلق أو لم يُخلق بعد التعرض لها من دون أن يحترق ويتلاشى على الفور. خلال تلك النظرة الخاطفة رأى أتوم-رع عن كتب ندبة دقيقة بين عيني عابب. فطن فوراً إلى أن هنا كان الجرح شبه القاتل الذي أوجع عابب وأوهنه قبل الخلق، وأدرك أنه وجد نقطة الضعف التي يبحث عنها. ويبدو أن الوحش الأزلي لاحظ أن أتوم-رع رأى ما رأى، فاتسعت عيناه ذعراً، وانتهاز انشغال بال غريمه وتراجع إلى الخلف، وانبثق من تحت ذيله سبعة وسبعون حملاً قاتلاً شريراً، ركضت كلها وهي تنهق نحو أتوم-رع المذهول وانقضت عليه.

تمسك أتوم-رع من ذبحها كلها، لكن أحدها استطاع جرحه في ذراعه جرحاً صغيراً قبل أن يموت. تجاهل الرب الشاب الجرح وشرع يفكر كيف سيستغل معرفته الجديدة بندبة عابب ويخطط لهجومه المقبل. بيد أن الجرح السطحي في ذراعه بدأ يتزف، ثم نزف ونزف ونزف. أطلق عابب فحيحاً محتفلاً عندما رأى دماء غريمه تجري في

الأرض تحته، واستعد للانقضاض القاتل الأخير على أتوم-رع، لولا أن أتوم-رع تمكن من استجماع قواه والالتجاء، بحركة أسرع من أن يراها الثعبان، إلى كهف تحت تل بنين. وهناك رمى نفسه على الأرض وقد تمكن الوهن منه، وتابع الجرح المشؤوم النزيف حتى وجد الإله نفسه يطفو فوق بركة من دمائه، ثم فاض الدم من الكهف واندفع يجري بين شقوق الأرض حتى طفق إلى سطحها.

أخذ عابب يبحث كالمجنون عن أتوم-رع فوق الأرض المظلمة (صاحب العين الشمسية مختبئ في كهف ومعه كل ما في العالم من نور)، ثم شعر بالسائل يتفجر من تحته ويغمر التربة. شمّه وتذوقه بلسانه الرفيع المشقوق، وعرف على الفور طعم ورائحة دماء أتوم. زأر الثعبان زئيراً منتصراً رجّ العالم كله، وأخذ يعيث في الأرض فساداً، مدمراً كل ما يطوله من العالم الوليد.

صرخت الأرض ملتاعة طالبة النجدة لنفسها من دمار عابب ولربها المحتضر في أعماق كهوفها.

وسمع أحدهم النداء... للدقة، إحداهن.

٥

بينما كان أتوم-رع يحتضر في كهفه، لمح امرأة تعبر مدخل الكهف، لا أثر للدماء عليها وكأنها لم تأت من عالم يفيض بها. نظرت إليه برفق واتجهت إليه، خطواتها سريعة بلا تعجل، ملامحها جادة بلا تجهم،

ويغطي بعض جسدها شرائح من جلود الحيوانات (متى وجدت الوقت لتقتل الحيوانات وتسلخ جلودها وتصطنع منها ما يغطي جسدها، مع أن العالم خُلق لتوه؟ لا بد أن قتاله مع عابب امتد لوقت أطول مما يتخيل! لكن فكرة الجلود التي تغطي الجسد هذه تعجبه. لو لم يمت من النزيف سيجعل مخلوقاته من الآلهة والبشر يتبعونها)، في يدها سيف وعلى ظهرها قطعة خشب ملتوية مشدود عليها خيط من نوع ما، وسلّة فيها مجموعة من العصي الخشبية مسننة الأطراف.

قال لها بوهن لما اقتربت: «من أنت؟»، ضربت بيدها الأرض الصخرية برفق، فاستجابت الأرض وأخرجت صخور الفضة والبرونز، «أنا نيت يا أبي، ابتك».

أي ابنة؟ هل له أبناء غير شو وتفنوت وماعت وحوت-حرو؟ أم أن كل من خُلق من دفقته الخلقية الأولى يُعد من ذريته؟ لم تأبه نيت بتساؤلاته وتابعت عملها الغريب، أخذت أحجاراً معدنية من أرض الكهف وقربتها من عينه الشمسية فانصهرت بين يديها، وشكلت بالسائل المنصهر ويديها العاريتين سبعة أحواض فضية وثمانية أحواض برونزية، ثم نفخت فيها كلها حتى بردت.

فجأة، تبدل مسار الدماء الجارية؛ عادت أنهار الدماء من حيث سرت، وأخذت دماء أتوم النازفة الجارية في العالم تنساب من كل مكان إلى الأحواض الفضية والبرونزية، وكأن في سائل الحياة الإلهي إرادة حرة تسعى إلى الأحواض من تلقاء نفسها. توقف أتوم عن النزيف حالما امتلأت الأحواض بدمائه. ودفعت نيت برفق ورشاقة الأحواض تجاه

والدها الممدد على الأرض، ثم ركعت، ورددت: «سلام عليك يا خالق السماء والأرض، السلام عليك يا ملك الآلهة وواهب الحياة وخالق حابي ومشيد الجبال، تقبل مني دمائك قرباناً لك، لتحيا بها وتحيينا».

شرب أتوم-رع دمائه من الأحواض الخمسة عشر واحداً وراء الآخر، بتمهل وتردد في البداية ثم بنهم وتعجل، حتى تجرع الحوض الأخير في شربة واحدة بدا معها أنه استرد كامل عافيته. انتصب بعدها واقفاً، ووضع يده على رأس ابنته الراكعة من دون أن ينطق كلمة، ولعل هذه كانت أول بادرة امتنان في العالم. لا نعلم إن كانت نيت قد فهمتها أم كانت أول أنثى تصاب بإحباط من ردود الفعل المتبلدة للذكور.

بعد لحظة صمت متوترة، خلعت نيت عنها قطعة الخشب المشدودة بخيط، وسلت العصي الخشبية المستنة، ووضعتها بين يدي أبيها من دون أن تنطق. «ما هذا؟»، لم تجبه، وإنما استدارت وتهادت إلى خارج الكهف تحمل سيفها القصير. «ماذا ستفعلين؟ سيقتلك عابب». قالت: «أنت لن تتركه يقتلني».

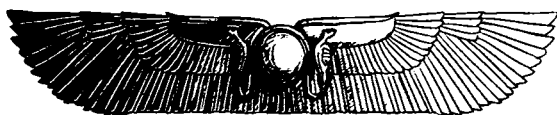
ثم ابتعدت.

التقط الرب الحائر ما تركته له نيت وخرج في إثرها، تسلق بنين في خطوتين، ونظر من على قمته بحثاً عنها، مشرقاً على العالم بنوره في الوقت نفسه، ووجدها. رآها تجري في دوائر غير منتظمة أمام الثعبان الهائج، يهاجمها بكل أسلحته ويقذف عليها كل ما يستطيع، بنفس الحنق والغضب والكراهية التي كان يقاقله بها، لكنها تتفادى كل ذلك بخفة الريح، ولا تحاول رد الهجوم.

فهم أنها تفعل هذا من أجله، تشغل وحش الفوضى عنه. عليه أن يفعل شيئاً، فهي لن تتمكن من تفادي الهجمات القاتلة إلى الأبد. تذكر نقطة ضعف الثعبان الموجودة بين عينيه، وعلم أن الحل يكمن فيما أعطته له. وجد يده تتحرك غريزياً وكأنها مستقلة الإرادة عنه، وتسحب من السلة عصا خشبية مدببة، تسحب «سهماً»، وتشده على «وتر» «القوس» اللدن. صوّب أتوم-رع بإحكام ودقة لن يعرف هذا العالم مثلها مرة أخرى... ثم أفلت.

اخترق السهم الندبة العابية بلا مقاومة تقريباً. انفجرت دماء حمراء كثيفة من جبهة عاب لتغمر المحاربة الواقفة أسفل رأسه مباشرة، تلك التي تنظر إلى أبيها الواقف على التل البعيد وتبتسم. تلوى عاب وفحّ ألماً وحنقاً، كما كان قبل الخلق. ثم قفز قفزة هائلة بفحيح هائل موجوع، وخرج من غلاف شو الجوي ومن السماء، وغاص في نون المحيط مختفياً عن مجال الخليقة.

نظر ملك الآلهة إلى حيث كانت ابته التي أنقذت حياته، فوجدها قد اختفت بدورها.



أول تمرد

١

أصلح الخالق الدمار الذي لحق بعالمه جرّاء مواجهة عابب بنشاط
وحماس من يكرر العمل ذاته للمرة المليون. لم يعد أتوم-رع بذات القوة
التي كان عليها ساعة الخلق، بل أمسى بسرعة غير مفهومة واهناً دائماً
الإنهاك، تبدو عليه إمارات التقدم في السن، مع أنه كان قد نوى لنفسه
ولأبنائه الآلهة الخلود والشباب الدائم.

ومع ذلك -أو لذلك- لم ينصلح العالم مثلما كان، فالأرض مثلاً
على جانبي النهر العظيم فقدت خضارها وغاباتها ومياهاها، وباتت
صحراء جرداء إلا على ضفاف حابي، ولولا أن حابي ينبع من نون ذاته
لفنى مثل البقية. هكذا اضطر أتوم-رع لتوزيع الناس والآلهة على جانبي
حابي بدلاً من تركهم يهيمنون في الجنة الأرضية التي خلقها. هذا غير أن
الأرض ذاتها صارت ترتج من حين إلى حين، فتدك البيوت أو تنشقُّ

وتبلع الفنانين، ومن بطنها تخرج الأفاعي السامة التي تشبه عابب اللعين. مثل تلك المشاكل لا ينفع معها الترميم، بل يتطلب إصلاحها إعادة الخلق من أوله، وهو أمر لم يجد رب الأرباب في نفسه عليه قدرة ولا مزاجًا، ففنع متأففًا بما لديه وأصلح ما وسعه وتابع الحياة على مضض.

فوق بنين، أول نسخة من أتوم-رع، التل الأولي الذي غدا مركز العالم الجديد، أرسى ملك الآلهة أول معبد وقصر له، وحول المعبد قامت أولى المدن وأعظمها: أنو^(٧). واستقر أتوم-رع في قصره برفقة أبنائه من آلهة الجيل الأول، وبدأ يحكم العالم.

نميل في زمننا الحالي إلى تخيل الآلهة القدامى وزراء ذوي تخصصات محددة لا يتخطى كل منهم دوره. لكن لم يكن لكل الآلهة دور، في الواقع كان هناك آلاف آلاف الآلهة، لا نعرفهم جميعًا بالاسم لكن نعلم يقينًا أنهم كانوا موجودين^(٨). من بين هؤلاء الآلهة من لم يُكَلَّف بمهام بعد، مثل جب ونوت، ابن وبت شو وتفنوت التوأمين، اللذين لا يزالان شابين ينعمان بالحياة ولا يكفان عن الالتصاق ببعضهما وكأنهما اكتشفا شهوة الحب لأول مرة لتوهما. ومنهم المكلفون بأدوار بعينها لكنها

(٧) سيطلق عليها اليونانيون بعد دهور «هليوبوليس»، أي مدينة الشمس بلغتهم، وستنتهي بها الحال بعد آلاف السنين لتصبح جزءًا من حي المطرية في مدينة القاهرة. أي لو أنك وقفت يومًا تنتظر أوتوبيس نقل عام أو تفادى توك-توك أو تعرض للتحرش في ميدان المسلة بالمطرية، حيث الأثر الوحيد المتبقي هناك من معبد أتوم-رع القديم العظيم، تذكر أن العالم خُلق من هنا، بحسب النظرية الهليوبوليسية لخلق العالم.

(٨) في الواقع، كلمة نيتشر أو نتر المستخدمة في النصوص المصرية القديمة، والتي ترجمها عنهم اليونانيون (ونحن بالتبعية) إلى إله أو رب، تشير إلى كل الكيانات الخارقة للطبيعة، من الأرباب إلى أشباح المتوفين من البشر، ما يشمل حتى ما نصفه نحن بالجن والعفاريت وأرواح المتوفين والشياطين والوحوش الأسطورية، وكل ما لا تدركه الحواس البشرية.

ليست حصرية تمامًا؛ الشمس مثلًا هي عين أتوم-رع ومجال سطوته بلا جدال، لكن مع ذلك سيرتبط وجودها بآخرين، مثل حوت-حرو التي نبتت منها وستظل ترمز إليها، وحوت-حرو نفسها هي ربة الجمال والحب والخصوبة، لكنها ستضطلع لاحقًا بدور بعيد كل البعد عن الجمال والحب، وسيتولى ربات وأرباب آخرون أدوار الحب والخصوبة أيضًا. والقمر كُلف به الإله خنسو، لكن دحوتي سيتولى إدارته لاحقًا، ولن يعني ذلك انتفاء دور خنسو. هكذا يلعب الكثير من الآلهة العديد من الأدوار بلا تبرم، في كفاءة قلما وُجدت في بانثيونات العالم القديم.

على ذكر دحوتي^(٩)، فهو إله ذو أهمية فائقة هنا؛ إنه العقل المنطقي والمعرفة المادية لرب الأرباب. هو وزير السلطان ونائب المدير والرجل الثاني في الكون، هو الشخص الذي يعرف شخصًا يعرف شخصًا تلجأ له فينجز لك مصلحتك... لكن لا تنس القرايين المناسبة. تختلف المصادر في أصل خلق دحوتي، بعضهم يدعي أنه من دفقة الخليقة الأولى، مثل ماعت وشو وتفنوت، وآخرون يقولون إنه وُلد من مخ ست، وهي رواية خاطئة بلا شك، لأن لدحوتي دورًا مؤسسًا في ميلاد ست ذاته، لكن الرواية التي أتيناها هنا تفترض أنه انبثق من قلب أتوم في لحظة مرارة، لا شيء إلا لأنها تفصيلية في غاية الجمال^(١٠). لا يتعذر علينا تخيل أتوم-رع المنهك من إصلاح الكون بعد فساد، يفكر فيما لا يزال ينقص عالمه، ومضطربًا لأن يدير كل صغيرة وكبيرة في الكون بنفسه بينما لا تزال بقية الآلهة تتخبط وهي تستكشف العالم كالتافهين من البشر،

(٩) أو تحوت كما سيسميه اليونانيون.

(١٠) ما يعطيك فكرة عن مصداقية كتابي ونهجي في تقصي الحقائق.

فيلعن اللحظة التي خلق فيها العالم بكل متاعبه ويتمنى لو أنه لم يخلقه، أو لو كان هناك من ينوب عنه في التخطيط والتدبير والإدارة، وينبثق منه ساعتئذ نائبه الداهية، أول البيروقراطيين في العالم وإله الموظفين، دحوتي. لو كنت إلهًا مصريًا قديمًا، فمن مصلحتك بلا شك أن تكون صديقًا لدحوتي، أو على الأقل أن تتجنب عداوته.

أما بخصوص بشر هذا الزمان فلا نعرف عنهم إلا أن هذا كان العصر الذهبي الذي عاش فيه البشر والآلهة معًا بلا حجاب يفصل بينهم، عاشوا في أنو وفي غيرها من المدن والقرى الوليدة على ضفاف حابي. فيما عدا ذلك لا تأبه السجلات بالناس في عصر الآلهة، فهم كائنات ثانوية كما هو واضح ولن يكون لهم ذكر في الأحداث إلا كأعداء هامشين عندما يخرجون عن الطاعة، فيُذبحون. لن يهتم التاريخ بهؤلاء المهمشين إلا عندما يتراجع جميع الآلهة إلى السماء ويبدأ عهد حكم ملوك البشر، عندما يصبح هؤلاء الملوك مقدسين بدرجات متفاوتة تجعلهم جديرين بالذكر لعلاقتهم بالآلهة.

٢

مر وقت غير قليل - لكنه غير محدد، فلا يزال العالم يفتقر إلى وسيلة معيارية لحساب الزمن - على مواجهة أتوم - رع الأولى مع عابب. لم يزل البشر يتناقلون حكاية تلك المعركة القديمة بين رب الأرباب والشعبان الشيطان باعتبارها أسوأ ما شهده وسيشهده العالم، وبيقين أن لن يقع

مجددًا ما يقلق إيقاع العالم الذي بات أميل إلى الاستقرار. وهو اعتقاد، على سذاجته، شاركه معهم أكثر الآلهة.

أقول أكثر الآلهة وليس كلهم، فقد حدث أن بلغ مسمع ملك الآلهة نبأ مبهم مفاده أن بعض الآلهة (غير المعروفين) يجتمعون سرًا ويذكرونه بالسوء، ويتمردون (بشكل ما) على سلطته.

تلك الشائعة الخالية من التفاصيل كانت كافية لإثارة نائفة الخالق المسن، كيف يجرؤ هؤلاء الملائعين على ذكره بالسوء؟ وكيف واتتهم جرأة التمرد على هذا النحو الشنيع (الذي لا علم لنا به) على سلطة رب الأرباب؟ أبعد كل ما فعله لأجلهم؟ بعدما خلق العالم وهزم عابب وجعل كل شيء على أكمل وجه (إلى حد ما)؟ أيردون له الجميل بالتمرد والتقول عليه؟

كان يخرج من أنو بخطوات سريعة مهرولة، حاملاً سيفاً ودرعاً ويسب ويلعن، عندما ناداه صوت وجل خفيض: «على رسلك يا مولاي. إلى أين أنت ذاهب ساخطاً على هذا النحو؟». التفت ملك الآلهة بحدة وقد راعه أن يتدخل أحد في شؤونه، ناوياً أن يحرق صاحب السؤال في التو والحال، لولا أن تذكر قبل أن تطلق عينه الشمسية نارها أن صاحب الصوت هو الوحيد المنوط بالتدخل في شؤونه.

«ألم تسمع يا دحوتي بأولئك الملائعين المتمردين؟»، «صحيح، سمعت، لا حديث للآلهة إلا عنهم»، «سأدمرهم عن بكرة أبيهم، سأقطع رؤوسهم، سأحرق أمعاءهم، سأجعلهم يتوسلون الرحمة ولن..»، «بالطبع يا مولاي، بالطبع... لكن أين هم بالضبط؟».

«ماذا؟ إنهم في الليل، بالتأكيد في مكان ما في الليل».

والليل حتى الآن مكان لا زمان. إذ إن أتوم-رع، الذي الشمس عينه، يسكن في أنو، ولا يكاد يخرج منها إلا لمأماً. هكذا تبقى أنو مدينة الشمس والأماكن القريبة منها أراضي النهار، بينما الليل هو كل الأماكن البعيدة التي لا يصلها نور أتوم-رع، وتلك أماكن مهمة، لا يلقي لها الرب -حتى الآن- بالاً، ما سمح للشروع أن تجد لنفسها مستقراً فيها، بعيداً عن عينه، ولا يقدر ضوء خنسو الباهت على كشفها.

«أنت بالطبع يا مولاي كنت ستكشف موقعهم بنفسك ما إن تشرق عليهم»، «نعم، أكيد، هذا ما كان سيحدث لو أنك لم تقاطعني»، «أعذر عن مقاطعتك يا مولاي. هلاً سمحت لي أن أساعدك؟ يمكنني على الأقل أن أسليك في الطريق»، «طيب، فقط لا تعيقني».

سار دحوي بصحبة أتوم-رع لبعض الوقت، راقب في صمت أنفاسه تتهدج وخطواته تتباطأ. «هل أنت بحاجة للراحة يا سيدي؟»، «من؟ أنا؟ لا بالطبع»، «في الواقع أنا من يحتاج إلى الراحة. هلاً جلست معي قليلاً تحت تلك الشجرة هناك؟»، «كنت أعلم أنك ستعيقني يا دحوي، حسناً، لكن لن نطيل»، «بكل تأكيد يا مولاي، لحظات فقط لألتقط أنفاسي، فأنا لست بمثل قوتك».

ارتسمت الراحة على ملامح أتوم-رع وأفلتت منه تنهيدة ارتياح حالما جلس، تظاهر دحوي بأنه لم يلحظها. «شكراً يا مولاي»، هز أتوم-رع رأسه ولم يجب.

أخذ دحوي يتأمل المكان حولهما؛ كانا يجلسان على الطمي الأسود تحت شجرة عالية على ضفة النهر العظيم، زهرات اللوتس الزرقاء

متناثرة على سطح النهر الذي تسبح فيه الأسماك وأفراس النهر والتماسيح جنبًا إلى جنب، وتتألق حولهما المياه والزهور والحقول والعالم بنور عين أتوم-رع الشمسية البهية. لكن نور الكون تذبذب فجأة، عندما خفقت العين الشمسية وتجهم وجه صاحبها.

«أنا أعلم لماذا أنت هنا يا دحوتي»، «لخدمتك يا مولاي، دائمًا وأبدًا»، «دعك من المداينة قليلًا، أنا لست أحق، ليس طوال الوقت على الأقل»، «عفوًا يا سيدي ما عاش من قال عنك...»، «أنت هنا لأنك تخشى أني أصبحت عجوزًا واهنًا غير قادر على هزيمة زمرة من العصاة»، «لا، أبدًا...»، «كن صادقًا».

بعد لحظة تردد، رد الوزير بخفوت: «لا، لا أظنك ستُهزم على يد خلقك أبدًا، ما أخشاه أن تقاتلهم فيطول القتال وينهكك، ويتسبب في مزيد من الضرر للعالم».

سكت للحظة، تفرس في وجه خالقه بحثًا عن سخط أو غضب أو إنكار، لكن لما رآه ينظر في النهر بوجه مهموم، علم أنه أصاب هدفه. تابع: «كلما رأيت الضوء العظيم الذي يخرج من عينك يا سيدي اعتمل في قلبي الأسى».

«الأسى؟ لم الأسى؟».

«أفرح عندما أكون قريبًا منك في قلب النور، لكنني أتذكر أهل الليل... بدونك هم فريسة للبرد والوحوش والعصاة المتمردين».

تردد رب الأرباب لحظة، «أعلم هذا، بل إنه يؤرقني يا دحوتي، لا

زلت أحاول تدبير طريقة مناسبة لتوزيع الشمس على الجميع بالتساوي. حسبت أن قمر خنسو سيكفي ليلاً، لكن يبدو أنه غير كافٍ. وليس هذا كل ما يؤرقني، هناك أيضاً السماء وأعمدتها الهشة، والأرض المهترئة، ولا أجد وقتاً كافياً للتخطيط من متاعب الحكم وشؤون الخلق، والآلهة يتصرفون كالأطفال... أرأيت جب ونوت؟ لا يكادان يتركان بعضهما لثانية! تخيل لو كلفت أيّاً منهما بدور كيف سيضطلع به وهو في هذه الحالة؟».

هزّ الوزير رأسه بتعاطف حذر، «كل شيء سينصلح حاله في وقته يا مولاي...»، لكن أتوم-رع تابع في غضبة متصاعدة: «كنت أعتقد أن العالم سيستقر بعدما هزمت عابب، ورضيت حتى بالعالم المتداعي بعده، قلت لا بأس، سأجد طريقة للتعامل معه. لكنني غدوت عجوزاً هشاً في لحظات معدودة. صار الإله الخالد شيخاً قبل الجميع يا دحوتي! لا عجب إذن أن يتمرد عليّ المتمردون... من ذا الذي يخشى إلهاً مزحة مثل هذا؟ لماذا يأبى العالم أن يهدأ؟ أجبني، ألا يفترض بك أن تكون عقلي المفكر وحكمتي مجسدة؟ أجبني يا دحوتي، إلى متى سيكون عليّ أن أواجه الفوضى؟».

لم يجد الوزير مفراً من الإجابة، فقال متردداً: «أحياناً أشعر يا مولاي أن... أن الأمور لا تسير دوماً حسب إرادتنا».

«أي إرادة إذن تسير حسبها الأمور؟ أنا الخالق يا دحوتي!».

ساد بعدها الصمت المرتبك الطويل الذي يتبع عادة الأسئلة المؤلمة الصعبة، ثم بهت ضياء الشمس للحظة بينما يهمس صاحبها: «أنا منهمك يا دحوتي».

أما هذا فدحوتي كان يعلمه جيدًا.

«أخشى مواجهة العصاة وأنا على هذا النحو»، «إنك لا زلت أقوى الأقوياء يا مولاي»، «لا، لست...»، «لكن مكمّن قوتك اختلف، قوتك الآن هي أبنائك الآلهة. حتى لو تمرد بعضهم فلا يزال أقواهم وأعظمهم موجودين ومطيعين لك. نحن يدك وقلبك وعينك وصوتك». عاد إلى عين رع بعض بهائها المفقود، «عُدْ إلى أنو يا مولاي، عد ولا تجعل شمسك تغرب عن مخلوقاتك في رحلة بحث لا نعلم كم ستطول»، «لكن من ذا الذي...»، «أنا، سأجدهم من أجلك»، «وحدك؟ كيف ستواجههم؟»، «أنا لا أستطيع مواجهة قط كفيف وحدي، لن أواجه أحدًا، وإنما سوف أستكشف وأعود بسرعة، وسوف نجد عندئذ وسيلة مناسبة لمواجهتهم».

هكذا عاد الخالق إلى أنو، وصار دحوتي أول جاسوس في الكون.

٣

«... ليس هذا فقط، بل أخرجوا لي ألسنتهم أيضًا».

«أخرجوا لك ألسنتهم؟».

قالها أتوم-رع بغضب حتى فارت عين الشمس وكادت تحرق الحاضرين.

«أخرجوا لك ألسنتهم؟».

قالتها تفنوت بارتياح حتى تناثرت رذاذًا في كل مكان فخففت من وطأة الشمس.

«أخرجوا لك ألسنتهم؟».

قالها شو بقلق فهبت رياح قوية جففت المياه.

«أخرجوا لك ألسنتهم؟».

قالتها حوت-حرو برعب فاحمرت بشرتها النحاسية الجميلة والتمعت جبهتها بالعرق.

أما جب ونوت فلم يتأثرا وكأنهما لم يسمعا بذلك القول العظيم، وظلّا في عناقهما الحميم اللصيق الدائم حد أن من يراهما يحسبهما كائناً واحداً برأسين وثمانية أطراف.

«نعم، أخرجوا لي ألسنتهم».

لم ينفعل آلهة مجلس قيادة العالم عندما حكى لهم دحوتي رحلة بحثه الطويلة التي شملت البلاد كلها، بسماؤها وأرضها ونهرها وبحرها وصحرائها، لم ينفعلوا عندما قال لهم إنه وجدهم في النهاية جنوباً، في الصحراء القريبة من بحدت^(١١)، وكان عددهم مئتين وسبعة وخمسين إلهًا متآمرًا، قادتهم ثمانية، وحو لهم جيش كامل العتاد من المردة والعفاريت والوحوش. ولم ينفعل منهم غير خالقهم لما قال دحوتي أنه وجدهم يتبادلون الافتراءات المهينة ضد رب الأرباب، ويقولون إنه لم يخلق العالم ولا له أي قيمة غير عينه الشمسية، وأن أيًا من قادتهم الثمانية يستحق العين الذهبية أكثر من أتوم-رع الذي لا هو عظيم ولا له قيمة.

(١١) بحدت الآن هي مدينة إدفو في شمال محافظة أسوان.

لكنهم انفعلوا أشد الانفعال عندما أخبرهم كيف أن المتمردين عندما كشفوا وجوده قبضوا عليه وكبلوه، وأخرجوا له ألسنتهم!

«يا لهم من ملاعين».

الحقيقة أن عند الآلهة المصرية، وربما عند المصريين القدماء جميعاً، كان فعل إخراج اللسان بمثابة أسوأ درجات التحدي والإهانة وإعلان العداوة والبغض، إنه تعبير عن نية تُخرج اللسان في تدمير عدوه بالكامل حتى لا يعود له وجود، وعن احتقاره الكامل له ولكل ما يمثله.

«ثم فكوا وثاقي وتركوني أرحل، وهم يشتمونني ويشتمون أتوم-رع العظيم».

«هذا لا يمكن السكوت عليه، أنا ذاهب لقتالهم حالاً».

«نعم، دمرهم يا أبي»، «اقض عليهم يا أبي»، «كن حذرًا يا أبي». اكتفى شو وتفنوت وحت-حرو بالتشجيع والتوصية بالحذر دون أن يحركوا طرفاً. دحوتي وحده لاحظ الذبذبة الواهنة في العين الشمسية، ربما لأنه كان يبحث عنها. التزم الصمت لوهلة تاركًا أتوم-رع مجهز سيفه وقوسه وأسهمه (قوس وأسهم نيت التي لم تظهر مجددًا بعد ظهورها الدرامي ساعة قتاله عابب)، يعلم أن أباه ينتظر تدخله، استمتع بهذا الشعور قليلاً قبل أن يتحدث في النهاية:

«لعل من الأفضل أن تترث قليلاً يا مولاي، إنهم كثرة وكاملو التسليح والقوة والعتاد»، «أنا كفيل بهم كلهم»، «نعم، بلا شك، إنك لقادر على إبادتهم بلا عناء. لكنهم يقيمون في مغارات بعيدة بالصحراء

الكبيرة. المسافة طويلة وعددهم كبير، ربما تستغرق وقتًا في مجابتهم، ولن تتحمل الآلهة والبشر على ضفتي النهر الحياة من دونك لفترة طويلة».

«ما العمل إذن؟».

قال شو: «نرسل جيشًا من الآلهة والبشر لإبادتهم».

قال دحوتي: «هذا بالضبط ما يريدونه، لهذا تركوني أرحل كي أعود إليكم فنخوض هذه المحادثة ونرسل إليهم جيشًا عارمًا، وتدور حرب طاحنة يذيع صيتها في العالم، فيقال إن أتوم - رع يحتاج إلى جيوش تدافع عنه، فيتبلبل الجميع وتنتشر دعوتهم في كل مكان، ولا يعود بالإمكان السيطرة عليها».

قال أتوم - رع حانقًا: «إذن لنتركهم، بل لنرسل لهم الهدايا والقرايين ونسلمهم سلطتنا كاملة، لنعطهم قرص الشمس على طبق فضي. أهذا ما تقترحه يا دحوتي؟»، «لا يا مولاي ليس هذا ما أقترحه»، «إذن ما الذي تقترحه بحق قرص الشمس؟». ظل الوزير صامتًا منتظرًا انحسار ثورة أبيه، ولم يطل الوقت قبل حدوث ذلك وحلول التوتر وشيء من الخوف محل غضب أتوم، وصارت عيون الحاضرين كلها مركزة على الإله النحيل المتبخر. حينئذٍ تنحنح ونطق:

«كي نثبت قوتنا المطلقة وسلطتنا اللانهائية، نحتاج للقضاء عليهم إلى قوة ساحقة لا قبل لهم بها، بسرعة وحسم، ويجب أن تكون هذه القوة متمثلة في شخص واحد لا أكثر، لنعلن للعالم أننا لسنا بحاجة لأكثر من ذلك لمواجهة أي خطر مهما كانت شدته»، «كنت سأذهب بنفسني وأنت

من اعترض»، «أنت الملك يا مولاي، لا نحتمل غيابك. لمثل هذه المهام نحتاج إلى بطل». «بطل؟».

٤

«هل أنت متأكد أن هذا قرار صائب؟».

«ثق بي يا مولاي. أعلم أنه يبدو خطرًا، لكن حرو الأقدر من بين الآلهة على تلك المهمة، هذا غير أنه يعيش في بحدت بالفعل، ويعرف مسالكها أكثر من غيره».

في قلب الصحراء المتاخمة لمدينة بحدت، وقف رب الأرباب ودحوتي يتأملان حرو البحدتي على مسافة آمنة لبعض الوقت، دون أن يشعر بوجودهما. كان حرو هو الأضخم وأقوى من بين كل الآلهة، عضلاته مفتولة وجسده مشدود، طويل القامة عريض الكتفين، يقف عاريًا تمامًا إلا من قوس وجعبة أسهم وحرية وراء ظهره، وسيف وخنجر حول خصره، وفي يمينه فأس وفي يسراه درع. فكر دحوتي أن هذه أقل الدروع فائدة في الكون، فمن ذا الذي يجروء على مهاجمة هذا العملاق المريع؟

إن حرو الكبير من أبناء نطفة أتوم الأولية، لكنه لم يأبه بالانضمام إلى مجلس الآلهة في أنو وعاش وحيدًا في بحدت، يقضي وقته في الصيد. اسمه حرو، لكننا نطلق عليه حرو البحدتي أو حرو الكبير لأن ثمة حرو

آخر سيولد في المستقبل، ستفوق شهرته حرو الأصلي وبقية الآلهة^(١٢).

كان ثملاً بالصيد كعاداته، يدقُّ قلبه من فرط الحماس عاليًا حتى ارتجف من دويه أتوم-رع نفسه رعبًا (ما بالك إذن بشعور فرائسه؟). مع كل ضربة تقضي على فريسة (ولا تحتاج فريسة إلى أكثر من ضربة كي تموت) يطلق زئير انتصار يرج العالم، تركض الحيوانات منه في كل اتجاه وتختبئ في شتى الأركان. لكن عينا حرو هما الشمس والقمر، يرى بإحدهما كل ما تطوله الشمس والأخرى كل ما يطوله القمر، فأين المفر منه وأين المخبأ؟ «حرو!».

كان يسليخ لبدة أسد عن جثته لما ناداه أبوه. لقد قضى أغلب الوقت منذ الخلق الأول بمعزل عن الآلهة والبشر فلم يتعلم من الكلام إلا أقله. لم يأبه بالنداء الأول أو لم يسمعه. كرر رب الأرباب: «حرو». انتبه هذه المرة، رد بزجرة عالية، ولم يلتفت إلا عندما تكرر النداء لثالث مرة، وعندئذ أمره أتوم بصوت ثابت وأقدام مرتعشة: «اركع لأبيك وخالق الكون العظيم». انعقد حاجبا حرو بعدم فهم. همس دحوتي: «لا داعي للرسميات يا أبي»، ثم توجه إلى حرو: «تحياي للمحارب العظيم ابن الخالق الأعظم»، التقط أتوم خيط الحديث: «نحن هنا لتكليفك بمهمة»، «لنطلب... لنطلب منك القيام بمهمة»، «هناك من يفترون على أبيك يا بني، ويدعون أنه ليس بخالق، ويريدون له السوء، تخيل؟ يريد هؤلاء الكفار القضاء علينا وأخذ الشمس مني».

ظلت ملامح حرو جامدة. عاد إلى سليخ الأسد.

(١٢) وتسمية اليونانيين لحرو (البحدي القديم والجديد الذي لم يأت بعد) هي حورس.

زفر رب الأرباب يائسًا، لكن دحوتي قال أخيرًا: «نريدك أن تقتل الأعداء».

عندئذٍ هدر حرو: «أقتل، أين؟».

وأخذ يقرع بفأسه على درعه حتى تهشمت. حاول دحوتي طمأننة أتوم-رع بهزة رأس، لكنه لم يفلح إلا في الكشف عن قلقه نفسه.

٥

بعدما جاء مهرولًا من أقصى الجنوب إلى أنو، ألقى الإله الأصلع النحيل أمون^(١٣) نفسه على الأرض بين قدمي رب الأرباب، وقال:

«إنما أنت خالق الكون وكل ما صدر منا كان كذبًا وافتراءً، مآخذنا يا أتوم-رع العظيم. نتوب إليك عما بدر منا، عاقبنا بأي طريقة تراها، فقط أتوسل إليك أن تمتنع حرو عنا».

(١٣) في الواقع لا ذكر لأمون وأصحابه القدامى في نسخ حكاية تمرد الآلهة المختلفة، غير أن في حكاية أخرى مبهمة لتمرد غير معروفة تفاصيله، ذُكر أن المتمردين من خمنو [تعني خمنو مدينة الثامون، وهي الآن مركز الأشمونين في محافظة المنيا بصعيد مصر]، وفي حكايتنا هذه عرفنا أن قادة المتمردين ثمانية. ثمة احتمال غير قليل إذن أن هؤلاء المتمردين ليسوا إلا ثامون خمنو الخالق المزعوم.

تقابل سردية الخلق الأنوية التي تمجد التاسوع المقدس، سردية خلق خمنوية؛ وهي بحسب كهنة تلك المدينة أن العالم خُلق من آلهة العناصر الأولية، وهم أربعة أزواج من الذكور والإناث: نون وناونت، المياه الأولية العتيقة، حيح وحاوحت، لا نهائية الكون والوجود، وكوك وكاوكت، الظلمة المطلقة، وأمون وأمونيت، الخفاء اللا-مرئي. بحسب تلك الرؤية خُلق العالم والآلهة والأرض من تزواج هؤلاء الأزواج الأربعة، بمن فيهم أتوم-رع العظيم نفسه!

هكذا لا يسعنا إلا تخيل أن هذه السردية الخمنوية لم تنبع إلا من هذا التمرد القديم، وقادة المتمردين الثمانية أولئك كانوا يدعون زورًا وبهتانًا أنهم ذلك الثامون الخالق، وأن مُلك البلاد والعالم والكون من حقهم، لولا عظمة أتوم ودهاء دحوتي وقوة حرو الكبير... الغاشمة.

تبادل أتوم-رع ودحوتي النظرات المغتبطة الشامطة.

«كيف وانتكم الجرأة على التمرد على خالقكم؟».

«هذا من عمل عابب، هو من وسوس لنا بأننا الأقوى والأحق.

وعدني بالشمس وقال لي إنهم سيسمونني أمون-رع».

«لأقطعن رقبتك، لأحون وجوده من العالم إلى الأبد».

«اسمح لي يا مولاي باستجواب ذلك العاصي الذي جاء يعتذر...

إلى أن يعود بطلنا ويحكى لنا مآثره بنفسه، نريد أن نسمع منك ماذا فعل

حرو بعصبتكم الكافرة؟».

ارتجف أمون عند ذكر اسم حرو، اصطكت أسنانه ودارت عيناه

في محجريهما كمن تذكر عفريتًا.

«بل قل ما الذي لم يفعله يا أخي دحوتي...».

«لست بأخٍ لعاصٍ مثلك!».

«معذرة يا سيدي دحوتي... لم يكن أينا يتخيل أن في العالم قوة مماثلة. كنا

نائمين في كهوفنا، قبل أن نستيقظ فجأة على صيحات عاتية حسبناها لعشرات

المهاجمين، قمنا هلعين وأرسلنا كتيبة من المقاتلين للاستطلاع، غابوا طويلاً

ثم عادوا رؤوسًا... أعني لم يعد منهم إلا رؤوسهم، عشرة رؤوس قُذفت

بيننا، والصراخ الهادر يتابع الاقتراب. قلنا إن القادمين بلا شك جيش هائل

لا قبل لنا به، فملأنا الخنادق بالمياه ونصبنا الأسوار والحراب وجهزنا دلاء

الزيت المغلي ورفعنا السلاح وانتظرنا. ثم هجم كإعصار.

لم يوقفه شيء، تحطمت الأسوار وتناثرت المياه، والزيت المغلي وقع عليه كذاذ بارد زاده انتعاشًا وحيوية، وتكسرت الحراب والسيوف على جسده، وعمل في الجيوش قتلاً وذبحًا وعُضًا، كان يستمتع على وجه الخصوص بانتزاع الأذان بأسنانه.

لم ينتهِ القتال بسرعة، أظنه تعمد إتاحة الفرصة للبعض بالهروب كي يطيل المعركة...».

أصغى أتوم-رع باستمتاع وتألفت عينه الذهبية، وشبك دحوتي يديه أمام صدره وانتصب ظهره مبتسمًا ابتسامة «هذا بالضبط ما خططت له». وعلى الرغم من وهن أمون وهوانه، لم تفت عليه ابتسامة دحوتي، وفي المقابل فات دحوتي ملاحظة نظرة «هذا أيضًا ما خططت له» على وجه الإله الذليل.

«...عمت الفوضى، وركض كل منا مع نفسه يريد الهرب، تحول الآلهة والجنود إلى كل أنواع الحيوانات والأسماك والطيور هربًا من هذا الإعصار العاتي، طاروا في السماء وغاصوا في البحر وحفروا في الأرض. لكنه يرى كل شيء، كل شيء... حول نفسه قرشًا وطارداً الأسماك وأكلها، قلب نفسه صقرًا وسابق الطيور وذبحها، تبدل إلى أسد ونمر وفيل وتمساح وتبع كل الحيوانات وافترسها، لم يترك حجرًا فوق حجر، ولا يزال يطارد الهاربين حتى الآن».

جلجلت ضحكة أتوم المنتصرة المستمتعة عاليًا، أما دحوتي فضاقت عيناه، ثمة أمر لا يهضمه هنا.

«وأنت، كيف هربت منه؟».

«أنا أمون، أنا الخفاء ذاته يا أخ... يا سيدي دحوتي، إن أردت أن أختفي فلا الشمس ولا القمر ذاتهما يستطيعان رؤيتي».

«إذن لماذا لم تهرب بعيداً؟ لماذا جئت إلى هنا؟».

«لأعلن توبتي ورجوعي عما بدر مني إلى الخالق العظيم».

«فقط؟».

«فقط... أعني، بالطبع هذا أهم شيء، و...».

«وماذا؟ تكلم».

«ولأحذر جلالتك من كارثة على وشك الوقوع».

«أي كارثة هذه التي تتحدث عنها؟».

«إن بقية الثامون يختبئون في أنفاق خفية تحت الأرض، لكن لا شيء يخفى على حرو العظيم، وهو في طريقه الآن لحفر الأرض للوصول إليهم، المشكلة فقط أن...».

«أن ماذا؟».

تنهد أمون، ثم أطرق برأسه ليخفي لمعة عينيه، «أنهم يختبئون تحت أحد أعمدة السماء الأربعة بالقرب من ودج-ور^(١٤)، وحرو، مثلما رأيته بعيني، حفار ليس له مثل».

«أتعني...».

منع صوت انهيار جبار قادم من الشمال دحوتي من إتمام جملته.

(١٤) ودج-ور: الأخضر الواسع اللانهاشي، الاسم المصري القديم للبحر الأبيض المتوسط.

جلجلت ضحكة حرو البحتي عاليًا لما رأى في ضوء خنسو الآلهة السبعة أخيرًا، بعدما هشم ذلك العمود الغبي الذي كان يعيقه عنهم. كان يرفع فأسه عاليًا استعدادًا للإطاحة برؤوسهم عندما سادت الظلمة فجأة.

لم يفهم أن ذلك كان لوقوع السماء في ذلك الركن من العالم بعدما دمر أحد أساساتها، فلم يعد حتى نور خنسو الشحيح يصله بعد الآن.

لم تصب فأسه أحدًا من السبعة، فقد كانوا مستعدين. ابتعدوا عن مجال فأسه، وعن ضرباته المستعرة المجنونة اللاحقة بعدما استولت عليه نوبة غضب وجنون لفقدانه الرؤية والفريسة. أشعلوا لأنفسهم المشاعل تضيء طريق هروبهم، أما هو فظل في عماه، ففيم تنفعل النار لو كانت إحدى عينيك من الشمس والأخرى من القمر؟

هرب السبعة وهاج حرو، وجعل يصرخ ويزأر ويهدر ويزجر، ويضرب بأسلحته في كل الجهات. لم يعد يرى، لكنه لا يزال قادرًا على الشعور بالكائنات الحية والقلوب النابضة، دونما تفريق بين عدو وحليف، فأخذ يهشم رؤوس كل من كان به روح ووضع حظه التعس في طريقه. لم يكن ذلك الركن من العالم مهجورًا، فقد عاش فيه العديد من البشر والآلهة الطيبة.

فقد كم هائل من الأبرياء رؤوسهم في الفترة التي استغرقها أتوم - رع حتى وصل، وحتى لما أشرقت الشمس على حرو الثائر المهتاج لم

يهدا، ولم تنطفئ حميته المستعرة للقتل إلا عندما خاطر رب الأرباب بنفسه ووقف أمامه.

حتى دحوتي توسل إلى ملك الآلهة أن يتركه يفكر ليجد وسيلة لإيقاف حرو بالحيلة ولا يغامر بالوقوف أمام حرو، لكن خالق الكون لم يستطع أن يرى أبناءه يتساقطون كالذباب أمام هذا الإعصار غير المسبوق من دون أن يتدخل. وقف أتوم-رع أمام حرو، وقبض على ساعده الذي يحمل الفأس قبل أن يطيح برأس آخر. زهول أتوم نفسه من أنه استطاع أن يوقف قوة حرو فاق زهول دحوتي وحرو والجميع. أما حرو، الذي لم يقابل في حياته قوة تعيقه قط، فقد ارتبك عندما وجد أن هناك من يفعل، وقبل أن يعاود الهجوم باليد الأخرى، انعكس بريق الشمس المبهر في عينه الذهبية وأعاد له صوابه، ووقف جامداً بين يدي أبيه.

٧

استسلم الآلهة الفارون جميعهم. حُكم على بعضهم بالتحول إلى بشر والبعض بالتحول إلى حيوانات. والآلهة الطيبون الذين فقدوا رؤوسهم في ثورة البحتي نالوا مؤقتاً رؤوس حيوانات طيبة عوضاً عنها إلى أن يصنع لهم الإله خنوم الفخراي -الإله الذي كلفه أتوم-رع بأن ينوب عنه في مهمة تصميم الكائنات وصنعها- رؤوساً جديدة. هكذا صارت هناك حيوانات خبيثة مُحترقة -مثل الفئران- يرجع أصلها إلى الآلهة التي تمردت ذات يوم على سلطة رب الأرباب، وحيوانات طيبة مقدسة -مثل البقرة- بسبب اتخاذ الآلهة الطيبين رؤوسها.

أما أمون، رب الخفاء والعقل المدبر للثامون، فقد خُفّف عقابه لتوبته واستسلامه لأتوم-رع، ونُفّي إلى النوبة في جنوب وادي النهر، ووعد أن يظل هناك ساكنًا راضيًا إلى الأبد^(١٥).

حرو القديم سيُ مجد من الآن فصاعدًا كواحد من أهم الآلهة في التاريخ على الإطلاق، وسيخلده الفنانون بصورة قرص الشمس المجنح التي ستزين كل معابد الآلهة، لكنه سيظل في بحدت ولن يهتم بالانضمام إلى مجلس كبار الآلهة، وستحاشى الآلهة تكليفه بأي مهمة أخرى خشية من تفاقم ثورته إلى حد لا تحمد عقباه مثلما حدث سابقًا. وباختفائه صار الطريق ممهدًا لظهور حرو الجديد، الذي سيصبح النسخة الملكية الراقية من سلفه الغاشم.

أما خمنو، مسقط رأس المتمردين، فقد كلف أتوم-رع وزيره بتولي شؤونها بنفسه، للتأكد من عدم اكتساب الأسطورة الزائفة أي ثقل بعد ذلك، وستصبح المدينة مركزًا لعبادة دحوتي نفسه^(١٦)، إلى جوار رب الأرباب بالطبع.

وهكذا انتهى تمرد الآلهة على سلطة ملك الآلهة، وعاد الخالق لإصلاح أضرار الثورة الأخيرة، وتمنى الجميع أن يكون هذا آخر الاضطرابات.

لكنه لم يكن إلا البداية.

(١٥) لكن يبدو أنه لم يخضع مثلما وعد، ففي الدولة الحديثة من عصر الملوك البشر، سيعلو اسم أمون، وسيُعتبر رب الأرباب وملك الآلهة، وسيُطلق عليه «أمون-رع» مثلما وسوس له عاب في الحلم من قبل. عدا أننا لا نعلم إن كان هذا قد حدث بتمرد سهاوي جديد أم بانقلاب ناعم من كهنة أمون.

(١٦) وعندما يأتي اليونانيون في المستقبل البعيد، سيعتبرون دحوتي/ تحوت تجسيدًا لربهم هرمس، وسيطلقون على خمنو مدينة هرمس، أو هرموبوليس.



فناء البشر (إلا قليلًا) والبقرة السماوية

١

مع أن الآلهة الذين تحطمت رؤوسهم في خضم هياج حرو البحتي نالوا بعدها رؤوسًا جديدة جميلة من صنع وتصميم الإله الفنان خنوم، فضل الكثير منهم الاحتفاظ بالرؤوس الحيوانية كأشكال بديلة. وبمرور الوقت، بدأ غيرهم من الآلهة يتخذ رؤوسًا حيوانية مختلفة لأنفسهم أيضًا حتى مع عدم تعرض أشكالهم الأصلية لأذى، بل إن العديد من كبار الأرباب بنوا صيحة الموضة تلك، وصار لكل منهم رأس حيواني -وأحيانًا هيئات حيوانية كاملة- يتباهى به بين الآلهة ويتميز به عن غيره. إذ إن ملامح أكثر الآلهة تشابهه، فهم جميعًا طوال القامة ذوو أبدان كاملة متشابهة، بشرتهم ذهبية نحاسية وعظامهم من الفضة وشعرهم من اللازورد، لن تتمكن من التمييز بينهم إن رأيتهم سوى بعد وهلة من التأمل. هذا طبعًا باستثناء قلة مميزة مثل حوت -حرو التي ليس لجملها

مثيل، ونوت الزرقاء شديدة الطول، ورب الأرباب لهرمه الواضح وعينه الشمسية.

هكذا صار دحوتي يتخذ لنفسه رأس طائر أبو منجل أو هيئته الكاملة حينًا، ورأس أو هيئة قرد البابون حينًا، يبدل بين هذه وتلك وشكله الأصلي كما يحلو له، واتخذت نوت هيئة البقرة، وكذا فعلت حوت-حرو وتفنوت، وإن أحببت تفنوت أيضًا أن تتخذ لنفسها رأس لبؤة لما فيها من شراسة وهيبة وقوة. أما ماعت، فمثلها تمثل معاني مجردة، اتخذت لنفسها رمزًا تجريديًا: ثبّتت على رأسها ريشة جميلة تهفّف مع الريح. حتى رب الأرباب لم يأنف من هذه الموضة، واتخذ لنفسه أشكالًا عديدة، مثل الصقر والعنقاء ومالك الخزين والجعران والكبش، لعل ذلك بدافع من رغبته في مداراة هرمه المتزايد.

وهذا الهرم المتزايد كان من أكثر المسائل التي تؤرق ذهن ملك الآلهة، إذ ما انفكت هيئته تتدهور بمرور الوقت، إذ فقد شعره (حتى أخذ يرتدي شعرًا مستعارًا في بعض الأحيان ليداري صلعه) ونحل بدنه وانحنى ظهره وتجدد جلده؛ بات يبدو كمن بلغوا أرذل العمر من البشر، وأصبح يشعر بها يشعرون به من وهن. وأكثر ما أزعجه في هذا أنه كان لا يعرف له سببًا. كيف يجهل خالق الكون سر ما يحدث له وهو من وضع نظام كل شيء؟

معضلات أبي الآلهة الوجودية كانت تعيق على الدوام مباحثاته الخاصة مع دحوتي. كان يفترض بهما العمل على وضع نظام للعالم، لتوزيع نور عين الشمس بالتساوي على كل العالم والخليقة، ولتوزيع

أدوار إدارة الكون على الآلهة والبشر. لكن كلما اقتربا من الوصول إلى ما يشبه النظام، انجرف أتوم-رع في الشكوى والأنين، ولم يملك دحوتي إلا أن يطيب خاطر خالقه، لا سيما وهو يعلم أن رب الأرباب لا يسر بدواخله إلى أحد من الآلهة إلا هو، وزيره ومستشاره، حتى حوت-حرو قرة عين أبيها لا تعلم شيئاً عن ذلك. لكن دحوتي، بعد مرور دهور من الجلسات الخاصة التي لا تفضي إلى أي نتائج، رد ذات مرة على أتوم-رع وقد فاض به: «مولاي، فيما يخص الشمس ونظام الكون، فقد أخبرتك أكثر من مرة بما لديّ من أفكار، وأتمنى أن تنال أفكارى تقدير ك. أما فيما يخص غير ذلك، فأنا يا مولاي لا علم لي إلا بالعالم المادي الذي خلقتة أنت، أما ما يتجاوز حدود الخليقة، فأنا عن فهمه عاجز، ولعلك تستشير في أمره من يعلم أكثر مني ومنك».

بيد أن البابون الحكيم ندم على قوله فور أن خرجت الكلمات من منقاره من دون سبيل لاستعادتها.

«ومن ذا الذي يعلم أكثر مني يا دحوتي؟»، «عفوًا يا مولاي، لم أقصد أن...»، «بل أنت تضمّر شيئاً، أرى ذلك في عينيك»، «اغفر لي، لقد تجاوزت حدودي»، «انطق يا دحوتي، أنا أمرك بأن تفصح عما لديك»، «وتمنحني الأمان إن فعلت؟»، «ربما، لكن العقاب أكيد إن لم تتكلم». ارتاع دحوتي، ود أن يهرب، لكن لا مفر من غضبة رب الأرباب، «أمرك يا مولاي. إنها قصدت أن تستشير من كان معك ساعة الخلق، ذلك الذي شهد كل شيء»، «عابب؟ أتريدني أن أستشير عابب؟ هل أنت مجنون؟»، «لا أقصد عابب يا مولاي»، «من إذن؟».

إجابة دحوتي كانت غير متوقعة حد أنها صعقت الإله العجوز وأذهلته، وظل يحدق في رأس وزيره ذي المنقار الطويل بفم مفتوح لبعض الوقت، حتى انسحب دحوتي من حضرته بعدما انحنى وتمتم بكلمات اعتذار، وابتعد مهرولاً لا يكاد يصدق أنه نجا.

إنه اقترح عبقري بلا شك، لكنه أيضاً غير مأمون العواقب على الإطلاق. بل ربما يكون غير ممكن في الأصل، وإن أمكن فربما لن يفيد، وإن أفاد فقد يؤدي إلى زعزعة سلطته وتقويض أواصر عالمه الذي بناه من خلاصة روحه وإرادته. كان يجب أن يقطع رأس دحوتي لمجرد تفكيره في هذا الأمر، لكن... لكنه بصراحة، اقترح عبقري.

هام أتوم-رع على وجهه في الطرقات متابعاً التفكير، خرج من القصر وسار بلا هدى في أنوب بين البشر، لم ينتبه لوجودهم أو يلقِ بالاً لهيئته. كان بهيئته الأصلية، المسنة، محني الظهر متغضن الجلد، لا يرتدي إلا مئزرًا رقيقًا يغطي نصفه السفلي وتبرز من أسفله ساقاه النحيفتان المشعرتان، ولون بشرته النحاسية لا يختلف كثيرًا عن لون بشرة عامة الناس البنية، ولا سيما مع الظلام، فقد بهت عينه الشمسية مع شروذ ذهنه حتى صارت أقرب لعين عجوز أعور ميتة، ولم يسمح ضوء خنسو لأي شخص بإمعان النظر لتمييز أن هذا رب لا بشر.

أدرك أخيرًا أنه بين البشر عندما اصطدم بأحدهم عرضًا فأوقعه.

صاح الرجل وهو ينهض: «ألا ترى أمامك يا حمار؟ إنك لعجوز خرف مثل أتوم القديم».

بهت أتوم-رع وعجز للحظة عن تصديق ما سمع، ثم انتبه لهيئته وفهم أن الرجل يحسبه بشرًا مثله. لكن حتى مع ذلك كيف يجرؤ إنسان

على ذكر رب الأرباب بالسوء؟ تمهل في الكشف عن حقيقته عله يفهم سر هذا الجحود البشري.

هتف ناهراً: «أي تجديف هذا الذي تقوله عن أتوم-رع الجبار يا رجل؟»، فأتاه الرد من سيدة تحمل على رأسها جرة ماء تمر بجوارهما: «تقصد أتوم-رع المنهار. ألم ترَ ظهره المحني لما يخرج حاملاً قرص الشمس؟». أضاف بائع أوإن فخارية يفرش قارعة الطريق: «أراهن أنه بات مخرفاً لا يذكر حتى اسمه. لا أعلم لماذا نصبر على اضطرارنا لزيارة معبده وتقديم خير ما نملك قرايين إليه»، شاركه ذلك الذي كان واقفاً على الأرض وقد قام وأخذ ينفض عن نفسه الغبار: «أنا عن نفسي تخلّيت عن عبادته منذ زمن بعيد. كل قراييني وصلواتي باتت موجهة لحوت-حرو الجميلة، عسى أن تمنحني زوجة حسناء مثلها». قال بائع الفخار: «أنا أيضاً أفضل حوت-حرو، وإن كنت لا أرغب في زوجة حسناء، بل أرغب فيها شخصياً». قالت المرأة: «عليك أن تتخطى أولاً أباه العجوز، يقولون إنه يحبها إلى درجة أنه يحتفظ بها لنفسه»، «ومن يقلق من عجوز مثله؟ لم يعد بين البشر من يخشى رع الهش، سأنال منها أمام عينيه، ولو منعني سأفعل به المثل»، وحرك وسطه إلى الأمام والخلف ليؤكد على قوله، فانخرط السامعون كلهم في الضحك.

كلهم إلا العجوز الذاهل، الذي ظل متسماً في مكانه بقم متدلّ وعينين جاحظتين تطلق إحداهما شرارات غير ملحوظة، يحاول استيعاب ما الذي سمعه بآذانه المقدسة لتوه. إن الكون لم يشهد منذ الخليقة ما يشبه هذا التجديف، بل حتى تمرد بعض الآلهة على سلطة الخالق من قبل لم يكن بهذا السوء، فقد كانوا آلهة مثله، لحمهم من ذهب

وعظامهم من فضة ومستحقين العبادة. لكن أن يصدر ذلك عن البشر؟
أرذل الكائنات؟ هذا يتجاوز كل الحدود.

سيقضي عليهم، سيمحوهم من الوجود، سيحرقهم عن بكرة
أبيهم، سي... لكن بصراحة لم يخلُ اتهامهم من صحة، فقد وجد رب
الأرباب أنه طال به الأمد شاردًا في ذهوله، حتى انفض كل من كانوا
حوله من البشر إلى حالهم ولم يعد حوله من يعاقبه. لقد صار فعلاً
عجوزًا خرفًا بلا فائدة.

لم يتخلَّ عن قراره بالقضاء على البشر ومحوهم من الوجود، لكنه
سيؤجل ذلك إلى بعد تنفيذ اقتراح دحوتي.

٢

كان دحوتي منخرطًا في لعب النرد مع صديقه القمر/خنسو، حينما
دوى صوت رع كالرعد مناديًا اسمه. انتفض هلعًا فتناثرت حوله قوارير
النبيذ وزكائب القمح التي اختلسها هو وصديقه من قرابين البشر إلى
الآلهة ليتراهنّا عليها بالعباب الحظ التي اخترعها دحوتي خلسة وأدمنها.
هرع كالمجنون إلى حضرة رب الأرباب، ولم تمر ثوانٍ قبل أن يلمس أنفه
الأرض تحت عرشه. إنه لم يره بهذا الغضب من قبل. هل قرر أتوم-رع
عقابه؟ هل هذه هي نهايته؟

«أوامرك يا مولاي».

«اذهب وأحضره».

«من يا مولاي؟».

«لا تصطنع الغباء، اذهب وأحضره، قل له إنني أستدعيه على الفور، بل... بل قل له إنني أطلب حضوره، لكن قلها بحزم، وكأني لا أخشاه، فأنا طبعًا لا أخشاه، أنا لا أخشى أحدًا، أنا أبو الآلهة، هل تفهم؟ أنا أبو الآلهة»، «طبعًا، طبعًا يا مولاي، أفهم جيدًا»، «من الأفضل لك أن تفهم، من الأفضل للجميع أن يفهموا، فقد فاض بي الكيل»، «أوامرك يا مولاي، يا خالق العالم يا ضوء الوجود يا...»، «كفاك تملقًا، اذهب... اسمع، انتظر، استدع أيضًا أبنائي، شو وتفنوت وطفليهما عديمي النفع»، «أوامرك يا مولاي»، «وحوت-حرو، فلا يريح قلبي ولا يروح عن روحي إلا رؤياها»، «أوامرك يا مولاي»، «وافعل كل هذا في هدوء وسرية تامة، لا أريد أن يشعر البشر بغضبي الآن فيأخذوا حذرهم»، «أوامرك يا مولاي»، «لماذا لا تزال واقفًا أيها البابون المقيت؟».

٣

«لو لم تكفا عن الالتصاق بهذه الطريقة المخجلة وتبدأ في التصرف كما يليق بآلهة مقدسة، لأفصلن بينكما ولأجعلن بعد أحدكما عن الآخر بعد السماء عن الأرض».

ارتحى عناق جب ونوت إثر تهديد جدتهما المرعب، وأخذوا يفترقان على مضض. جذب شو جب من يده وكذا فعلت تفنوت بنوت، ووقف أربعتهم مرتبكين أمام عرش أتوم-رع. أما حوت-حرو فقد جلست

على ركة أبيها وأخذت تداعب لحيته بيدها الناعمة وتهمس في أذنه بكلمات مهدئة.

جرؤت تفنوت أخيرًا على التفوه: «عذرًا يا أبي، إن المثل في حضرتك لشرف عظيم لنا في أي وقت، لكن هل لنا أن نعرف سبب الاستدعاء وسر سخطك البالغ؟»، لوح رب الأرباب العجوز بيده ولم يرد. تبادل شو وتفنوت النظرات في صمت. «لماذا تنظران إلى بعضكما هكذا؟ ماذا تعني تلك النظرة؟»، «لا شيء يا أبي»، «بل تقصدان شيئًا، أتسخران مني أيضًا؟»، «ومن يجرؤ على ذلك، بل نحن قلقان عليك»، «آه، طبعًا، القلق بالغمز واللمز. تبتًا لكم جميعًا، اغربوا عن وجهي».

بدأ الأربعة في الانسحاب، غير قادرين على فهم سر سخط أبيهم وملكهم، لكنه تراجع، «بل انتظروا، عليكم اللعنة، انتظروا، سيأتي دحوتي في أي وقت، وثمة ما أرغب أن تشهدوه».

وعليه عاد الأربعة للوقوف في أماكنهم بصمت، وأيدي نوت وجب ترتجف بين قبضتي شو وتفنوت الحازمة، التي تمنعهما من العودة إلى العناق المحموم.

مر وقت مفعم بالصمت المريب، قبل أن يلج القاعة أخيرًا دحوتي، بصحبة آخر لم يتعرفوه.

خرّ دحوتي من فوره راكمًا لرب الأرباب، في حين اكتفى الآخر بهزة رأس وقورة مرددًا: «التحية على أتموم-رع، خالق الكون ورب الأرباب». أقول هزّ رأسه، وإن كنت غير متأكد إن كان هذا واقعًا أم مجازًا. صحيح أنه كان له رأس، وكان له مثل البقية جذع وذراعان

وساقان، لكن باستثناء الإطار الخارجي لهيئته لم يكن فيه ما يمكن تمييزه، لا يمكنك أن تعرف لو نظرت إليه إن كان مكتسباً أم عارياً، أو إن كانت في وجهه ملامح أو في جسده أعضاء، فقد كان مبهمًا كالليل، لا ينعكس عليه نور عين رع المشرقة، مثل ثقب أسود، مثلما سيطلق البشر على أجسام سماوية تشبهه في المستقبل البعيد. حتى صوته، رغم وضوحه الشديد، بدا وكأنه لا يصدر عنه ولا عن أي مكان قريب، بل مثل صوت آتٍ من زمن عتيق، قطع ملايين العوالم والأكوان حتى وصل هنا.

تحول رعب الآلهة من أبيهم الغاضب إلى القادم المجهول، وتبادلوا النظرات فيما بينهم في محاولة لتحاشي النظر إلى الخواء الذي يتجلى عبره. أما نوت وجب، فقد جعلهما الرعب، بالطبع، يتفضان ويعودان لمعانقة بعضهما بحميمية، ما جعل أباهما شوايزفر بخيبة أمل زفرة عميقة، لم تؤثر في الحضور من الآلهة، لكنها أثارت في العالم الخارجي الزوابع.

رد أتوم-رع تحية الزائر: «التحية والسلام على المحيط السرمدي الذي منه نحن جئنا».

أضاف نون: «واليه تعودون».

٤

حدق أتوم-رع مطولاً في نون، وحدق فيه نون بدوره مثلما سيقترح نيتشه لاحقاً. حاول رب الأرباب استشفاف نوايا ومقاصد المحيط القديم، الذي بمعجزة ما تجسد وجاء من خوائه اللانهائي ليمثل أمامه.

لكنه لم ينجح في سبر أغواره، ما جعل توتره باديًا في شمسهِ المرتجفة كمصباح على شفير الاحتراق.

«لا تقلق يا صاحب الشمس، لا غرض لي في عالمك ولا رغبة لي في سلطان أو ألوهية، أنا هنا فقط لتأدية دوري». ارتخت ملامح أتوم-رع المتشنجة قليلًا، لكنه قال مع ذلك: «بل أنت هنا لأني طلبت حضورك»، «أنا هنا لتأدية دوري، مثلما تؤدي أنت دورك بالضبط»، «أنا لا أؤدي أدوارًا، أنا من يضع الأدوار»، «احسبها كما تحب، لن يغير ذلك من واقع الأمر شيئًا»، «تحدث باحترام، أنا رب الأرباب»، «وأنا لست من أربابك ولا أخضع لسلطتك».

اشتعلت عين الشمس وجزَّ الرب العجوز على أسنانه. اختبأت حوت-حرو في حضن أبيها وقد أصابها الموقف كله بذعر شديد. أما دحوتي، فقد رفع رأسه بحذر، وقد شعر أنه من سيدفع الثمن لو ساءت الأمور أكثر، ووجه حديثه صارم اللهجة إلى نون: «يسود مولاي أتوم-رع المجيد على السماء والأرض والبحار والنهر والجبال والوديان، ويمنح الحياة لمن يريد ويسلبها ممن يريد، لا حاجة له بمياهاك المظلمة»، وعلى الرغم من أن التحديق في نون كان يعذبه، فإنه ظل يفعل بصمود، متمنيًا أن يفهم مقصده. ثم شعر بأن ابتسامة متهكمة متفهمة بدرت عن المحيط الأزلي، هل يمكن أن يتسم الخواء؟ ربيها، وامتن دحوتي لتلك الابتسامة الشبحية. قال نون: «بالطبع، بالطبع».

هدأ اضطرام عين رب الأرباب وقد استعاد بعضًا من هيئته المهدورة. قال: «أتعلم لم طلبت حضورك؟»، قال نون: «تريد سؤالي عن ثلاث: نفسك والآخر والناس»، «كيف عرفت؟»، «هذه ليست

أول مرة»، «ماذا تعني؟»، «قلت لك إني أؤدي دوري». فتدخل دحوتي مجدداً: «هات ما عندك».

سكت نون للحظة، وكأنه يستمتع بالدراما التي يحدثها وجوده، فهو في النهاية رغم سرمديته لا يحظى بفرص عديدة لتبادل الحديث مع الآخرين. أرخت الآلهة الموجودة تحفظها وبدأت تحتلس النظر والسمع، بعدما بات جلياً أن ثمة أهمية لما سوف يُقال. قال نون أخيراً:

«أما عن نفسك، عن هرمك ووهنك، فهما نتيجة خلقك، الآلهة والبشر والسماء والأرض والشمس، وكل ما أوجدته. كلما كبر العالم وزاد الخلق، يفقد تجسد أتوم-رع من طاقة وجوده أكثر. قد يحسب البعض أن هذا الجالس على العرش عجوز واهن، لكن هذا وهم، سيظل أبداً أقوى ما في الكون... لأنه الكون».

اختلجت عينا أتوم-رع، شعر برغبة مباغته في البكاء قتلها في مهدها خشية اهتزاز كبريائه، وخشية أن تتحول دموعه إلى مزيد من المخلوقات. هز رأسه بوقار. تابع نون: «أما عن الآخر، عاب المسكين...»، قاطعه رع: «مسكين؟»، «نعم مسكين، أسير دوره مثلنا جميعاً. إنه نقيضك، لو أنت إرادة الوجود فهو العدم. لا يملك إلا أن يتربص بك ويحاول القضاء عليك كلما استطاع». «ماذا يفترض بي أن أفعل إذن؟ أن أشعر نحوه بالشفقة؟»، «لا، بل ستحاول أن تقضي عليه بدورك. الصراع بينكما لن يتوقف شئنا أم أبينا، لن يقضي أحكما على الآخر أبداً، فلا وجود لأحدكما من دون الآخر. لكنك مع ذلك ستهزمه ما دامت بك إرادة للحياة، ويوم تفقد تلك الإرادة سينتصر، وفي نصره نصرك».

نهض أتوم-رع بحركة مباغثة حتى إن حوت-حرو وقعت من حجره إلى الأرض. صاح في دحوتي: «أجئت به ليجيب عن أسئلتني أم ليزيدها؟»، «صبرًا يا مولاي»، قال نون: «إنما أنا هنا ل...».

«لتأدية دورك اللعين، فلتفعل، لنتته منه وتعود إلى سرمديتك».

جاء نون بإيلاء تحاكي من يحاول التنفس بعمق (دون أي نفس حقيقي)، ثم تابع: «أما عن الناس...»، «هؤلاء الرعاع المحترقون، كيف جرؤوا على ازدراء رب أربابهم؟ كيف نسوا أني خلقتهم من عيني؟»، «ستؤدبهم»، «بل سأدمرهم تدميرًا»، «افعل ما شئت. سيظل البشر على الدوام يجدفون ويهرطقون ويسخرون، ستظل عبادتهم هشة وطاعتهم مؤقتة. لذا يجب إرساء مثال للعقاب الذي سينالونه على كفرهم»، «سأقلب الأرض فوق رؤوسهم، سأ...»، «لن تفعل أنت، بل سيفعلها غيرك نيابة عنك»، «لا، لن أثق في حرو الغاشم مرة أخرى»، «لا أقصد حرو، بل حوت-حرو»، وأشار السرمدي إلى الجميلة التي لا تزال على الأرض، تتألم منذ وقعت من حجر أبيها.

٥

كم تألمت حوت-حرو لما سقطت عن حجر أبيها الحبيب. تألمت من الوقعة، وتألمت أكثر من عدم انتباهه لسقوطها ووجعها. عذمت على البقاء أرضًا متكورة حول نفسها تبكي حتى يلاحظها أحدهم ويأتي كي يتأسف لها، ويساعدها على الوقوف، ويطري جماها ورقتها ولطفها.

أول من لاحظها كان الضيف الغريب، أشار إليها ونطق اسمها. بالتأكيد كان يلوم أباهما على تركه إياها على الأرض حزينة موجهة. تبعت إشارته نظرة مرتاعة من أبيها، نادم بلا شك على تركه إياها تتألم. شعرت بالامتنان للضيف، وتكورت على نفسها أكثر. لم تسمع حديثهم بوضوح، لكنها ميزت اسمها يُردد باستنكار وانزعاج على ألسنة الآلهة، يلومونه طبعًا على سوء تصرفه تجاه الأجل والألف والآخر بينهم.

انصرف الغريب. جيد، سيعود الاهتمام كله لها وحدها الآن. وحدث ذلك فعلًا، تحلقت الآلهة حولها، واحتضنها أبوها بحنان وحملها، فأطلقت العنان لدموعها، وأدارت له وجنتها كي يقبلها، وهو ما فعله على الفور.

قالت لها تفنوت: «لا تخشي شيئًا يا حبيتي، كلنا معك، وكلنا سنساعدك». أحبت حوت-حرو تعاطف ربة الرطوبة مع ألمها على الرغم من مبالغته، زادت البكاء وأمسكت ساقها مصطنعة الألم. صاح أتوم-رع: «هذا هراء محض، كيف تعاقب طفلة رقيقة مثلها البشر؟». ها هو يقول عنها رقيقة، رائع، لكن مهلاً، ما علاقة هذا بالبشر؟

قال شو: «لا أحبذ فكرة القضاء على البشر برمتها يا أبي»، «بل لا بديل عن عقابهم بشدة، إن خلقهم كان فكرة خاطئة من الأساس. لكن لا علاقة لحوت-حرو بالموضوع، إنها أرق من أن تقتل نملة».

قال دحوتي: «ربما ذلك بالذات هو السبب الذي يجعل حوت-حرو هي الخيار المناسب». كانت حوت-حرو قد توقفت عن البكاء وبدأت تتابع حديثهم بهلع، «الخيار المناسب لماذا؟ ما الذي تحدثون

عنه؟»، تجاهلها دحوتي وتابع: «ربما اختار نون حوت-حرو دونًا عن غيرها لأنها بالفعل الأرق والألطف، لأنها لا تستمتع بالقتال والدمار ولن تنجرف فيه مثلما حدث مع حرو، ومثلما قد يحدث مع أي منا»، وسكت برهة قبل أن يقول: «وبحسب ما أذكر هي أقرب الآلهة للبشر، خلقت من دموعك مثلهم، في الوقت نفسه تقريبًا».

سكت أتوم-رع، بدا أنه يفكر في قول دحوتي. «أبي، ما الذي يقوله دحوتي؟ ماذا تريدون مني؟». نظر لها أتوم-رع مليًا، غرق في تفكير عميق وأفصح وجهه عن تردد لا نهائي، في النهاية عانقها مجددًا. قال بأسى: «يبدو أنك سيكون عليك أن تقضي على البشر من أجلي يا حبيبتى».

٦

عندما فتح بائع الفخار عينيه ورأى ربة أحلامه حوت-حرو واقفة عند طرف فراشه القشي، انتفض قلبه في صدره وانتفض معه غيره من أعضائه. عدا أن سعادته انقلبت رعبًا عندما وجد حول الفراش عددًا من الآلهة الآخرين؛ تفنوت ودحوتي وشو، والعجوز عديم الفائدة أتوم-رع. يعرفهم جيدًا بالطبع مثلما يعرفهم كل البشر الذين يذهبون إليهم في المعابد طوال الوقت، لكن من غير المعتاد أن يستيقظ المرء فيجد جمعًا منهم يحيط بفراشه.

«المجد للآلهة العظ...»، ثم انعقد لسانه بإشارة من إصبع دحوتي. «لا أستطيع، ثقيل جدًا»، «حاولي مجددًا يا حبيبتى». حاولت حوت-

حرو لأجل أيها الحبيب أن ترفع السيف القصير المزخرف الذي يحمله شو بإصبعين، وتمكنت بعد جهد جهيد من رفعه. «ممتاز، والآن اغرسيه في قلبه»، بدرت عن البائع على فراشه صرخة غير مسموعة وجحظت عيناه، حاول أن ينهض لكن دحوي ثبته بقدمه. حركت حوت-حرو السيف بصعوبة، واتجهت به إلى جسد البائع، لكنه وقع منها أرضاً.

بكت الربة الجميلة. «أرجوكم، لا أستطيع، لا أستطيع».

راقب دحوي المشهد بحيرة بالغه. مع أنه من برر اختيار حوت-حرو لملك الآلهة وأقنعه به، فإنه في سريره لم يكن مقتنعاً بما قال. لم يفهم سر اختيار نون للفتاة الغرة، فكرة أنها عين رع والبشر دموعه لم تكن سبباً كافياً لتكليفها بهذه المهمة، إن كانت هي عينه فكلنا أجزاء منه بشكل أو بآخر. غير أنه كان مقتنعاً أن رؤية نون يجب أن تنفذ. عندما اقترح على أتوم-رع من قبل استشارة نون لم تكن تلك إلا فكرة لحظية ندم على التفوه بها، لم يتدبر فيها مطولاً من قبل، كل ما فكر فيه كان أنه ما دام لكل شيء تجسيد ووعي وإرادة حرة، فثمة احتمال لا بأس به أن يكون لنون نفسه تجسيد ووعي وإرادة حرة. مع ذلك فقد أصابه ذهول عظيم عندما ذهب لاستدعائه ووجده في انتظاره وجاهزاً للذهاب، بل وسأله لماذا تأخرت؟ هنا دحوي نفسه حينها على ذكائه، لكنه فزع في الآن ذاته من حقيقة أن ما يقع خارج نطاق معرفته أعظم مما حسب، أو أن معرفته هي الأضييق مما حسب.

قال: «قال نون إنك من ستفعلينها، وقال أتوم إنك من ستفعلينها، أنت إذن الأقدر على فعلها من أي منّا حتى لو حسبت عكس ذلك.

ألا تثقين في حكمة أتوم-رع الخالق العظيم؟». نكست حوت-حرو رأسها، أمسكت مقبض السيف مجدداً، ثم قالت: «لا أستطيع حمله، ولا أعرف كيف أستخدمه». قال شو: «ربما لست بحاجة للسيف، أنت من الشمس، لعلك قادرة على ما يتيح لك القيام بمهمتك»، «ربما، وربما لا قوة لي إلا الرقص والحب والغناء، كيف لربة الحب أن تقتل؟». «لعل الحب أخطر مما تحسبن»، شعر شو أنه قال حكمة عظيمة، نظر إلى زوجته محاولاً استدعاء لحظة رومانسية ما، لكن تفنوت كانت منغمسة بالكامل في اللحظة الحالية، قالت لحوت-حرو: «حاولي بطريقة أخرى يا حبيبتي، جربي أن تخنقيه مثلاً»، «كيف أفعل هذا؟»، «اضغطي بيدك هنا على رقبتك، هيا، حاولي، سأثبتك لك كيلا يهرب واخنقيه».

حاول الرجل أن يتملص، لكن تفنوت ثبتته بإحكام، وراقب بارتياح الربة الجميلة تقبض بكلتا يديها على رقبتك مثلما كان قبل أيام يحلم بها تقبض على ما هو غير رقبتك، وتضغط بقوة... لكن حتى مع جهدها الصادق كانت لمساتها حانية، أقرب إلى تدليك لطيف منها إلى محاولة قتل، وتحولت ملامحه من الرعب إلى ما يشبه الاسترخاء.

ضرب أتوم-رع جبهته بكفه وزفر بعمق، «يكفي، يكفي هذا يا ابنتي». تراجعت حوت-حرو ووقفت بجوار أبي الآلهة بنظرة منكسرة. تفادت عيون الأرباب ملاقة بعضها بالنظر إلى أرجاء كوخ البائع المستهالك، وسرى بينهم الارتباك واليأس.

كان أتوم-رع على وشك أن يصرح بأنه من سيقضي على البشر بنفسه عندما التمعت عينا تفنوت فجأة، وهتفت: «ربما تكون المشكلة

في الهيئة. هيئتك الجميلة الرقيقة تلك لن تساعدك في شيء، جربي مرة أخرى مع اتخاذ هيئة حيوانية». بدأت حوت-حرو في التحول إلى هيئة البقرة، لكن تفنوت تابعت: «منذ أن اتخذت رأس اللبؤة، وأنا تأتيني رغبات عدوانية متكررة، أقاومها تارة وأستسلم لها أخرى، وأعترف أنني وجدت في الانقياد لها لذة مميزة»، أو ما شو مؤكدًا على قول زوجته بينما تتحسس يده بلا قصد ما يؤلمه من جسده نتيجة لتلك الرغبات، «لَمْ لَا تجربين هيئة أنثى الأسد؟ أعتقد أن هيئة البقرة لن تساعدك كثيرًا».

قالت حوت-حرو: «لأكن لبؤة أو لأكن حتى قردة، المهم أن أنتهي من هذه المهمة». ابتلع دحوتي الإهانة في صمت، بينما هتفت تفنوت متحمسة: «سأذهب إلى خنوم وأرى ما يمكنه فعله».

خرجوا تباعًا من بيت بائع الفخار، آخرهم كان شو، الذي تأكد من أن يقول للبائع قبل أن يخرج: «لا تتحرك من مكانك».

٧

لبؤة حوت-حرو اختلفت كثيرًا عن لبؤة تفنوت.

لما أخبرت تفنوت خنوم بطبيعة المهمة المنتظرة من ربة الحب، صمم لها هيئة خاصة تختلف عن كل ما صنعه لغيرها من الآلهة من قبل. إلى جوار رأس اللبؤة البديع المربع، جعل لها جسدًا لا يقل حلاوة وإثارة للغرائز من سابقه، لكنه أطول من بقية الآلهة (إلانات) وأصلب وأشد، وجعل لها لونًا أسود قائمًا لامعًا غير مسبوق. أضفت حوت-حرو على

الهيئة الجديدة لمستها باختيارها أن تلف نفسها برداء دموي فاقع يغطيها من تحت كتفيها إلى فوق ركبتها.

خلبت هيئتها الجديدة الباب الآلهة وأرهبتهم في نفس الوقت. قالت لها تفنوت وهي تتأملها بحسد: «أطلق خنوم على تلك الهيئة اسم سخمت، أي القوية». رددت حوت-حرو الاسم ببطء وهي تتحسس جسدها الأسود الجديد، وكأنها تذوقه: «سخمت... يعجبني».

قدم لها شو السيف عندما عادوا إلى بيت بائع الفخار، تلقت منه وكأنه ريشة. قالت: «ماذا أفعل بهذه الشوكة؟»، رمتها. ثم رفعت يديها أمام عينيها، أشهرت مخالبها الجديدة الطويلة، لعقتها ببطء. لما انحنت على بائع الفخار فقد وعيه رعبًا، انزعجت، صفعته بخفة، «استيقظ»، فاستيقظ.

لكن يقظته لم تطل، فقد نحرت مخالب سخمت عنقه بحركة واحدة سريعة، وتناثرت الدماء في نافورة صغيرة على وجهها. أخرجت لسانها، لعقت الدماء على طرف شفرتها، تذوقتها، ابتسمت، «ليست سيئة».

وارتجفت عين أتوم-رع.

٨

عندما خرجت الصحبة الإلهية من كوخ التاجر الذي بات أشلاء، وجدوا طرقات أنوقد أمست خاوية تمامًا من البشر، وكأن تلك الكائنات الوضيعة تلقت خبرًا ما بالخطر الذي يهددهم. تشممت سخمت الهواء، أطلقت زئيرًا مقتضبًا، «لم يتعدوا كثيرًا، أشمُّ دماءهم»، ثم نظرت

لأبيها، «لأنتمن لك منهم أجمعين، لن تبقى منهم نفس واحدة بعدما أنتهي منهم»، ثم انطلقت راكضة على أربع من دون أن تنتظر منه إجابة، وتابعتها نظرات الآلهة حتى اختفت في الأفق.

قال شو بعد وهلة صمت: «حسنًا، لا حاجة لوجودي هنا، سأعود إلى المعبد»، «خذني معك»، «وأنا أيضًا»، تلكأ ثلاثهم في انتظار قول خالقهم. لوح أتوم-رع بيده الهزيلة، «اذهبوا، سألحق بكم فيما بعد». تبادلوا النظرات، ثم ذهبوا قبل أن يغير رأيه.

إنه فخور، أليس كذلك؟ ابنته الرقيقة الصغيرة صارت محاربة عظيمة وخرجت كي تحقق أمنية أبيها وتستعيد شرفه، أليس في ذلك مدعاة للفخر؟ مدعاة للفرح؟ نعم، نعم، إنه فخور وسعيد، ما يشعر به من توتر ليس إلا شعور لحظي، دقات قلبه المقدس المتسارعة ترجع إلى بهجته، توهج عينه الشمسية الشديد يعود إلى غبطته... بالتأكيد، بالتأكيد. لكن...

ثمة ألم عارم صار يعصف برب الأرباب فجأة، وكأنها توخزه آلاف الإبر الدقيقة. هل ذلك من هرمه الذي عرف أنه لا علاج له؟ لا، إنه يعاني منه منذ زمن طويل، لكنه لم يشعر قط بمثل ذلك الألم الحالي، هذا جديد. هذا غير التآجع الشديد المباغت في عينه الشمسية، تضطرم أكثر من العادي، وكأنها استقلت عن سلطانه.

عين الشمس، حوت-حرو، سخمت!

قلب ملك الآلهة نفسه صقرًا، وطار في الاتجاه الذي انطلقت فيه سخمت، وأخذ يبحث عنها وعن البشر هنا وهناك.

اختفت المدينة من تحته وصار يطير فوق الصحراء، فوق الجبال. امتداد لا نهائي من الأصفر. ثم بدأ الأحمر. أخذت البقع الحمراء تتناثر شيئاً فشيئاً فوق رمال الصحراء، برك دماء. ثم بدأت تظهر الأشلاء، هنا ذراع وهناك ساق، وهل هذه رؤوس مذبوحة؟ يا للهول، يرى بوضوح أمارات الرعب على الملامح الجامدة الدامية.

ثم تنهى إلى مسامعه صراخ... صراخ وزئير.

ها هي، ها هم؛ ها هي تنهش البطون وتضرب الرقاب وتشرب الدماء، وها هم يركضون حثيثاً، يصرخون ويبيكون ويستغيثون، يستغيثون به، خالق الكون ورب الأرباب وأعظمهم، أغثنا يا رع، أنجدنا يا أئوم، ارحمنا يا صاحب الشمس، الآن تذكرون صاحب الشمس يا ملاعين؟ ألم يكن هرمًا بلا فائدة قبل قليل؟

الأمم الذي يعصف به يزداد ويتضاعف. لكنه يعرف الآن سره، إنهم مصدره، إنه يشعر بصدى كل بطن مبقورة وعنق منحورة في داخله! تباً، لم يكن يتوقع هذا، لكنه منطقي، منطقي جداً، إنهم منه، كل المخلوقات منه، حتى لو كفروا به. وعينه المستعرة؟ إنها قرعة عينه التي صارت سخمت، في النهاية هي تجسيد للشمس، ما يحدث في عينه ليس إلا صدى لثورتها وهياجها وتعطشها الجديد للدماء. من كان ليتخيل أن بداخل تلك الجميلة كل تلك الوحشية؟ ها هي تنتزع رأس امرأة حبلى عن جسدها بيدها العارية وكأنها تفتح قنينة خمر، وتعبُّ من دمائها عباً، ثم ترفع خطمها الملطخ بالأحمر إلى السماء وتزأ زئيراً عاليًا أصابه هو نفسه بالرعب. أي جنون هذا الذي سلطه على العالم! أي خراب وأي

دمار، إنها لا تقضي فقط على البشر، بل لو تابعت ما تفعله فهي تقضي عليه شخصيًا.

كان نون على حق، يجب الاكتفاء بعقاب البشر لا إبادتهم، هذا يكفي. حطَّ الصقر المقدس على الأرض وعاد إلى هيئة رب الأرباب العظيم.

«حوت-حرو»، نداؤه كان عاليًا جبارًا.

«حوت-حرو»، صوته كان أمرًا حاسمًا.

«سخمت»، هتافه كان مرتجفًا متوسلاً.

لم تسمعه ولم تأبه به في المرات الثلاث.

«ابنتي، توقفي، أرجوك»، استجابت له هذه المرة، فقط لأن ما عاد هناك كائنٌ حيٌّ عما قريب يسترعي انتباهها، «يكفيك هذا، عودي معي، نال البشر ما يستحقون»، «لا يا أبي، لا يزال هناك الكثير منهم، لن أهدأ قبل أن أحقق أمنيّتك بالقضاء عليهم»، «تلك لم تعد أمنيّتي، يكفيهم ما أصابهم، لن يجسر من بقي منهم على التفوه بالسوء مرة أخرى».

زأرت، صرخت، ضربت الأرض بقبضتيها فتناثرت الرمال وتهشمت الصخور، «بل أنا لم أبدأ بعد، لا يمكن السماح لهذا النوع بالاستمرار في الوجود»، شعر بثورتها عارمة داخل عينه، علم أنه غير قادر على السيطرة عليها. «بل أنتِ وجدتِ في قتلهم نشوة وفي دمائهم لذة، دعي عنك ذلك وارجعي معي إلى القصر، ارجعي حوت-حرو الجميلة التي لا تجد سعادتها إلا في الحب والرقص والغناء، ولا تجد

راحتها إلا في حضن أبيها»، «بل أنت الذي صرت ضعيفًا واهنًا بلا فائدة مثلما يقولون عنك، كلامهم على تجديفه لم يخلُ من صحة. لكن حتى لو سمحت أنت بمثل هذه الإهانات، فلن أسمح أنا. أقسم لك يا أبي، بحق قرص الشمس الذي هو أنا، لن أسمح ببقاء رأس أحدهم فوق كتفيه».

وتلك كانت أول مرة يشعر فيها أتوم-رع بخوف حقيقي منذ واجه عابب أول مرة ساعة خلق العالم. خاف على نفسه وعلى عالمه، وخاف على ابنته قرة عينه التي يبدو الآن أنه سيفقدها إلى الأبد. انعقد لسانه، وانطلقت اللبؤة المنتقمة تتبع الرائحة التي صارت أكثر روائح العالم جمالًا بالنسبة لها، رائحة الدماء النابضة في العروق.

٩

عاد أبو الآلهة إلى قصره في أنو يائسًا بائسًا، لكن مدركًا حاجته إلى التصرف السريع. لا وقت لعقد الاجتماعات واستشارة الآلهة وحذلة دحوتي. شرع يضع خطة ينقذ بها البشر، ينقذ بها تلك الكائنات الحفيرة الكافرة من قبضة قرة عينه الحبيبة. يا لسخرية القدر، يا للفوضى التي آل إليها عالمه. هل علم نون أن هذا سيحدث عندما أشار عليه بما أشار؟ هل خطط لذلك؟ أم هو يتبع دوره كما قال؟ عليه اللعنة. لقد سئم كل شيء، ليت ما خلق البشر، ليت ما خلق العالم، ليت لم يوجد من الأساس.

ما إن وطئت قدماه المقدستان أرض المعبد حتى هدر: «أحضروا لي كل ثمرة تاتات في جزيرة أبو فوراً^(١٧)». هرع الخدم تحملهم أنفاس شو فبلغوا الجزيرة بسرعة الريح. جمعوا آلاف وآلاف الثمرات ذات العصارة الحمراء المخدرة، وعادوا بالسرعة ذاتها. أمرهم أتوم عندئذ، أمام أعين الآلهة المذعورة، بالذهاب مرة أخرى لجمع أشلاء البشر المتخلفة عن هياج ابنته اللبؤة ودمائهم التي صارت تجري في جداول صغيرة في الصحراء، وریشما يعودون أمر العبيد من البشر في معبده بطحن ثمار التاتات مع جعة القمح. وعندما عاد الخدم خلطت دماء البشر وأشلاؤهم بخليط الجعة والتاتات، وامتلاً سبعة آلاف برمیل بالسائل الأحمر المسكر المخدر.

آنئذ كان من تبقى من البشر الذين لم تلحق بهم سخمت بعد، وهم قلة، قد هجروا قراهم والتجأوا إلى أنو، ليحتموا بمعبد رب الأرباب من غضبه المتجسد. وسخمت في إثرهم، تطاردهم مخلقة وراءها أنهاراً من الدماء التي كانت تستمتع بالخوض فيها وشربها، وقرى لا حصر لها تحولت إلى مستنقعات من الطين والأشلاء والدماء. كانت تفقد مع كل قطرة دماء تعبها جزءاً آخر من صوابها وقدرتها على التمييز، باتت إعصاراً عاتياً لا يتذكر حتى هدفه الأصلي، لا يتوق إلا إلى مزيد من الدماء.

لكن رسل رب الأرباب التي تحملها الريح سبقت سخمت، وقبل مدخل أنو أفرغوا السبعة آلاف برمیل في وادٍ كبير، حتى أصبح بحيرة حمراء عميقة.

(١٧) أبو: هي الآن جزيرة إلفتين في أسوان. جاءت التسمية (أبو = الفيل) لأنها كان فيها الميناء الذي يستقبل العاج القادم من أفريقيا، وكذا جاء اسم إلفتين (سن الفيل) باللغة اليونانية. أما التاتات فهو نبات لم يؤكد نوعه، تُرجم اعتباطاً في بعض النصوص إلى نبات الماندریک أو اللقاح. على الأرجح هو إما نبات يستخدم في التهذنة والتخدير، أو لصنع صبغة حمراء.

وبلغت لبؤة عين الشمس بحيرة الدماء والجمعة.

ما إن وقع بصرها على كل هذا الكم من الدماء والأشلاء الطافية على سطحه مثل المكسرات، حتى تملكها الشره. لم تفكر للحظة في ماهية تلك البحيرة أو تستريب في وجودها، وإنما قررت فوراً أنها ترجع غالباً إلى قرية ذبح أهلها أنفسهم بأنفسهم وتركوا لها دماءهم قرباناً، وبكل حبور تقبلت القربان. قفزت في البحيرة، وأخذت تشرب تشرب وتشرب. كم أن هذه الدماء لذيدة ومسكرة ومسكرة أكثر من أي دماء سبق أن شربتها، ليتها تحيي أهل تلك القرية وتقتلهم من جديد لتشرب من دمائهم المزيد. كل جرعة كانت تستدعي أخرى، ولم تستطع سخمت أن تتوقف عن الشرب إلا لما فقدت الوعي.

عندما استيقظت، بعد زمن غير قصير، بالصداع والدوار اللذين سيظلان إلى الأبد يطاردان كل المفرطين في شرب الخمر، أول ما رآته كان الوجه المسن المألوف. بابتسامة مكسورة قال أتوم-رع: «مرحباً بعودتك يا حوت-حرو».

تحسست وجهها، ذهبت شوارب اللبؤة وخطمها، عادت ملامح الفتاة الجميلة، وعادت أظافر ربة الحب البديعة عوضاً عن مخالب ربة الانتقام القاتلة. تذكرت كل شيء دفعة واحدة، مذاق الدم وصراخ البشر وتمزيق الأوصال... أجهشت في بكاء مرير، وارتمت في حضن ملك الآلهة.

لما اطمأن البشر في أنو إلى ذهاب سخمت، خرجوا من مخابئهم وانطلقت صيحات الاحتفال ورُفعت أقداح الجمعة (الخالية من الدماء)، وأخذوا يرقصون ويغنون احتفالاً بنجاتهم.

تأملهم أتوم-رع حانقًا، كيف لهم أن يحتفلوا وقد فنى أكثر بني
جنسهم؟ وكأن الواحد منهم لا يهمه في العالم إلا نفسه. إنه، خالقهم،
لا يزال يشعر بمعاناة من قضوا، في حين يحتفل بنو جنسهم وقد نسوهم
نسيانًا. انتابه غضب لحظي وتمنى لو كان قد ترك ابنته تنهي وجودهم
بالكامل، حتى لو عنى ذلك فناء العالم بأسره وفناءه هو شخصيًا. لثم
رأس حوت-حرو، ساعدها على القيام، مشى بها بخطوات وثيدة بين
البشر المحتفلين في طريقه إلى المعبد.

سيرحل عن هذا العالم بشكل نهائي، لم يعد يطيقه، لكن عليه أولاً
أن يرسي القواعد ويوزع الأدوار بشكل يضمن نظامًا لا يجيد عنه الكون
بعد ذلك قط.

١٠

من جديد اجتمعت الآلهة أمام عرش رب الأرباب في قصر
ومعبد أنو. لا تزال ضجة الاحتفالات تدوي في الخارج، لم يملّ البشر
من الاحتفال والشرب والرقص والغناء، صار ذلك أول أعيادهم
ومهرجاناتهم. مع أن الهتاف كان يمجد أتوم-رع وحوت-حرو وبقية
الآلهة، وتسيل القرايين على المذابح تمجيدًا لهم، إلا أن الآلهة كانوا واجمين
وجوم الخاسرين.

«تعب قلبي من هذا العالم وزهدت أهله. ما كانت فكرة خلق البشر
صائبة، لكن لا سبيل للتراجع عنها الآن. صار ذلك العالم عالمهم أكثر ما

هو عالمنا. إما أن نقضي عليهم فنهلكه ونهلك معهم، أو ننسحب ونتركه لهم».

لم يجروا أيهم على مقاطعته، حتى دحوتى ابتلع لسانه. بدا للجميع أن تلك لحظة فاصلة في حياة الكون، لا تقل أهمية عن لحظة الخلق الأولى، والكلمة لن تكون إلا لرب الأرباب وحده.

«سنسحب جميعاً إلى السماء ونترك لهم الأرض. لكن ليس دفعة واحدة وإلا اختل النظام وانهارت ماعت. سنفعلها بالتدريج، ولن نتم الانسحاب إلا بعدما يصبح البشر جاهزين لإدارة عالمهم بأنفسهم، وعندها ليحرقوه بالكامل إن أرادوا. شو»، اقترب رب الهواء وانحنى، «أوامرك يا مولاي»، «سأוכל إليك أمرين في غاية الأهمية. أولهما أنك ستصبح خليفتي على الأرض، ستصبح ملك العالم والبشر والآلهة عندما أغادر، كلمتك فوق كل المخلوقات إلا لو أمرت أنا بغير ذلك، مفهوم؟». «مفهوم، إن هذا لشرف عظيم. لكن كيف ينجو العالم بغير عين رع عندما تذهب؟».

«سأعمل على توزيع ضوء عيني من السماء على العالم بالتساوي. سأذرع السماء إلى الأبد في دورات ثابتة، هكذا سأمضي فوق كل مكان زمناً يساوي ما أقضيه فوق غيره، وكل دورة سماوية سيصبح اسمها «يوم». ذكر نون تلك الكلمة ولم أفهم قصده وقتها، أما الآن فتبدو لي واضحة وكأني كنت أعلمها على الدوام. ستصبح الأيام وحدة حساب مرور الزمن من الآن فصاعداً».

مال دحوتي ناحية تفنوت، أقرب الحاضرين إليه، وهمس: «أنا صاحب فكرة تلك الدورات بالمناسبة، أحاول إقناعه بها منذ...»، «دحوتي!»، قفز الإله البابون فرعًا، «أوامرك يا مولاي».

«أنت من سيتولى إدارة القمر، أنت وخنسو صديقان بحسب علمي، أليس كذلك؟ رتب معه الأمر بحيث تحسن توزيع دوراته على الأرض عندما أغيب، وتساعدان في حساب الزمن». ازدرد دحوتي لعبه، «سمعا وطاعة يا مولاي».

هتفت تفنوت: «لكن لم الغياب يا أبي؟ إن السماء بيضاء خاوية، أينما ذهبت فيها ستظل موجودًا بشكل أو بآخر».

«لن تظل على نفس حالها دومًا. أنا منهك، لن أطيق البقاء في السماء طوال الوقت بكامل قوتي، أحتاج للسبات كي تتجدد عافيتي وأشرق على العالم من جديد، بالإضافة إلى أن ثمة ما ينبئني أن عاب لن يتركني أروح وأجيء فيها كما أريد، إن لم أكن قويًا بما يكفي لمجاботه سيقضي عليّ، سيقضي علينا»، ثم استدار فجأة نحو حفيديه، نادى بصرامة: «نوت» جفل الجميع، لا سيما نوت التي كانت كالعادة ملتصقة بشقيقها جب. قالت مرتجفة: «أوامرك يا جدي».

«سوف تكونين أنت السماء»، «ماذا؟ لا أفه...»، قبل أن تتم سؤالها، أشار الخالق الأعظم إليها بسبابته، فتحولت نوت الزرقاء الطويلة إلى هيئة البقرة، ثم استطالت واستطالت واستطالت، وتمددت وتمددت وتمددت، حتى أحاطت البقرة الزرقاء بالعالم كله، غطت بلونها

الأزرق الفاتح السماء البيضاء، وحلت أطرافها الأربعة محل أعمدة السماء القديمة البالية.

صرخ جب في ارتياح: «نوت!»، وقفز كي يلحق بأخته ومعشوقته، لكن أتوم-رع صاح بصوت هائل زلزل العالم: «ألم أخبركما من قبل أن تكفا عن الالتصاق بهذا الشكل المخجل وإلا سأفصلكما؟ لم تطيعا أوامري، فاستحققتما عقابي. أنت يا جب من الآن فصاعدًا ستكون الأرض»، وفور إشارة رب الأرباب، انطرح جب أرضًا، واستطال واستطال واستطال، وتمدد وتمدد وتمدد، حتى صار الأرض كلها. أصبح أسود في ناحية وأخضر في ناحية وأصفر في ناحية، أصبح سهولًا وهضابًا وصحاري ووديانًا.

تابع أبو الآلهة: «من الآن فصاعدًا الأرض سلطانك، لا تدع الثعابين الكامنة في باطنها تخرج وتثر سمومها، ولا...»، غير أن جب لم يكن منصتًا، تلوى في مكانه الجديد مسبيًا الزلازل في كل مكان، وصرخ من أعماق الأرض مناديًا: «نوت!». استجابت نوت الملتاعة لنداء حبيبها، فامتلات بالغيوم وأظلمت وارتعشت وتدلّت وهتفت: «جب!».

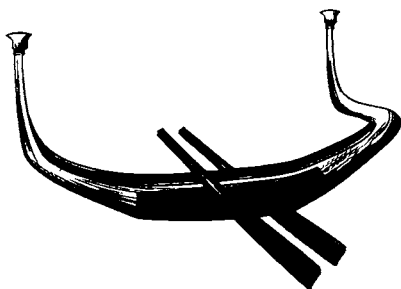
ارتاع الجميع، حسبوا السماء ستنتطبق على الأرض، غير أن رب الأرباب قال بحسم: «شو، تلك هي مهمتك الثانية، عليك يا رب الريح والهواء وحاكم العالم أن تفصل دائمًا وأبدًا بين ابنيك، ولا تسمح لهما بالاقتراب من بعضهما بعد الآن أبدًا».

انقلبت سحنة شو، لم تبدُ عليه السعادة، لكنه لم يملك لأبيه وملكه إلا الطاعة، فاستطال واستطال واستطال، وتمدد وتمدد وتمدد، ورفع

السما فوقه بيديه وهواءه، ودفع الأرض تحته بقدميه ورياحه. لكن شو ارتعش، واهتزَّت فوقه نوت منذرة بالوقوع.

هتف شو: «لن أقدر على فعلها وحدي، ساعدني يا أبي، اجعل لي من يعينني على رفع السماء»، «لك هذا، ليكن لك في الحيح المعونة». والحيح كان أحد الآلهة المهرطقين الثمانية الذين حاولوا التمرد على أتوم-رع من قبل، وهو إله متعدد التجليات يرمز لمفهوم اللانهاية، ويبدو أنه كان من بين من صفح عنهم أتوم-رع بعد مذبحة حرو البحتي، ليدخره لحين حاجة أعربت عن نفسها الآن. وفور قول أتوم-رع، تجسدت ثمانية من تجليات حيح، وذهب كل زوجين منهم إلى أطراف البقرة السماوية الأربعة، وجعلوا يدعمون وقوفها من الأسفل، فخف الحمل على شو، وثبتت السماء بالأعلى مقهورة، وسكن الأرض بالأسفل مجبورًا. بكت نوت وهطلت دموعها أمطارًا تلقاها جب في شوق ولوعة.

قال رب الأرباب: «هذه مشيئتي وهذا حكمي»، والتمعت شمسهُ حتى لم يعد الآلهة قادرين على النظر فيها، «هل من معترض؟». قالوا جميعًا: «السمع والطاعة يا خالق الكون».



رحلة الشمس اليومية

١

الآن وقد صارت سماؤه زرقاء وزمانه أيامًا وليالي، صار العالم أقرب لذلك الذي نألفه.

ليست لدينا أي سجلات عن تفاصيل أول أيام ذلك النظام الجديد؛ لن نعلم قط ما الذي جرى في أول رحلات الشمس اليومية، وكيف كان تقبل نوت لخوض جدها في وعلى جسدها، وكيف وجدت سفينة الشمس طاقمها الأمثل، وكيف كانت مواجهة رب الأرباب مع عاب في السماء لأول مرة منذ المواجهة القديمة، وكيف تمكن أتوم-رع من هزيمته رغم عدم اكتمال طاقمه بانضمام أبناء نوت -الذين لم يحزن زمنهم بعد- وبانضمام الموتى من ملوك البشر الذين سوف ينالون حظوة مساعدة رب الأرباب على رحلته اليومية المقدسة في المستقبل البعيد. لا تأبه السجلات بكل تلك الأسئلة، وإنما تسجل بدقة تفاصيل الرحلة بعدما اكتملت وصارت روتينًا يوميًا لا يطرأ عليه طارئ إلا لمأما.

لكن لو أجلنا الحديث عن رحلة الشمس إلى وقت اكتمالها، فستشق علينا متابعة الحكايات التالية من دون إرساء مسرح أحداثها وتشريح ديناميكية عالمها. لنقفز إذن معًا قفزة زمنية مؤقتة إلى المستقبل المستقر، ولنستكشف رحلة صاحب الشمس اليومية.

٢

يولد صاحب الشمس كل يوم من رحم حفيدته في أقصى الشرق. يولد فعليًا لا مجازًا.

يغطي جسد نوت الأزرق البديع العالم كله. مع أن رب الأرباب لما جعلها السماء أول الأمر كانت بهيئة البقرة، إلا أن العديد من السجلات تصور السماء بهيئة امرأة جميلة طويلة ممشوقة القوام، تقف منحنية، تستقر ساقاها شرقًا وتتدلى ذراعاها غربًا. إما أنها تبدل بين هئتيها كما يترأى لها، أو أن ملك الآلهة قد غير رأيه وجعلها تلتزم بهيئتها الأنثوية في دورها الأبدي الإجباري كسماء العالم.

يستقر حوض ربة السماء وفخذاها عند أقصى الشرق، عند جبال مانو، ويستقر رأسها في أقصى الغرب عند جبال باخو. ينبع من فرجها شرقًا نهر سماوي عظيم يياثل حابي على الأرض، يجري بعرض السماء، ويصب في ثغرها غربًا. هذا النهر السماوي هو مسار رحلة أتوم-رع اليومية، الذي سيصبح من الآن فصاعدًا ثلاثة: خبري، ورع، وأتوم.

خبري هو ملك الآلهة في هيئة الجعران، ويتخذ هذه الهيئة ساعة الولادة اليومية. يخرج الإله من رحم نوت فجرًا على متن مركب

الشمس النهاري معندجت^(١٨)، طفلاً رضيعاً رأسه جعران (أو بهيئة جعران كامل)، لا تزال عينه الشمسية قرصاً وليدًا أحمر، ويخوض مركبه نهر السماء العظيم من الشرق إلى الغرب.

خلال الرحلة، ومع عبور السفينة النهر وتصاعد شدة الشمس، يتحول خبري تدريجيًا إلى رع، النسخة الشابة كاملة القوة والطاقة من ملك الآلهة مثلما كان ساعة أول الخلق، لا تشوبه شائبة، ويبلغ ذروة قوته وشبابه في منتصف اليوم. ثم في النصف الآخر، ومع اقتراب السفينة من جبال باخو غربًا، تضعف الشمس شيئًا فشيئًا، ويدب الهرم في رع الشاب رويدًا رويدًا، وبلوغه منتهى رحلته النهارية عند ثغر حفيدته، يمسي أتوم، وقد دبّت فيه الشيخوخة وبات على وشك الموت، فيغادر معندجت ويعتلي مسكتت^(١٩)، مركب الليل. تبتلعه نوت، ويخوض رحلة الليل داخل جسد حفيدته بشمس مطفأة في سبات الموت، من الغرب إلى الشرق، حتى يستيقظ ويتجدد في فجر اليوم التالي عندما يصل إلى محل إشراقه وميلاده من جديد.

في مصادر أخرى نجد أن رحلة رب الأرباب النهارية لا تقتصر على مركب معندجت فقط، بل هناك سبعة مراكب في محطات بعينها على مسار النهر السماوي، ينتقل رب الأرباب بين أحدها والآخر مع مرور ساعات اليوم. يسحب كل مركب في النهر ستة آلهة بعضهم برؤوس كباش وبعضهم برؤوس بشرية.

(١٨) معندجت: أن تصبح أقوى.

(١٩) مسكتت: أن تصبح أضعف.

لا يبحر رب الأرباب في مركبه وحيداً، وإنما بصحبة لفيف من الآلهة وملوك البشر الراحلين. يجلس (خبري/رع/أتوم) داخل مقصورته في قلب المركب، يستقر فوق رأسه أو يحيط به ثعبان يوريا مقدس، وهو واحد من ثعابين كوبرا ملكية تنفث ناراً حامية، منوط بها حماية مرتديها الملك، ويقود دفته حرو (ليس حرو البحتي، بل حرو حفيد نوت الشهير الذي لم يحن أو ان ذكره بعد). المسار الذي يقطعه حرو يرسمه له يومياً دحوتي وماعت اللذان لا يتخلفان عن هذه الرحلة أبداً. يتبدل المسار من يوم إلى آخر، ما يطيل الرحلة أو يقصرها، من ثم يطول النهار ويقصر بحسب رغبة الآلهة ونظامهم الصارم. يصحب ملك الآلهة أيضاً الأرباب سيا وحو وحكا. سيا هو تجسيد المعرفة والذكاء، وحو هو تجسيد الصوت الخلاق، أي هو الكلمات التي ينطق بها الإله الخالق فتكون، أما حكا فهو تجسيد السحر. هؤلاء الثلاثة معاً بمثابة تجسيد القوى الخلاقية الأساسية لرب الأرباب.

أما ملوك البشر على السفينة -تحديداً ملوك كيميت^(٢٠) التي هي قلب العالم، أو هي العالم ذاته وما عداها أماكن هامشية بحسب هذا النموذج من العالم- فهم القلة المحظوظة الذين يُبعثون بعد موتهم ويترقون لمكانة الآلهة وينضمون لطاقم عمل سفينة رب الأرباب (مناقشة المصائر المتعددة لموتى البشر لن تفوتنا، لكن لندعها لوقتها). يستقر هؤلاء

(٢٠) كيميت هو الاسم القديم لمصر، وتعني الأرض السوداء، وهو ما يعرب عن مفارقة كبيرة في رؤية المصريين القدماء للون الأسود. فمن ناحية هو لون الظلام والمجهول، ما يرتبط مباشرة بالموت، أي كل ما يخشاه المصريون، ومن ناحية أخرى هو لون تربة الأرض الخصبة مصدر الحياة، حتى إن تسميتهم لوطنهم المقدس كانت الأرض السوداء. من هذه المفارقة يمكن استيعاب تقديس المصريين للموت ووصولهم لفكرة الحياة بعد الموت، فلا حياة بلا موت ولا موت من دون حياة.

الملوك في مقدمة المركب، وتتراوح أدوارهم بين تلقي الرسائل الموجهة لرب الأرباب ونقل الرسائل عنه، وبين المساعدة في الملاحة وفي قتال عاب. باختصار يمكن أن يضطلع الملك المبعوث من الموت بأي دور هنا، بحسب الحاجة، وبحسب ما يكتبه له كهنته في نصوصه الجنائزية.

ولا يقتصر الحضور على المذكورين، فكل الآلهة المصرية تقريباً تظهر في وقت أو في آخر مرافقة لرب الأرباب على مركبه الشمسي لتعينه في رحلته وفي مواجهة عاب. لا نعلم إن كانوا يحضرون جميعاً معاً كل يوم، أم أن لهم جدول حضور مثلاً وهناك موظف موارد إلهية مسؤول عن تعيين الأدوار وتسجيل الحضور والغياب.

غير أن الوحيد الذي لا يغيب أبداً عن رحلة الشمس بالإضافة إلى جوار صاحبها، هو نفسه الوحيد غير المرغوب الذي يتمنى الكل زواله بأي ثمن؛ عاب، ثعبان الفوضى وإرادة العدم. لم يتقاعس عاب يوماً منذ ركب رب الأرباب نهر حفيدته عن قطع طريق مركب النهار عدة مرات كل يوم، وحده حيناً وبصحبة أعوانه من المردة والشياطين حيناً، مستهدفًا تدمير قرص الشمس وصاحبها، ما يعني تدمير كل ما هو مخلوق. تتراوح استراتيجياته بين الهجمات المباشرة التي يقصد بها التدمير الكامل للمركب ومن عليها، وبين محاولات الإعاقة غير المباشرة، مثل شطف ماء من إحدى بقاع النهر كي يقع المركب وينغرس في الطين ولا يعود قادرًا على متابعة الإبحار. لكن رب الأرباب وطاقمه من الآلهة والملوك المبعوثين خبروا مع الزمن وتكرار الرحلة اليومية كل ألامه وأساليه ومكان ضعفه، وصارت ضرباتهم وحيلهم وتعاويذهم فعالة

ضده وقادرة على مجابهته. نقرأ مثلاً في أحد التعاويذ القديمة مشهداً يسجل بعض لحظات الصراع:

«عاب، يا عدو رع، ارجع ساجماً بسرعة إلى المحيط
السرمدى نون، ابتعد عن مهد الشمس الذي ترتعد منه
خوفاً.

رع صدّ ضرباتك وأدارت الآلهة وجهك، وقلبك مزقه القط
البرى مافدت.

الربة سرقت رمت شباكها عليك، وأثخنكت ماعت بالجراح
وأسقطتك.

اسقط وتعثريا عاب يا عدو رع.

دحوتي صاحب الكتابة كبله، وذهب رع سالماً ليرتاح.
سليم رع وسقط عاب.

ألم تر كيف كانت لدغة سرقت مؤلمة؟ ستظل تتألم من
لدغتها إلى الأبد.

انظر بعيداً يا من تبغض رع، مطروداً ملقى على جانب
الطريق مفصول الرأس مهشم العظام.

ست صانع العواصف والأعاصير في أفق السماء يبعثر
أشلاءك كما يحلو له.

يقول جب: اصمدوا أيها الجالسون في قارب خبري، تقدموا
وارفعوا أمامكم دروعكم.

تقول حوت-حرو: ارفعوا حرابكم.

تقول نوت: ادفعوا هذا المخرب بعيداً لتفسحوا الطريق لرع
الكامن في قمرته، سيد الجميع الذي لا يُرد.

رع انتصر على عاب»^(٢١).

مافدت^(٢٢) ربة قوية تتخذ هيئة قطة، ويبدو أنها قطة تجيد التعامل
مع الثعابين، خاصة شياطين الفوضى الأزليين منهم. وسرقت^(٢٣) ربة
عقارب، تساعد على الشفاء من لدغات العقارب، وتلدغ أيضاً لدغات
تؤلُم عابب إلى الأبد. سرقت أيضاً ابنة للربة المحاربة القديمة نيت والرب
خنوم الفخراي، ما يجعلها شقيقة للإله سوبك رب التماسيح الذي يتخذ
هيئة بشرية ذات رأس تمساح، ويشارك أيضاً في الدفاع عن رع بالتهام
الشياطين والمتمردين أعوان عابب.

أما ست، الذي يصنع العواصف والأعاصير في أفق السماء ويبعث
أشلاء الثعبان كما يحلو له، فهو أيضاً من أبناء نوت، وستحين قصته مع
ابن شقيقه حرو عما قريب. لكن لنكتفِ هنا بذكر أنه المقاتل الأكفأ على
الإطلاق في مواجهة ثعبان الشر الأزلي، الذي صارت المواجهة اليومية
بوجوده أسهل ما يكون.

لكن محاولات عابب لا تذهب سدى طوال الوقت، أحياناً ما
يتمكن من إحراز انتصار جزئي. حينما تنكسف الشمس أو يغشى العالم

(٢١) بتصرف من «كتاب الموتى - الخروج إلى النهار TB39»، ترجمة شريف الصيفي.

(٢٢) مافدت: العداة.

(٢٣) سرقت: التي تجعل الخياشيم تنتنس.

الضباب، فذلك يعني أن كفة عابب وأعوانه قد رجحت مؤقتًا. لكن أي انتصار لعميل الفوضى لا يعدو أن يكون وقتيًا، ويتمكن رع العظيم دائمًا وأبدًا من هزيمته، وتعود الشمس للسطوع، على الأقل ما دمت تقرأ هذه السطور. إن اللون الأحمر الذي يصبغ السماء ساعة الغروب، ليس إلا من دماء الشعبان القديم بعدما يذبحه رب الأرباب وأعوانه. غير أن هذه ليست إلا نهاية المعركة اليومية، وسيعود عابب مجددًا في النهار التالي، سليمًا صحيحًا متجددًا، مخلصًا تمام الإخلاص لهدفه الوحيد: إعدام الكون وخالقه.

لا نعلم شيئًا عما يحدث مع عابب ليلاً، لعله تتلقاه هيئة إسعاف وإعادة تأهيل احترافية كامنة في نون ليعود في اليوم التالي جاهزًا لتكرار الهجوم. أما رب الأرباب، فنعلم أنه رغم انتصاره يستنزفه القتال المستمر للحفاظ على حياة عالمه، ومع بلوغه الغرب يكون قد كبر ووهن وبات أتوم، عجوزًا بلا حول ولا قوة ولا بهاء، لم تعد شمس أكثر من جمره شبه مطفأة. عندئذ يبدل مركبه إلى مسكنت، ويتابع الإبحار إلى المصب في حلق نوت. يضطر مرافقوه إلى إيقاد المشاعل كي تضيء لهم الطريق داخل جسد الحفيدة السماوية، التي تحول جدها الآن إلى جنين في بطنها، يخلق نفسه بنفسه مثلما فعل أول مرة في مطلع الكون، وسيخرج من رحم حفيدته بعد ساعات، عند الفجر، وليدًا خبريًا يافعًا مفعمًا بالطاقة والحياة. رحلة رب الأرباب الجنينية داخل نوت ليست رحلته الليلية الوحيدة، فالسجلات تخبرنا عن رحلة ليلية أخطر وأهم يخوضها أتوم كل ليلة لكنها ليست في السماء وليست في هذا العالم، بل في العالم الآخر، الدوات، المكان الذي قيل إن أتوم -رع خلقه ليسكن إليه في الليل ليرتاح

من رحلة النهار، لكن أهميته الفعلية لن تتضح إلا بعد أهم جريمة قتل في التاريخ. كل هذه أمور سنناقشها في حينها.

بهذه الرحلة الدورية السحرية (العائلية الحميمة)، صار للكون أخيرًا نظام دقيق، حل حاسم وشبه نهائي للكثير من العضلات الأساسية التي عانى منها العالم المبكر؛ أصبح هناك نظام محكم لتوزيع ضوء الشمس بالتساوي على العالم، وصارت هناك دورة ثابتة من تعاقب النهار والليل، كل ثلاثين دورة تشكل شهرًا، وكل أربعة أشهر فصلًا، وكل ثلاثة فصول سنة، فيصير مجموع دورات/أيام السنة ٣٦٠ يومًا بالتمام والكمال من النظام والاستقرار.



زمن الهواء والأرض

١

في مقابل افتقارنا إلى سجلات الأيام الأولى لرب الشمس في السماء، لدينا منها ما يلقي بعض الضوء على أول أيام الأرض بعدما هجرها خالقها وصارت تتبع سلطة الهواء، لكنها مع ذلك تثير من التساؤلات أكثر مما تجيب. لكن، أليست هكذا هي الحياة؟

لندع إذن رب الأرباب في عليائه ولنعد إلى الأرض، حيث يحكم أول مخلوقاته وأول أبنائه: شو.

بموجب قرار أتوم-رع، أصبح شو رب الهواء ملكًا بلا منازع على السماء والأرض والنهر والبحر والجبال وعلى المحيط نون ذاته (وإن كنت أشك أن سيادة شو على نون لا تتجاوز ديباجات السجلات الرسمية). ومع أن الزمن كان قد بدأ في ذلك الوقت، إلا أن أحدًا لم يسجل كم طال حكم شو، ربما بعض يوم، ربما ألف عام، ضاع الرقم مثلما يضيع من

التاريخ ما يضيع. لكننا نعرف عن حكمه أنه امتاز بالاستقرار والقوة، باستثناء نهايته المؤسفة.

اتخذ رب الهواء من منف^(٢٤) عاصمة له، وسكن مع زوجته تفنوت في قصر عظيم أقامه هناك. قسم شو أرض كيميت لأول مرة إلى اثنين وأربعين إقليمًا، وهو تقسيم سيحافظ عليه خلفاؤه وصولًا إلى ملوك البشر اللاحقين. وعمل على بناء المعابد العملاقة العظيمة للآلهة في شمال مصر وجنوبها، وشقَّ لأول مرة القنوات لتوصيل المياه إلى القرى والأقاليم غير الملاصقة لحابي. هذان العملان، أي بناء المعابد وشق القنوات، هما اثنتان من ثلاث مآثر لا يصف التاريخ التقليدي لهذه البلاد أي ملك بالعظمة إلا لو قام بهما، حتى لو لم تكن هناك حاجة حقيقية لأيتهما، حتى إن ملوك الأيام الحالية لم يتحرروا بعد من سنن التاريخ القديمة هذه.

ثالثة مآثر عظمة شو، وعظمة كل الملوك، هي الانتصار على الأعداء. إذ مثلما ورث رب الهواء عن أبيه العرش، فقد ورث عنه أيضًا تربص التمردين والأشرار بسلطانه وعالمه، وها هو يوشك أن ينتصر على نصيبه منهم ليحقق المجموعة الكاملة.

تذكر السجلات أن ذات يوم، أمر الملك شو حاشيته من الآلهة بإعداد العدة للخروج في رحلة إلى مدينة يات-نيس^(٢٥) شرقًا، كي ينعموا من هناك برؤية أبيه رب الأرباب وهو يشرق/يولد من رحم

(٢٤) سيسمها اليونانيون لاحقًا ممفيس، ومكانها بالقرب من قرية ميت رهينة الحالية بمحافظة الجيزة.

(٢٥) وهي على الأرجح في نطاق قرية صفط الحنا بمحافظة الشرقية اليوم.

ابنته. وعندما بلغوا وجهتهم انشغلوا في بناء وتجديد العديد من المعابد العظيمة في تلك المنطقة، تصفها السجلات بأنها مبانٍ راسخة رسوخ السماء، لعلها كانت كذلك حين أرساها، لكننا على أي حال لم يصلنا منها شيء. وتوج شو إنشاءاته في يات-نبس بحفر بحيرة عظيمة لم يرَ من قبل إله أو بشر لها مثيلاً، بحيرة مقدسة، ستصبح المكان الذي يقيم فيه كهنة معابد المدينة طقوسهم لتمجيد الآلهة.

لكن تزامنت زيارته مع هجوم أبناء عابب القادمين من الأراضي الجافة.

كالعادة، لا نعلم شيئاً عن أبناء عابب هؤلاء. يشي الاسم بصلة قرابة بوحش الفوضى الذي يحاربه رب الأرباب في السماء طوال الوقت، لكن فيما عدا هذا لا يوجد ما يشير إلى طبيعتهم أو كنههم سوى أنهم جاءوا من أماكن جافة يابسة. أهم آلهة متمردون؟ أم هم وحوش ومردة؟ أم بشر، بدو من سكان الصحراء أو أجانب من الشرق البعيد؟ هل هم من أطلقوا على أنفسهم لقب أبناء عابب أم أن اللقب كنية رماهم بها واضع السجلات تحقيراً؟ أم هم أبناء عابب فعلاً؟ يكتنف السجلات الغموض المألوف فيما يخص طبيعة الأعداء، خاصة وهم سيهزمون شر هزيمة بعد قليل. هم فقط جاءوا من الصحراء الشرقية ودخلوا يات-نبس ليلاً - في غفلة من صاحب عين الشمس - ونهبوا كل ما وقعت عليه أياديهم، وخربوا القرى وأفسدوا المياه، ودمروا الكثير من المعابد العظيمة التي بناها الملك، وفرّ سكان القرى من طريقهم.

لكن ملك العالم لهم بالمرصاد. تسلح شو باليوريا الخاصة به، ثعبان كوبرا ملكي آخر مثل الذي يستقر على رأس رب الأرباب، ثم وزع معيته من الآلهة - وهؤلاء أيضًا مجهولون مثل أبناء عابب بالضبط، ممثلون صامتون لأدوار ثانوية - على مجموعة تلال تحيط بالمنطقة مثل متاريس طبيعية تحمي المكان. يسهب النص القديم هنا في وصف قداسة وعظمة تلك التلال، فهي تلال تعود إلى زمن مواجهة رع لعابب أول مرة وانتصاره عليه، إنها الحوائط التي تحمي كيميت من الأشرار، إنها الأعمدة التي ترفع السماء، وتسكن بها أرواح مقدسة هم من يحملون رع من عابب، ويواجهون كل شر بشجاعة... ويتابع النص وصف التلال وساكنيها.

ثم ينقطع.

يتشوه النص القديم ونحن نترقب ذكر بدء المعركة، وبعد الجزء المشوه في السجل القديم نجد شو عائدًا إلى قصره في منف وقد انتصر على الأعداء نصرًا مبینًا، وحقق مثلث العظمة بالكامل.

منيت نفسك بسرد مطول لمعركة عظيمة ثم خاب أملك؟ وأنا أيضًا. لكن لو أن للتاريخ صفة واحدة، فهي ولعه بسحق الأمانى. على كل حال كانت لتلك المعركة رائحة مريبة، رائحة القائد الذي يفتعل حربًا ليقوي أواصر حكمه. أما القصة الحقيقية فعلى وشك البدء، في قصر شو، الذي تنتظره مفاجأة كبرى. من شأنها أن تكون مفاجأة سارة، فهل ثمة ما سيء في أن يزور الابن أباه؟

هذا هو الظهور الأول لرب الأرض جب في السجلات، بعد فصله عن نوت وتكليفه بالأرض. ولا يوجد ما يمنع أن نفترض أنها المرة الأولى أيضًا التي يرى فيها شو ابنه منذ هذا الحين.

تُرى، كيف كانت حال جب في الزمن المنقضي بين هذه النقطة وتلك؟ ربما يسعنا ملء الفراغ الذي خلفته السجلات، بتخمين كيف يمكن أن يكون إحساس شخص لم يبد شيئًا منذ خُلق سوى الرغبة -المستبدلة- في محبوبته، فصل فجأة وعنوة عنها، وكُلف بالوهية لم يسع لها. والأدهى، أن رغم البعد المفروض بين الحبيين، يظلان في مجال رؤية بعضهما بعضًا. هكذا، وبينما يتقلب العاشق المخدول في حضيض الأرض، بين طينها ورملها وصخرها وهيبها، يرى، حيثما ولى نظره، جده يمرق في جسد حبيبته، رائحًا غاديًا كما يتراءى له.

أي أفكار عليها دارت في عقل هذا الإله الشاب؟ أي مشاعر عليها عصفت بقلبه؟

بتأمل حال جب إثر فصله عن نوت، ربما يسعنا تخيل زيارة الابن الأولى لقصر أبيه، الملك العظيم الذي انتصر لتوه على أعدائه. ربما يسعنا فهم هجوم الابن على أبيه فور عودته، وإيذاؤه على نحو شبه مميت. ربما بدافع الانتقام، فهو الوحيد من بين المشاركين في فصله عن محبوبته لا يزال على الأرض وبوسع جب الوصول إليه، علاوة على أنه ممثل رب الأرباب

على الأرض، إيذاء شو إذن بمثابة إيذاء رمزي لرب الأرباب. وربما ارتكب فعله من لوثة حلت بعقله. لكن حتى مع تفهم الانتقام والجنون، يظل متعذرًا على فهمنا فعل جب التالي: اتخاذه لهيئة ثور واغتصابه لأمه تفنوت، أمام أبيه العاجز عن التدخل^(٢٦)، ثم حبسها في القصر.

والأغرب كان رد فعل شو، الذي كان منذ لحظات ملكًا ظافرًا مدمرًا للأعداء: صعد إلى السماء لاحقًا بأبيه صعودًا لا رجعة فيه. لا ليشفى من جراحه ثم يعود لينتقم وينقذ زوجته، ولا ليستنجد بأبيه والآلهة ضد جب، بل ليعتزل العالم والحياة مثلما فعل رب الشمس سابقًا. تلمّح بعض السجلات فقط إلى أن أقسى رد فعل اتخذه ضد ابنه، كان أنه لعنه من قلبه، من دون توضيح كُنه هذا اللعن، سبَابًا مقذعًا أم لعنة ذات قوة إلهية سحرية (لعل تلك اللعنة هي ما ستؤدي إلى الشقاق العظيم بين ذرية جب في المستقبل). أما جب، فقد حبس أمه في القصر مانعًا إياها من اللحاق بزوجها.

ما تلا ذلك كان أن العالم ضربته عاصفة مطيرة لم يشهد مثلها الكون من قبل، خربت البلاد أيما تخريب. لا توضح السجلات مصدر العاصفة، لكن بحسب ما رأينا ضرب الأرض الهواء واغتصب الماء وحبسها، ثم هجر الهواء الأرض إلى السماء... هبوب عاصفة كارثية ليس نتيجة شديدة الغرابة لما حدث.

(٢٦) في حين كان زواج الأشقاء في الأساطير المصرية القديمة أمرًا مقبولًا، فضلًا عن كونه سنة بين الملوك، كان ارتكاب الفعل الجنسي بين الآباء والأبناء فعلًا مذمومًا ومرفوضًا تمامًا، مثلما هو عند كل الحضارات البشرية تقريبًا. ناهيك عن أن الاغتصاب عند المصريين القدامى كان جريمة يعاقب فاعلها بالقتل، مهما كانت علاقة المرتكب بالضحية.

لكن في النهاية، بعد أيام تسعة، سكنت العاصفة، مثلما تسكن كل العواصف. وخرج جب، واعتلى عرش الملك، ولم يواجه اعتراضاً أو تحدياً من أي كائن مهما كان، بل بحسب السجلات خضع له الجميع.

٣

التفت حاشية الملك السابق حول الملك الجديد، ومثلما مجدّوا القديم مجدّوا الجديد. لكنهم مع ذلك لم يتوقفوا عن ترديد مآثر الملك السابق، عن شقه المجيد للقنوات وإنشائه العظيم للمعابد وهزيمته الساحقة للأعداء باستخدام يوريا الملك المقدسة. لم يكن في الملك الجديد مزاج للحفر والإنشاء، وليس لديه أعداء بعد ليهزمهم (باستثناء هزيمته لأبيه وأمه، لكن هذا الانتصار لا يمنحه أي عظمة)، لكن موضوع اليوريا هذا يبدو مثيراً.

سأل جب الحاشية عن مكان اليوريا، فأخبروه أن شو تركها في قصره بيات-نيس بعد انتصاره الأخير هناك، تركها في صندوق مخصص لها (ربما لو كان احتفظ بها في طريق عودته، ما صار له ما صار). هكذا، بعد ٧٥ يومًا من بدء حكمه غير المجيد، انطلق جب مع حاشيته في رحلة جديدة إلى يات-نيس، لإتمام استيلائه على يوريا أبيه.

وحين فتح رب الأرض الصندوق، أطلت الكوبرا المقدسة برأسها. يا لها من بهية عظيمة تليق بملك العالم ومن عليه. مد يده كي يحملها ويضعها على رأسه، تأملها بافتتان، بينما هي... ماذا تفعل؟ تفتح فمها

وتنفث النيران! نيران جبارة عاتية خرجت من فم اليوريا واجتاحت جب وحاشيته. لم يبقَ من الحاشية بعد ثوانٍ إلا الرماد، أما جب، الإله الخالد الذي لا يموت، فقد أحرقته النار حرقاً جعله يتمنى لو كان قد مات بصحبة أتباعه.

أخذ جب يصرخ من الألم وطالبا المساعدة، وما من مجيب.

٤

بما يفيد الملك مُلكه والنار تعصف ببدنه؟

لا تمرض الآلهة أمراض البشر، ولا يصيبها من مخلوقات العالم الدنيا سوءاً. لكن نار اليوريا من أكثر الأشياء قداسة في العالم، إنها سلاح إلهي يستمد قوته من الشمس نفسها، ولم يبقَ جب حياً إلا لأنه الأرض ابن الهواء وحفيد صاحب الشمس، من أقدس الآلهة وأقدمهم رغم فداحة فعله، لا يموت من هو مثله إلا إن قتله إلهٌ لا يقل عنه قدماً وقداسة. لكن هذا لا يعني نجاته من العذاب الدائم والمقيم الذي لم يتركه لحظة.

هام جب على وجهه في العالم يبحث عما يطفيه من معاناته. جرب كل ما يمكن تجريبه، ولم يجد ما يخفف عذابه ولو لحظة، بل ما انفك الحريق يتعاضم في جسده بمرور الوقت، وكأن النار سكنت تحت جلده. حتى الماء لم يخفف عنه، وكيف يفعل والماء أمه، التي أصابها منه ما أصابها؟ في النهاية، قيل له إنه لن يُشفى من عذابه إلا بما على رأس رع.

ما على رأس رع؟ فكر جب طويلاً واهتدى في النهاية أن المقصود
حتمًا قرص الشمس ذاته، الذي يضعه أتوم-رع على رأسه حيناً وفي عينه
حيناً. لكن كيف له أن يحصل على قرص الشمس؟ إن رب الأرباب
يكنم بشمسه في مقصورته بمركبي الليل والنهار طوال الوقت. كيف
له أن يصل إليه؟ وخاصة أن السماء محرمة على جب أكثر مما هي محرمة
على عابب. ليته عابب فينعم بالقرب من نوت كل يوم ولو دقائق،
وليذبحوه عندها وليحرقوه كما يشاءون.

غير أنه وجد للسماء سبيلاً.

لم تكن رحلات الشمس آنئذٍ، كما أسلفنا، في ذروة نظامها. بل كانت
على الأرجح بحاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة، والانضمام إلى طاقم
معندجت ومسكت لم يكن أمراً صعباً ولا مكانة مرموقة مثلما سيصبح
لاحقاً، بل إن أي متطوع للانضمام ومقاتلة عابب سيلاقى بالترحاب،
بلا حاجة لسير ذاتية ولا خبرات مسبقة ولا خطابات ترشيح من كهنة.

هكذا تنكر جب في هيئة أحد الآلهة الثانوية، ووسط هرج الانتقال
من معندجت إلى مسكت ذات غروب، اندس في الزحام واعتلى
مسكت. وهناك، حول نفسه إلى خنزير واختبأ في أحد الأركان. ابتلعت
نوت مركب الليل وعلى متنها جب الخنزير. لا شك أن حروقه كانت
مضاعفة تلك الليلة، فبالإضافة إلى نار اليوريا التي ما انفكت تشوي
جسده، فهي هو يعود إلى جسد محبوبته القديمة، لكن وهو خنزير محروق
مختبئ في صحبة لفيف من أعظم آلهة الكون، يخوضون في جسد حبيبته
الزرقاء.

غير أنه غَالِبَ ناره الجسدية والعاطفية، ومنى نفسه بأن حصوله على الشمس سيسفيه منها كلها. تراث حتى خبت الشمس تمامًا ويات أتوم أقرب إلى جثة هامدة، وقبل إيقاد المشاعل مباشرة ركض الخنزير بسرعة، وقفز، والتقم الشمس من فوق رأس ملك الآلهة الميت، وابتلعها، وفر مسرعًا إلى ركنه وانزوى فيه، ناويًا انتظار الشروق/ الولادة ليقفز عندئذ هاربًا من المركب ومن عقاب الآلهة، الذين انتبهوا على صياح رب الأرباب الذي انتفض جثمانه وأخذ يهتف: «الشمس، الشمس، الخنزير سرق الشمس!».

عمّ الهرج والمرج سطح مسكتت. جثمان أتوم ظل يرتعد ويصيح رغم مواته، والآلهة تجري هنا وهناك بعد إيقاد المشاعل بحثًا عن الخنزير المزعوم. أما الخنزير، جب المحروق، الذي توقع شفاء لحظيًا وقوة كونية من التهام قرص الشمس، فلم يتحقق مراده، وأضاف على وجع أوجاع قلبه المكسور وجلده المحروق وروحه الآثمة وجعًا جديدًا؛ ذنب سرقة الشمس والخوف من الانكشاف.

وحدث بالفعل أن انكشف غيباءه، والذي وجده منكمشًا باكيًا غارقًا في أوجاعه لم يكن إلا دحوي الذي استغرق ثانية حتى يتعرف عليه، وأخرى مندهشًا، قبل أن يصيح: «وجدته، إنه جب».

لولا فداحة الموقف ومصير العالم الذي على المحك، لكان من الممكن وصف هيئة ملك الآلهة، الذي هو الآن خبري الصغير الجنين على وشك الولادة برأس جعران، بالمسخرة. لكن اقتراب موعد الشروق من دون أن يكشف جب عن الشمس التي سرقها جعل توتر الآلهة يغلب رغبتهم في الضحك على ملكهم وهو يصيح غضبًا بتلك الهيئة: «هذا ما ينقصني، أنا أقضي وقتي في قتال وحش الفوضى لحماية الكون، ويأتي حفيدي الساذج تاركًا مهمته العظيمة، ليلعب ويسرق مني الشمس. أين خبأتها يا ولد؟».

كان جب قد صرح بجرمه تجاه والديه، وقد حسب أنهم يعرفون بما حدث بالفعل من شو، فقط ليكتشف أن شو منذ صعد السماء ظل ساكنًا من دون أن ينطق حرفًا، ولم يعلم أهل السماء عن حال الأرض شيئًا. هرع دحوتي بعدها وفك سجن تفنوت وأتى بها إلى مسكنت. غير أن رب الأرباب لم يبد أدنى اهتمام بما جرى لشو وتفنوت، بل وأعلن بوضوح أنه لا يكثر من يفعل ماذا بمن على الأرض، ما دام هذا لم يؤثر فيما يحدث في السماء، فقط أراد استعادة قرصه الشمسي. وأمام هذا الغضب المنذر بأشد العقاب حافظ جب طوال الليل على إنكاره.

«مالي وما للشمس؟ ليس لي علاقة بها».

«لا تنكر، ما الذي جاء بك إلى السماء إذن؟».

حافظ على فمه مطبقًا، لكنه حينما لمح الشق العظيم المقدس الذي بدأ يلوح شرقًا، رد بعد تردد: «لأرى نوت».

عدا أن إنكار جب في تلك اللحظة لم يعد له معنى، إذ تألق جسده الخنزيري فجأة بلون ذهبي وهاج، وانتابته نوبة سعال عنيفة، ومع آخر سعلة بزغت من خطمه شمس الفجر الصغيرة. التقفها دحوتي وأخذ ينظفها مما علق بها. فكر للحظة كم سيكون من الرائع أن تكون له شمس، وتخيل قرصها المتوهج فوق رأسه، كم سيبدو رائعًا... لكن خبري حطم خيالاته عندما انتزع بكفه الجنيني الشمس من يد دحوتي. وكان ذلك لحظة أن بلغت مسكتت فُرج السماء، حيث يجب أن يستعد طاقمها للانتقال إلى مركب النهار. لكن تعطل الانتقال الذي جرت العادة أن يتم بسلاسة، لتحلق الآلهة حول جب المتكور حول نفسه ألماً وذعرًا وعارًا.

قال دحوتي: «إنك لمجرم يا جب، وقد أجمرت في حق ثلاثة، أهلك وأهلك وجدك، ولكل منهم الحق أن يعاقبك كما يترأى له». همهمت الآلهة الحاضرة بأصوات مؤيدة للبابون الحكيم، ثم نقلوا نظرهم إلى خبري، رب الأرباب الذي يتعجل ولادته، فأشار الجد إلى شو وتفنوت كي يتقدما ويفعلا بابنهما ما يشاءان، لكن بسرعة، فقد تأخرنا.

لم يبدُ على شو أنه سمع، لم يبدُ عليه حتى أنه أدرك ما يحدث، ظل في مكانه شاردًا محددًا في الفراغ. أما تفنوت التي بدت عليها آثار الاحتجاز الطويل والتأثر بمصاها، فكانت ترتجف وتبكي. ولما طلب منها دحوتي أن تفعل بابنهما ما تشاء، انقلبت فورًا إلى هيئة اللبوة، واندفعت إلى

جانب المركب حيث تحتفظ الآلهة بالأسلحة المستخدمة في قتال عابب،
والتقطت رمحاً. ذهبت تفنوت إلى الخنزير المحروق ورفعت رمحها عاليًا،
وصوبته إلى قلبه، نظر جب إليها، ورأت في عينه ابنها... وكان عندئذ أن
انقلبت اللبوة إلى هيئة البقرة في اللحظة الأخيرة، ورمته بالرمح بالفعل،
لكنها كانت رمية أصابت فخذه، اخترقها الرمح ونفذ.

أجهشت تفنوت بالبكاء وهرعت مبتعدة، وتابعها ابنها بنظرة
مفعمة بخليط الذنب والامتنان.

وحان دور خبري. مكتبة سُر من قرأ

انتزع رب الأرباب الحربة بقسوة من فخذ الخنزير، ورفعها يريد
قلبه، لقد ارتكب جب ألعن الجرائم قاطبة ويستحق الموت، لكن...
«عد إلى صورتك التي ولدت بها يا ولد».

عاد جب إلى هيئته العادية. هكذا رأى الجد حفيده: عاريًا مهائنًا،
غارقًا في دمائه النازفة من فخذه، وجسده مغطى بالحروق المستعرة وكأنها
وليدة اللحظة. «أهذه حروق يوريا؟»، أو ما جب من دون أن ينطق أو
يبادله النظر، «وقالوا لك علاجك فيما على رأس رع؟»، أو ما مجددًا،
فضحك خبري، «وحسبت يا أحق أن هذا يعني قرص الشمس؟»،
وصاحب قوله أنه رمى الحربة جانبًا، ثم تنهد، «ماذا ستفعل لو عدت
إلى الأرض؟»، «ما تأمرني به يا مولاي».

«أعرف جيدًا كيف تحرق اليوريات، فأنا خالقها»، ثم نظر رب
الأرباب إلى الآلهة المتشوقة، هتف عاليًا: «إن سرقة قرص الشمس لإثم

عظيم، لكن لا تزال الأرض بحاجة إلى إلهها، وبحاجة إلى ملك بدلاً من...»، ونظر إلى شو المحقق في الفراغ، «وعليه، فسيكون عقابك مخففاً، وستعود بعدها إلى العالم لتدير شؤونك، وإن صدر عنك ما يسيء بعد الآن، أيّا كان، فلن يهون من عقابك شيء».

«أوامرك يا مولاي».

تنفس خبري بعمق، ثم هدر بصوت رجّ السماء: «أحكم عليك بالشرب من بولك»^(٢٧).

ونفذ جب عقابه.

بعدما راقب المحتشدون المشهد -الذي نعفي أنفسنا من وصفه وإياكم من قراءته- بمزيج من المتعة والسخرية والاشمئزاز، أمر خبري الجميع باتخاذ مواقعهم على معندجت والتأهب للإسراع تعويضاً للوقت المهدور. انفضوا واحداً تلو الآخر، وتلكأ خبري عن اللحاق بهم، حتى لم يبقَ على مسكتك إلا هو، ودحوتي الذي ظل متخفياً ليتلصص، وجب الغارق في دموعه ودمائه وفضلاته وكرامته المسالة.

حينها، قال رب الأرباب وهو يتهادى متجهاً إلى مقصورته: «ما يشفي من نار اليوريا ليس قرص الشمس يا أحق يا ابن الأحق ابن ال...»، اشرأب بقامته القصيرة والتقط شيئاً من داخلها، لا تكاد يده الصغيرتان تكفيان لحمله، «بل هذا»، ورمى جب بما يحمله. التقطه

(٢٧) بقدر ما يبدو هذا الحكم غريباً، إلا أنه ليس دخليلاً على حكايات المصريين القدامى، فقد شاع الاعتقاد أن من أشكال عقوبة الموتى الأثمين أن يتغذوا على فضلاتهم في العالم الآخر، وامتلات النصوص الجنائزية بتعاويز وصلوات لوقاية الموتى من أكل وشرب فضلاتهم بعد الموت. المزيد عن هذا لاحقاً.

جب فوجده الشعر المستعار الذي يرتديه جده وهو أتوم ليداري صلعة المسنين. «عندما كنت أضع اليوريا فوق شعري المستعار، فكانت تحرقه. فجعلت خنوم يصنع لي واحدًا مضادًا لنيرانها، خذه، سيسفيك».

لم يصدق جب نفسه وهو يرتدي شعر جده المستعار، وما إن فعل حتى اختفت آثار الحرق من على جسده وذهب ألمه، وإن تبقت آلامه الأخرى المتعددة.

«عد إلى الأرض يا جب، وأحسن القيام بدورك، ولا تحاول الحصول على يوريا أبليك قبل أن تستحقها»، «كيف سأستحقها؟»، «ستعرف حينها، هيا، اذهب».

نهض جب، اتجه إلى حافة المركب يعرج من جرح فخذه عرجًا سيصاحبه إلى الأبد، وقبل أن يتسلق الحافة ليقفز إلى الأرض، ندت عنه التفاتة نحو شق السماء الواسع. لا بد أن خفقان قلبه كان عاليًا حد انتباه خبري له، فاختم الرب حديثه: «ولا أريد أن أسمع أنك اقتربت من هنا مجددًا، أبدًا».

ونزل جب من السماء.

٦

أعوام عديدة انقضت منذ ذلك اليوم، والعالم بلا ملك.

لم تعد أفعال جب خفية عن أحد، كل من في الكون، بشرًا وآلهة، عرفوا بما بدر منه، وبإذلاله أمام أعين الآلهة في السماء، ثم بالصفح

والهدية المقدسة في الخفاء، وقد عمل دحوتي الذي شهدهما خفية على إشاعة الجزء الأخير كي لا يُنبذ جب إلى الأبد.

لم يتوقف جب عن اعتمار شعر رع المستعار طوال الوقت، حتى وقد تم شفاؤه، لترد له الهيبة المفقودة ويذكر الجميع بأنه لا يزال مستحقًا للقداسة. بفضل باروكة رع صار شبه ملك، ملكًا إلا قطعة، قائمًا بأعمال الملك إلى حين تعيين ملك.

وكالعادة تكونت حوله حاشية جديدة، وكالعادة جعلوا يسامرونه بذكر أمجاد والده الملك السابق. ولما كان يتوق لتحقيق المكانة على نحو شرعي هذه المرة، ذهب إلى المعابد والمنشآت التي بناها شو من قبل وباتت أطلالًا مهجورة جراء هجوم أبناء عابب والعواصف والحرائق التي أصابت العالم بعد ذلك، فأصلحها وجددها، وأقام المعابد وشق القنوات. حقق ضلعين من مثلث العظمة الملكية الشهير... وتمنى أن تسنح له فرصة تحقيق الثالث.

وقد سنحت، بأغرب شكل ممكن.

من جديد خرج جب متوليًا شطريات-نبس، نفس الرحلة التي صنعت مصيره ومصير أبيه من قبل، كي يغسل شعر رع المستعار في البحيرة المقدسة التي حفرها شو هناك في زمنه، إذ يبدو أن قطعة ذات أصل إلهي مثل باروكة رع لا يمكن تنظيفها في أي بركة أو قناة عادية. تخبرنا السجلات أنه ما إن لمست الباروكة ماء البحيرة، حتى تحولت إلى تمساح، نسخة من التمساح سوبك الذي يشارك في قتال عابب في السماء. وأخبر هذا التمساح جب أن ثمة خطرًا قادمًا من أعماق البحيرة.

حدث كل شيء بسرعة، أسرع حتى مما حدث يوم هجوم أبناء عابب، وكأن مخرج الأحداث كان متعجلاً وضجراً هذه المرة. كالعادة لا شيء يُذكر عن طبيعة الخطر، كل ما هنالك أن زمرة من الأعداء انبثقوا من البحيرة فجأة على نحو ما. في المقابل، تحول جب إلى تمساح أيضاً، لكنه برأس صقر وقرني ثور^(٢٨).

لم تسنح حتى للأعداء المساكين فرصة للنهب والتدمير مثل أبناء عابب من قبل، بل انقض عليهم التمساحان؛ ذلك الذي برأس صقر والآخر الباروكي -إن جاز التعبير-، ولم يبد الأعداء أي شجاعة أمام هذين المقاتلين الجبارين، وانهزموا شر هزيمة، ليمنحوا رب الأرض الضلع الثالث في مثلث عظمة الملوك.

بعد تلك المعركة ال... الملحمية، اتجه جب إلى قصر شو في يات-نيس، وفتح الصندوق إياه، وعلى ذراعه الممتدة تسلقت جسده أفعى اليوريا، وأقعت فوق رأسه الملكية المقدسة.

وصار جب ملكاً شرعياً لأول مرة، بلا منازع على سيادة الأرض والنهر والبحار والجبال والمحيط والبشر والحيوانات والنباتات وكل ما ينخطر على بال... إلا السماء.

(٢٨) مكن قوة الصقر في جناحيه ومكن قوة التمساح في فكه، ما الذي يجعل إلهما يتحول إلى تمساح برأس صقر، ويخسر هذين السلاحين المهمين؟ لكن من أنا لأقول رأيي في الهينة التي اختارها رب الأرض ليخوض معركته؟

أبناء نوت

الجزء الأول





ثمرة لقاء السما والارض

١

مثلما حدث مع أبيه من قبل، لم تحتفظ السجلات بمدة حكم جب على الأرض، بل تذكر فقط باقتضاب أنه صار ملكًا عظيمًا مثل سلفيه. لم يعد هناك من يكثرث بأفعاله القديمة أو الحاضرة مثلما هي الحال مع الملوك دومًا. لكن حتى وقد حظيَ بالعالم بما فيه، يظل هناك ما يعتمل في نفس ملك العالم ورب الأرض، أمنية قديمة لم تتحقق.

لم يزل الأرض يعشق السماء، ولم يزل يرغبها.

لعل جب هو أول من سنَّ أكليشيهات الحب الحقيقي الذي لا تقف أمامه قوة، حتى لو كانت تلك القوة إرادة رب الأرباب ذاته. وقد نال مراده.

ذات ظهيرة، وبينما رع على مركبه في منتصف نهر السماء، أبعد ما يكون عن طرفيها في الشرق والغرب، رأى من مقصورته أن السماء والأرض قد التحما بغتة.

عدا أن الالتحام الجديد لم يكن انطباقًا تامًا مثل عناقهما القديم، بل عناقًا حميمًا طرفيًا، عند الأفق البعيد. أي بعدما كان النهر السماوي يجري أمام عين ملك الآلهة إلى النهاية البعيدة عن جبال الغرب، صار يختفي عند مبلغ أبصار كل من على معندجت في طيات التحام جسدي السماء والأرض. وكذا كان الأمر حولهما في كل الجهات.

كيف حدث ذلك؟ كيف تفتق ذهن جب عن تلك الفكرة العبقريّة، وكيف نسق لها مع نوت على الرغم من حظر الوصل بينهما؟ لا أحد يعلم، ربما كان صعود شو إلى السماء هو ما أرخى من إحكام منعه السماء عن الأرض، فتمكن جب من استغلال منصبه كملك أوحّد للعالم ووهن رب الهواء المنسحب لإيجاد وسيلة لتحقيق رغبته الأولى والوحيدة.

جن جنون رع، أمر طاقمه بالإسراع إلى نقاط تلاقيهما كي يفصلهما بنفسه من جديد. غير أنها أخذًا يفسحان عناقهما لمركبه النهاري أينما حل، ويعودان إلى اللقاء حيث لا يطولهما عند مبلغ البصر. ظل ملك الآلهة يطارد الأفق والعناق يفسح له من ناحية وينطبق في أخرى، حتى بلغ ثغر السماء غربًا ونهاية الرحلة، من دون أن يتمكن من ضبطهما متلبسين عن قرب قط. ولما كان الإنهاك قد بلغ منه مبلغه، خلد إلى مواته الليلي متوعدًا إياهما بفصلهما شر فصل في الغد.

وغني عن الذكر أنه لم يجد إلى ذلك سبيلاً، لا في الغد ولا بعد ألف غد.

بعد يوم أو بعض يوم من المطاردة العبثية، أدرك رع أن الفصل بينهما مجدداً مستحيل من دون هدم بنية السماء والأرض ذاتها، ومن ثم انهيار النظام الذي شاب وهرم حتى وصل إليه، أي تحقيق ما يسعى إليه عاب بنفسه. لعن رع اللحظة التي صفح فيها عن جب، ليته قتله، أو حتى نزع عنه ألوهية الأرض، فلا شيء يضاهي امتداد السماء إلا امتداد الأرض تحتها.

اضطر ملك الكون في النهاية إلى التسليم بالوضع الجديد، ونال العاشقان مرادهما.

وفي رحم نوت، بدأت بذرة اللقاء في التكون.

٢

في ليلة لاحقة، وفيما يعبر خبري رحم السماء تمهيداً لولادة يوم جديد، وجدهم هناك: أربع نطف في طور التحول إلى أجنة، ثمرة اللقاء المحرم، يتجهزون على ما يبدو للولادة عما قريب.

كان يعرف الإجابة، لكنه مع ذلك استدعى وزيره وسأله: «من هؤلاء يا دحوتي؟»، قال دحوتي: «أبناء جب ونوت يا سيدي».

لم تقب النطف الأربع في سكون كما يُتوقع من مثلها، بل كانت هناك ديناميكية معقدة وعلاقات متشابكة ومشاعر جياشة تلعب بين أربعتهم، لا يفهمها الجد القديم ولا حتى وزيره الداهية.

انقبض قلب ملك الآلهة لما سمع الإجابة، وصمت، ولم يغب هذا عن عين دحوتي، فتابع بحذر: «أعلم يا مولاي أنك كنت تأبى على الدوام لقاء جب ونوت. حسبنا أن هذا يرجع لكونهما ضعيفين غير قادرين على الاضطلاع بمسؤوليات العالم. لكنهما الآن السماء والأرض، وقد أثبتا أنهما يقومان بدوريهما تمام القيام. لم لا تغض البصر عن لقائهما يا مولاي ما دام لن يضر بسمائك وأرضك؟».

رغم هيئة الجعران الجنيني التي يتخذها خالق الكون الآن، حمل صوته كربًا وهُمًّا جعلًا دحوتي وكل من كان بقربه على مسكتت حينها يهلعون: «لا أخفيك سرًّا يا دحوتي، ليس لرفضى لاجتماع جب ونوت سبب بعينه، لكن لطلما ساورني النفور من اجتماعهما، والآن ثمة ما ينبئني أن هؤلاء الأربعة لو ولدوا سوف يجلبون على العالم شقاقًا وفرقة وفوضى وخرابًا لا طاقة لنا بهم، ونحن نعاني بالفعل كل العناء مع عابب كل يوم، ولا حاجة لنا بالمزيد».

أخذ الخالق الجنيني نفسًا عميقًا، وتابع: «هؤلاء ثمرة آئمة، لا يجب أن يولدوا». وكانت مسكتت قد بلغت شق السماء وأن مخاض رب الأرباب. قبل أن ينتقل بين السفيتين، وقف خبري متصبًا وهتف بصوت عظيم بلغ عنان السماء وقاع الأرض: «أنا، أتوم وخبري ورع، رب الأرباب خالق المكان والزمان، خالق الأعوام والشهور والأيام، أحرم على كل أيام السنة أن تستقبل أبناء الفوضى والإثم والفساد، أبناء جب ونوت. هذا قولي وتلك إرادتي، ولعنتي على من يتحداها».

أمنت الآلهة المرافقة على قول كبيرها. وتمخضت نوت عن جدّها
من أقصى الشرق، وفاضت دموعها من أقصى الغرب، حزناً على أبنائها
الذين لن يروا النور.

لكن كانت هناك خطة تعتمل في عقل بابون.

٣

كتب: «إنني أنا دحوتي، رب الكلمات المقدسة، الذي يضع الأمور
في نصابها، إنني أنا دحوتي، الذي يقدم الماعت للآلهة، وإنني أنا دحوتي،
الذي لا تستقيم السماء من دونه ولا تستقر الأرض بغيره، لأنني أعلم ما
يخفى في السماء وتحت الأرض...».

لم يكتب ذلك بجنون العظمة أو من كبرياء أو لإعلاء نفسه فوق
الآخرين، بل في الواقع كان شارد الذهن وهو ينقش حتى إنه أخطأ
أكثر من مرة وتدارك الأخطاء. لم تكن هذه إلا دياجاة افتتاحية ضرورية
للمراسيم الرسمية التي ينقشها على الألواح، تسجيلًا وتنفيذًا لأوامر
رب الأرباب.

«... وإنني أنا دحوتي، أنقل ما قاله رع العظيم في عليائه، رب
الأرباب المقدس، خالق الكون صاحب الشمس وملك الآلهة، الذي
يعلو فوق الجميع. لا كلمة إلا كلمته ولا رأي إلا رأيه...».

ولم يكن مقتنعًا بذلك أيضًا في سريره كل الاقتناع، فربما تكون
لا كلمة إلا كلمة رب الأرباب، لكن كلمة رب الأرباب لا تصدر في

الغالب إلا بعد استشارته هو، وبعد الأخذ في الاعتبار رأيه هو، ولن تتحقق ولا تصير ولا تصبح غير قابلة للكسر إلا لو كتبها هو، دحوتي. إنه حاجب ملك الآلهة ووزيره ونائبه ورسوله ومستشاره، إنه تجسيد قلبه ولسان حكمته، وكتبه. ودوره ككاتب لا يقل عن بقية أدواره، بل يفوقها. فالكتابة، رخ، اختراع دحوتي الخالص، لا يعرفها غيره، حتى بقية الآلهة لا يعرفون الكتابة ولا القراءة. لا تحسبن هذا يعدم من اختراعه الفائدة، فأهمية الكتابة بالحروف الهيروغليفية المقدسة ليست نقل المعرفة بين كاتبها وقارئها مثل باقي لغات البشر التي سوف تظهر في المستقبل، بل كتابتها في حد ذاتها هي الهدف. إن الكلمة الهيروغليفية تُكتب فتكون، في الحروف حياة وقوة وسحر. مضى زمن الخلق بناءً على قول أتوم-رع وإرادته فقط، صار هناك نظام بيروقراطي صارم جديد، لا يتحقق أمر ولا يسري قول إلا بعد أن يكتبه دحوتي. أي إنه باختصار محرر الجريدة الرسمية للآلهة.

ينوي دحوتي نقل المعرفة بالكتابة والقراءة لبعض الآلهة، يفكر مثلاً سشات، وهي ربة ليس لها دور مهم حتى الآن، لكنها تبدو فضولية ذكية، وتلك صفات قلما تظهر بين أولئك الحمقى، وهي على ذلك جميلة في عينه، لعله يتخذها رفيقة ومساعدة، ويعلمها الكتابة والعلوم وأشياء أخرى. وربما يعلم الكتابة لبعض البشر المختارين بعناية أيضاً، لكن هذا سيكون في المستقبل البعيد، أما الآن فإن جل تركيزه منصب على أمر واحد، أمر يدبره من قبل لقاء جب ونوت، لكن عليه أن يكون حذراً وإلا خسر حظوته عند رب الأرباب.

«... وقد حرم رب الأرباب ولادة أبناء الاتحاد المكروه لجب ونوت في أيام العام الثلاثمائة وستين كلها. ولا قول إلا قوله، ولا إرادة فوق إرادته».

وضحك متهكماً. إن رب الأرباب سعيد باختراع الأيام والسنين حد أنه يستخدمه في كل شيء حتى لو كانت هناك بدائل أفضل. كان بوسعه أن يجرم إنجاب نوت لأبنائها في المطلق، أو يأمر بالقضاء عليهم في الرحم، أو إجهاضهم، أو تحويلهم إلى هباء تذرّوه الرياح، لكنه اختار مع ذلك الحكم على الزمن بعدم استقبالهم. يحسب نفسه ذكياً بينما هو في الواقع طفل سعيد بلعبته الجديدة التي لن يلبث أن يزهد بها. عدا أن ملك الآلهة نسي أن الزمن - مثل العالم برمته حتى الآن - لا يزال غصّاً طريّاً لم يستقر بعد.

ذهب دحوتي، بعد انتهائه من تدوين - ومن ثم ترسيخ وتحقيق - أمر رب الأرباب، إلى خنسو، صديقه وموظفه. إن خنسو هو القمر في الليل، ويتولى دحوتي رسم مسار خنسو اليومي وجدوله الزمني وتسجيل حضوره وغيبابه، فهو إله القمر ومديره. غير أن بين خنسو ودحوتي سمة أخرى مشتركة، هي سر صداقتهما من قبل أن يتشاركا في تسيير القمر، ألا وهي الولوج بالقمار. لعلهما أول مدمني قمار في التاريخ. كانا يختلسان ما يستطيعان الوصول إليه من القرابين التي يقدمها البشر إلى الآلهة، ويتقامران على تقسيمها فيما بينهما. غير أن دحوتي داهية أكبر بكثير من خنسو، فكان هو الفائز في أغلب ألعابهما. مع ذلك لم تكن هناك حيلة لخنسو غير متابعة اللعب، ففي ذلك الوقت لم يتميز العالم بوفرة صالات

القمار التي يستطيع إله القمر الثانوي التنقل بينها. إن أراد اللعب فليس أمامه إلا دحوتي.

وها هو دحوتي يرفع الرهان في اللعب هذه المرة، ويطالب خنسو بالحصول على لحظات من أيام بزوغ القمر لو فاز عليه. «وأنا؟ على ماذا سأحصل لو كسبت؟»، «أي شيء تريده»، قالها بلا اكتراث، فهو يعلم أنه فائز لا محالة. إنه لقادر على أخذ ما يريد من خنسو مباشرة بلا قمار، لكنه لو فعل سيدخل فعله السجلات باسمه. أما إن فاز بها خلصة فهي له من دون قيل وقال، لم الجلبة إذن بلا داع؟ هكذا سنّ دحوتي سنن العمل في الإدارة المصرية من بعده وإلى الأبد.

أخذ دحوتي يفوز بكسور قليلة من أيام السنة القمرية في كل لعبة، ويضيفها خلصة في غفلة من الأرباب وربهم إلى أيام السنة الشمسية العادية. وتراكت الكسور بعد جلسات لعب دامت طويلاً حتى بلغت خمسة أيام كاملة، ستُعرف لاحقاً باسم هرو-رنبت، أو أيام النسيء.

تلك الأيام الجديدة ستكون خارج نطاق الزمن، خارج النظام، خارج الماعت، لا ينطبق عليها شيء من قوانين الكون ولا نظام الزمن، ولا سلطة فيها لأحد على أحد، أيام الفوضى. تلك الأيام سوف تشكل فرصة ممتازة لكل من يود ارتكاب فعل بمنأى عن أعين الآلهة، مثل اختلاس القرابين بكميات ضخمة والمقامرة بها. كان دحوتي يخطط لإضافة الهرو-رنبت له بعض الوقت، وجاء خوف رب الأرباب الغريب من ولادة أبناء نوت بمنزلة حافز إضافي لتسريع خطته. إن الشقاق والانقسام والفوضى التي يخشاها الملك القديم بالنسبة لدحوتي

فرصة لإشباع فضوله عما قد يكمن وراء النظام، لفهم طبيعة العالم الحقيقية التي يبدو أن ملك الآلهة نفسه غافل أو متغافل عنها. يعرف أنه سيتعلم من هذه التجربة الكثير، وستتاح له فرص لا حصر لها لبلوغ ما هو غير بالغه الآن. لا يرغب دحوتي في سلطة ولا قوة، أما توقيه لخوض المجهول واستكشافه فلا يفوقه شيء.

٤

غضبة رب الأرباب كانت عاتية حينما أشرق في يوم حسبه أول أيام العام، فوجد نفسه في يوم جديد غير مفهوم من العام المنصرم، وأبدى وزيره المخلص غضبًا لا يقل عن غضبة سيده، وشاركه في التساؤل عما حدث للزمن، وكيف أن زمن هذه الأيام ليس مثل زمن الماضي الجميل، «أراهن أن نون له يد في هذا العبث يا مولاي»، وجعل يضرب كفاً بكف، قبل أن يستغل أول لحظة غفلة من رب الأرباب كي يذهب ويهمس في أذن نوت: «هل ستضعينهم بنفسك أم نبحت لك عن قابلية؟ معك خمسة أيام».

مكتبة

t.me/soramnqraa



عالم جديد رائع

١

ليت كان بوسعنا استدعاء الفنان علي الحجار ليغني بصوته الملحمي افتتاحية مناسبة لأقدم دراما مصرية عن الصراع بين الأشقاء والأخذ بالتأر، «ويا مغنواي غني، حكايتنا العرابة»، فها قد حانت اللحظة التي يبدو أن كل ما قبلها لم يكن إلا تمهيداً لها، اللحظة المركزية في تاريخ الآلهة المصرية، لحظة إنجاب أبناء نوت.

وللدقة هي ليست لحظة بالضبط، وإنما أيام أربعة، فهؤلاء ليسوا أطفالاً عاديين يولدون متتالين، بل هم أبناء السماء والأرض، الذين سيقبلون حال السماء والأرض وساكنيهما رأساً على عقب، ويجب أن يولد كل من أربعتهم^(٢٩) في يوم مستقل.

(٢٩) في الواقع، الرواية التاريخية الأشهر تقترح أنهم خمسة، لكن اعتماد هذه الرواية يضرب في مقتل الخط الدرامي الزمني الذي كدت أفقد عقلي وأنا أرسمه. لذا، ستتغاضى معاً عن هذه التفصيلة المركبة، وسنذكرها لاحقاً في آخر الكتاب، حيث ذكر المصادر وغيرها من التفاصيل المهمة المملة.

وها هو كاهن من قرية صغيرة تدعى واسيت يركض من أقصى القرية إلى حيث يتجمع الناس في أول أيام النسيء صارخاً: «يا قوم، لقد وُلد ملك العالم وكل من عليه»، ذلك لأنه سمع نداءً مجهول المصدر يأمره بذلك. وقد كان لحسن حظه محققاً، فقد وُلد للتو الإله الشاب الجديد، وعلى سبيل المكافأة، سيتولى هذا الكاهن مهمة تربية وتعليم الملك الجديد.

وُلد أوزير^(٣٠) في أول الهرو-رنبت، وُلد مكتمل النمو، ببشرة نحاسية، وقامة ترتفع ثمانى أذرع وست كفوف وثلاث أصابع، أي ٧, ٤ متر بمعايير أيامنا الحالية. ربما كان طول قامة أوزير المقياس الوحيد المحفوظ بدقة لطول أحد الآلهة، ولا ذكر لتغير أبعاده أو أشكاله وتجلياته مثلما تفعل الآلهة طوال الوقت. احتفاظ أوزير بهيئة ثابتة سيكون سبب -أو أحد أسباب- حتفه، لكن لندع ذلك لأوانه. مُنح أوزير منذ كان في بطن أمه مُلك أرض كيميت والعالم بأسره خلفاً لأبيه جب.

وفي اليوم التالي، سئم ست^(٣١) انتظار مولده، أو ربما سخط من ولادة أوزير قبله، فشقَّ جسد أمه من الداخل وقفز منها إلى الأرض، تاركاً إياها تنزف، ومعرباً عن نهجه الذي سيتبعه في حل المشكلات إلى الأبد.

تقرر منذ كان جنيناً أن ست سيصبح رب الصحراء والعواصف والأراضي الأجنبية، أي مُنح السيادة على كل ما يبغضه ويخشاه

(٣٠) أوزير هو من أطلق عليه اليونانيون اسم أوزيريس، وحفظناه نحن عنهم.

(٣١) ويُدعى أيضاً ست.

الكيميائيون. كان أقصر قامة من أوزير، لكنه ذو بنية عضلية منتفخة مشدودة، يبدو كمن يبحث عن سبب للقتال في أي لحظة. غير أن قوته البدنية لم تكن أكثر سماته الجسدية بروزًا، بل شعره الأحمر ووجهه المنمش وبشرته الفاتحة المائلة إلى الأحمرار. هذا اللون الغريب في كيميت كان ليجلب عليه سخرية بقية الآلهة الذين يشتركون في لون البشرة البني النحاسي (عدا نوت الزرقاء)، لولا قوته المفرطة التي جعلت أي إله خطر له تعليق ساخر يفكر مرتين قبل التفوه به^(٣٢).

هذا الإله الجديد الفاض بالتستوستيرون، أول ما فعله كان العودة إلى السماء التي شقها للتو، لكن ليعتلي معندجت هذه المرة. عمّ الذعر بين الآلهة الذين كانوا منخرطين في قتال عابث حينها، هل سيكون عليهم مقاتلة وحش الفوضى الأزلي والأصهب الجديد المجنون هذا في نفس الوقت؟ صاح فيه رب الأرباب أن يترك سفينته الآن «يا ملعون يا ابن الملعونين»، لكن ست لم يأبه به والتقط إحدى الحراب من جانب السفينة وركض. أفسحت له الآلهة الطريق ذعرًا، وانقض ست على ثعبان الفوضى وأخذ يكيل له الضربات بخفة وقوة وتمكن أذهلت الثعبان القديم نفسه، وسقط أمامه في ثوانٍ، في معركة غير متكافئة وكأنها بين رجل وطفل.

(٣٢) لكن البشر من أهل مصر لم يتورعوا عن السخرية من الصُهب وذوي النمش لعصور طويلة، باعتبارهم يقربون للإله ست المغضوب عليه. لكن ست سيقفز إلى صدارة الآلهة العظام مع اعتلاء الأسرة التاسعة عشرة من ملوك المصريين العرش، وعلى رأسهم الملك سيتي الأول وابنه رمسيس الثاني. يقترح بعض علماء المصريات أن تلك الأسرة امتازت بالشعر الأحمر والبشرة الفاتحة، ما ربط بينهم وبين ست في المقام الأول (لاحظ اسم سيتي الأول)، لهذا رفعوا مكانة إله أسرتهم الحامي جنبًا إلى جنب مع البقية، ورفعوا سياط الألسنة عن ذوي الشعر الأحمر.

هزَّ بعدها رب الأرباب رأسه في تقبل المضطرين، وعرف الكل أن مكان ست في معندجت لن يكون محل شك.

وفي اليومين التاليين، وُلدت إيزة ثم حوت-نبت^(٣٣)، لكن من دون أحداث تُذكر في يومي ولادتيهما. هيئتهما كانتا شبه متماثلتين، تمازان بالجمال النحاسي المعتاد من الربات، غير أن التشابه في الهيئة هو أقصى تشابه بينهما، فلاحقًا سيتضح التمايز العميق بين الشخصيتين. أما الآن، فقد ذهبت كليهما إلى قصر زوجها، إذ حسمت المصائر المقدرة سلفًا أن إيزة زوجة أوزير وحوت-نبت زوجة ست.

أما عمن حدّد المصائر والأنصبة للأشقاء الأربعة (التي سيتضح أنها لم تكن على هوى الجميع، ولعلها لم تكن على هوى أحد غير أوزير الذي نال منها نصيب الأسد)، فلا ذكر له ولا تلميح، ولا حتى يتساءل رواة السجلات القدامى بشأنه، وكأنهم اتفقوا على عدم الإشارة إليه. لو كان لتلك الحكايات منطق، لكان رب الأرباب هو صاحب التقسيم، لكننا نعلم أن نية رب الأرباب كانت الحيلولة دون رؤية الأربعة للنور. هل كان جب؟ ربما، فهم أبناؤه، وقد كان ملك العالم بلا منازع قبل مولدهم. لكن ما الذي يمنع رواة السجلات من ذكر هذا بوضوح، خاصة وهم لا هم لهم غير تسجيل منجزات الملوك؟

لعل التقسيم يرجع إلى تلك الإرادة المبهمة التي تمسك بخيوط كل شيء في الخفاء، تلك التي تضع الأدوار وينفذها الجميع بإرادتهم

(٣٣) يعني اسم إيزة: «العرش»، وعرفها اليونانيون لاحقًا بالاسم الأشهر «إيزيس». ويعني اسم حوت-نبت: «سيدة القصر»، وأطلق اليونانيون عليها «نفتيس».

أو بدونها، وتثير في قلب أبي الآلهة الحقن والعجز وفي قلب دحوتي الفضول، ولا حيلة لبشر ولا إله أمامها.

لكن، مهما كان واضح القسمة والمصير، متى كان الرضا بالمكتوب سمة الخلق؟

٢

ها هو أوزير ملكًا متوجًا للعالم، بلا منازع، حتى الآن.

مذهلة هي السرعة الشديدة التي يختفي بها ذكر جب من السجلات، ويتراجع للخلفية مثل أغلب جيله من الآلهة، ويكتفي بأدوار كومبارسية من الآن فصاعدًا، بعدما كانت سيرته قبل قليل ملء السمع والأبصار.

الضوء كله أصبح مسلطًا على الملك الجديد، السوبرستار القادم من رحم السماء، أوزير. فترة حكم أوزير كانت مليئة بالمنجزات. إنه من جلب الحضارة للبشر؛ علمهم كيف يعبدون الآلهة خير عبادة، وكيف يعيشون على الأرض خير حياة، وحول قرية واسيت^(٣٤) سابقة الذكر إلى مدينة كبرى، اتخذها عاصمة وأقام فيها المعابد. وهو أول من عرف الزراعة، ولم يحتفظ ببراءة الاختراع لنفسه، وإنما علم البشر فنونها وشقَّ لهم القنوات. واكتشفت إيزة، أخته وزوجته ومليكته، نباتي القمح والشعير، فنشر أوزير زراعة هذين النباتين فائقي الأهمية بين الناس. ثم بضربة حظ اكتشف العنب، وعرف كيف يصنع منه النبيذ، ولم ينتشر

(٣٤) تلك التي عرفها العرب باسم طيبة، والآن هي مدينة الأقصر فائقة الشهرة في مصر والعالم.

هذا الاختراع بين البشر فقط، بل وبين الآلهة أنفسهم، وتلقوه جميعًا بكل سرور. أوزير أيضًا هو من علم الناس تعدين النحاس واستخدامه لصنع الأدوات. وفوق كل ذلك، كان الملك والملكة رعاة للفنون بشتى أنواعها، ويا سعدة ويا هناء الفنان الذي صادف حظه زمن أوزير.

ثم، بعد سنوات طويلة من الاستقرار، وقد أحسَّ أوزير أن الناس في كيميت صاروا أفضل حالًا؛ نبذوا الهمجية وأتقنوا الزراعة والبناء والاستقرار، ووضعوا أقدامهم على أول درجات سلم الحضارة، ترك الحكم مؤقتًا في يد زوجته الحكيمة إيزة، يعينها عليه دحوتي وزيرًا - ومن يتقن الوزارة أكثر من أبي منجل الحكيم؟ - وخرج من كيميت إلى العالم لينشر الحضارة بين باقي الناس.

نلاحظ أن هذه أول مرة منذ خلق الكون لا تعدُّ السجلات كيميت والعالم كلمتين مترادفتين. قبل أوزير كان كل ما يقع خارج وادي حابي والواحات القريبة ليس إلا أراضي هامشية لا يصلها نوررع ولا يسكنها غير الخراب والفوضى، وأهلها همج أتباع لعابب. لكن أوزير جاء ليغير المعادلة ويدخل البشر والعالم كله تحت مظلة الحضارة. وإن كان هذا بالطبع لا يعني أن الكل سواسية، تظل كيميت الأرض المقدسة ومركز الحضارة والكون، وأهلها فوق الجميع.

خرج أوزير طبقًا لبعض الروايات وحده، وأنصت له الناس لكاريزمته وسعة علمه وتقديره للفن والموسيقى والنبذ، وطبقًا لروايات أخرى بصحبة جيش عارم وانصاع له الناس كما ينصاعون للجيش. في كلتا الحالتين بلغ أوزير بلاد بنط ثم الجزيرة العربية ومنها

إلى آسيا حتى الهند، ثم دار على عقبه واتجه إلى أوروبا. ونشر فنون الحضارة في كل مكان وطئه، حتى إن العديد من الشعوب الهمجية التي كانت تلجأ لأكل لحوم البشر تخلت عن تلك العادة المقيتة بعد وفرة الغذاء التي تسبب بها الملك الإله الشاب. في كل مكان زاره بنى المدن -وأقام المعابد وشق القنوات- وترك خلفه آثارًا لن تُمحى على مروره من هنا. وبحسب سرديّة خروجه مع جيش فهو قد قتل ملوكًا ظالمين وترك خلفه ممثلين عادلين له في البلاد، يجمعون الهدايا والضرائب باسمه ويرسلونها إلى كيميت.

أما حكم إيزة لكيميت في غيابه فكان حاسمًا حازمًا عادلاً. قبضتها محكمة بلا قسوة، وعطاؤها جزيل بلا إسراف، وأشار عليها دحوتي فأتقن المشورة، لكنها مع ذلك لم تغض البصر عنه ولم تنصت له بلا تدبير. سرعان ما أدرك دحوتي أن تلك المرأة هي الشخص الوحيد من بين كل الآلهة والبشر الذي يوازيه في الدهاء. انزعج من هذا في البداية وتوقع منافسة مؤلمة، لكنه فطن بسرعة إلى أنها لا تطمح لمكانة ولا تسعى لإثبات شيء، وفهم -مثلما فهمت من ناحيتها- أن لا مصلحة لأحدهما ولا رغبة في التعدي على نطاق الآخر، وأن في التحالف الحذر منفعة أكبر لكليهما.

وإلى جوار شؤون الحكم، اهتمت إيزة أكثر ما اهتمت بشيئين، النساء والسحر.

أدركت بسرعة الذكورية السائدة في هذا العالم، وأنها لو تساهلت لن تزيد على أن تكون ربة عاجزة تحت إمرة الذكور يفعلون بها ما يترأى

لهم، ولها في أمها أسوأ مثال، فقررت أن تكون قوتها نابعة من ذاتها، وأن تكون نصيرة نساء البشر، وشمل نطاق تخصصها الإلهي الأمومة والخصوبة وكل شؤون النساء الخاصة. وصارت النساء يلجأن إليها طوال الوقت بالعبادة والدعاء.

أما السحر فقد خلب لبها، وتعلمته حتى بلغت في العلم به مبلغاً لم يسبق لغيرها، حتى إنها صادقت حكا رب السحر، وتعلمت منه أكثر ما لديه حتى كاد علمها بالسحر يفوقه. غير أن قدرتها على ممارسة السحر لم تكن متوسطة مثل أكثر الآلهة، فالقدرة السحرية لا تُكتسب مثل العلم، وإنما يولد المرء بها.

«أو يأخذها من غيره»، قالها دحوتي بلا مبالاة مفتعلة، فرد حكا: «حذارِ يا دحوتي». قالت إيزة معقودة الحاجبين: «ماذا تعني؟»، «بمعرفة اسم أي شخص، تستطيعين الحصول على قوته السحرية»، «أنا أعرف اسمك يا دحوتي العزيز، فلماذا لا آخذ قوتك به؟»، قال حكا: «هذه أسرار يا دحوتي، يكفيك ما قلت»، لم يعر البابون الإلهي حكا انتباهاً، وأجاب:

«إن دحوتي وإيزة وحكا أسماء شهرة نعرف بها بعضنا، لكنها ليست أسماءنا الحقيقية، فتلك نولد بها ويحتفظ بها كل منا في نفسه سرّاً ولا يفصح عنها أبداً، وإلا صارت قوته تحت رحمة من يعرفها».

«لم أعرف أن لي اسماً سرياً من قبل»، قال حكا وقد وجد أن لا مجال لإخفاء آخر أسرار مهنته أكثر من ذلك، ومن الأفضل له أن يشارك: «لو أنك تأملت قليلاً بداخلك ستجدين في نفسك اسمك السري، لكن لا

تخبري به أحدًا، خاصة هذا البابون الذي لا يُخفي سرًّا ولا يخفى عليه سرٌّ».

ضحكت الملكة ضحكة فيها من الجمال قدر ما فيها من النوايا المضمرة. «لا تقلق يا حكا، لن أفشي اسمي، ولا حاجة لي بمعرفة اسم أحد. لم قد أرغب في قوى الآخرين وأنا وزوجي أقوى من في هذا العالم بالفعل؟».

٣

أنباء إنجازات أوزير كانت تبلغ أسماع شقيقه باستمرار.

فبينما رب الرياح وملك الصحراء يقاتل ثعبان الفوضى في السماء ببطولة وقوة ليس لهما نظير، تترامى إلى مسامعه ثروة رفاق معندجت عن آخر فتوحات أوزير واكتشافاته، ويتبادلون أقذاح النبيذ ويشربون في صحة مخترعه. وفي المقابل لا يكاد أحد يذكر ست المقاتل الجبار محتفياً ببطولته اليومية في إنقاذ العالم، بل يكاد ست يرى في عيونهم السخرية المضمرة من هيئته المنمشة الشاذة بالنسبة لهم، من دون إعلانها طبعًا خوفًا من انتقامه.

على مدار قرابة العقود الثلاثة المنقضية، حاول ست أكثر من مرة أن يستغل الخطوة التي نالها عند رب الأرباب لبراعته الفائقة في قتال عابب، والمسح إليه أنه أحق بالملك من أخيه المغرور، حتى إنه اعترف ذات مرة بلا قصد بأحد أعمق مكنوناته التي يحاول عبثًا كبتها طوال الوقت، أنه

الأحق بالزواج من الجميلة الحكيمة إيزة بدلاً من أوزير. لكن رع أوضح حاسماً أنه لا يهتم البتة بما يجري في العالم تحته، «لا شأن لي بمشاكلكم يا أبناء نوت، ليحكم من يحكم وليتزوج من يتزوج أو ليحترق حتى العالم كله، لا تزعجوني».

ربما لو كان هذا الرد من شخص غير ملك الآلهة، لحوله ست إلى كومة من اللحم المفروم في ثوانٍ، غير أن هيبة الجد العجوز أرغمته على الاكتفاء بالانسحاب الغاضب، والإعلان بأنه لن يشارك في قتال عابث مرة أخرى. لكن لم تمضِ عدة أيام إلا وقد عاد لت هشيم رأس الثعبان وكأن شيئاً ما كان، فقد أدرك أنه لن يطيب له العيش من غير تلك المذبحة اليومية التي تروح عن نفسه.

وعندما يعود إلى قصره في أطراف الصحراء ليلاً، تستقبله زوجته حوت-نبت -التي كانت مثل أمها وجدتها، هادئة وبسيطة ومطبعة- بكل شوق، وتثرثر بلا انقطاع. موضوع ثرثرتها المفضل هو الموضوع السائد نفسه بين الآلهة، أخبار أوزير وإنجازاته. لكن حوت-نبت بدأت مع الوقت تبحث عن موضوعات جديدة للكلام، فمع أنها كانت تستمتع بالحديث عن شقيقها المفضل، إلا أن لا شيء يستحق تحمل صفعات رب الأعاصير القاسية لأجله. لكنها مع ذلك لم تستطع منع نفسها من الإلحاح عليه كي يزورا شقيقيهما في واسيت، احتفالاً بعودة الملك أخيراً من رحلته العالمية. وست، على عكس المتوقع، استجاب لها، فعلى الرغم من نفوره من الملك له في بيته مآرب أخرى (يعلم يقيناً أنه لن ينالها).

قضى ست وحوت-نبت عدة ليالٍ في قصر أوزير وإيزة في واسيت، يستمعان ليلاً ونهاراً إلى حكايات أوزير المطولة المتبجحة عن فتوحاته، لم يصبر ست عليها إلا نظراته المختلسة إلى إيزة، ونظراتها التي لا يستطيع سبر أغوارها إليه. لكن مع عجزه عن فك شفرة نظرات إيزة، لديه يقين بشيء واحد: ما في عينيها ليس رفضاً ولا كراهية، وهذا يكفيه. فهو وإن كان ذا شجاعة تكفي لمواجهة العالم كله، لا يملك منها ما يكفيه لمواجهة إيزة، ولو لطلب شربة ماء.

وعندما عاد ست وحوت-نبت إلى قصرهما بعد أيام، وجدا في انتظارهما ضيوفاً غير متوقعين.

٤

مع أن الضيفة كانت من النوع الذي لا يتلع الإهانة من دون أن يبقر معدة صاحبها، إلا أنها تجاوزت نظرات حوت-نبت المشمزة المتعالية لها، وحاولت أن تثني عليها، أملاً في كسر جليد البدايات معها ومع زوجها، فقالت وهي تشير إلى بطن حوت-نبت: «مبارك عليك الحمل، عسى أن تكون ذريتكما قوية ومقدسة وعظيمة مثلكما».

اندهش ست، لم يلاحظ بروز بطن زوجته إلا الآن، منذ متى وهي بهذه الهيئة؟ أما حوت-نبت فقد تأجج سخطها وصاحت: «ما هذا الذي تقولينه أيتها البشرية السوداء الحقيرة؟ سيقهلك زوجي عقاباً لك على تجاوزك حدودك مع الآلهة».

عدا أن ست لم تحرك ساكنًا. صحيح أنه في العادة لا يتوانى عن قتل أي شخص لأي سبب، إلا أنه لم يعرف بعد سر زيارة هذه البشرية الغريبة إلى قصره، إن مجرد تجرؤها على الزيارة يثير فضوله، وإعجابه. بالإضافة إلى أن احتقار حوت-نبت لبشرة المرأة السوداء بدلًا من أن يحفره ضدها أثار في الواقع تعاطفه معها، فمن يتعاطف مع ذوي المظهر المختلف أكثر من ذوي المظهر المختلف؟ و... هل حوت-نبت حبلى فعلاً؟

«هل أنت حبلى فعلاً؟».

«اقتلها يا ست، إنها ساحرة، إنها لعينة، لقد جاءت لتوقع بيننا».

تراجعت الضيفة، «المعذرة يا إله الصحراء، لم أقصد التطفل على خصوصيات بيتك». التفت ست إليها حائرًا، حسن التصرف وسرعة البديهة ليسا من أقوى صفات ست. لما نظر إلى الضيفة مجددًا وجد عينيها مصوبتين إلى جيد حوت-نبت، بالتحديد إلى القلادة حول رقبتها. إنه ليس من النوع الذي يلاحظ تفاصيل زينة النساء، لكن تلك القلادة غريبة فعلاً، لا تشبه زينة نساء آلهة وبشر هذا العالم، بل تشبه... تشبه بشكل ما زينة الضيفة الغريبة. ثمة شيء ما خاطئ.

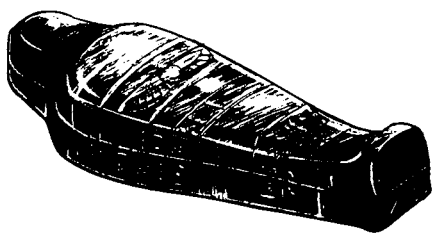
قال ست: «حوت-نبت، اذهبي إلى مخدعك الآن». امتقع وجه حوت-نبت بمزيج من الغضب والهلع، ثم مرقت مغادرة المكان، ونظراتها تقتل الضيفة ألف مرة.

قال ست: «من أنت؟».

«اسمي آسو، وأنا ملكة بلد يقع جنوب بلدكم، ملكة بنط^(٣٥)، أو كنت الملكة حتى وقت قريب. كنا نعيش حياة هادئة راثقة، قبل أن يأتي شقيقك ليهبنا ما يطلق عليه «الحضارة» رغمًا عنا...»، لم يفت عين المرأة الحصيفة ملاحظة اختلاج قسبات ست عند ذكر شقيقه، عرفت أنها أجادت اختيار هدفها، تابعت: «... بنى المدن حيث كنا ننعم بالعيش في الطبيعة، وأقام المعابد لآلهة غير آلهتنا، ووصفنا بالهمج المتوحشين، ونهب ثرواتنا قائلًا إن هذا ثمن الحضارة، ومضى بجيشه تاركًا شعبنا خلفه في أسوأ حال»، وسكتت لوهلة، بدا عليها التردد في قول شيء ما، ثم قالت بحذر شديد وهي تحترق أعماق ست بنظرها الحادة، «بل إن القلادة التي تزين جيد زوجتك البديع... كانت قلادتي».

ظل ست صامتًا لوقت طويل، حتى إن ملكة بنط كادت أن تعيد عليه ما قالت، لكن امتنعت خشية من أن يحسبها تتهمه ببطء الفهم، مع أنه بطيء الفهم فعلاً. ثم في النهاية فهم. عرفت ذلك من اشتعال عينيه بالنار، اشتعالها حقًا لا مجازًا.

(٣٥) الآن إثيوبيا.



قفلوا عليك يا طلو تابوت

١

«قلبي ليس مطمئنًا لهذه الحفلة، أرجوك لا تذهب».

«ما بك يا إيزة؟ لقد جبت العالم وواجهت الأهوال من قبل، ماذا يقلقك في حفل يحتفي فيه الشقيق بشقيقه؟».

لا يوجد شيء بعينه يقلقها، لكنها تشعر بنذير شؤم حيال هذا الحفل برمته.

«ألم تفكر أن ليس من طبع ست إقامة الحفلات؟»، «ربما، لكن هذا الحفل على شرفي أنا، احتفالًا بإنجازاتي وفتوحاتي، أنا الذي يحتفي به حتى من ليس بطبعه الاحتفال»، «لكنك تعلم أن في قلب ست تجاهك بعض غيرة»، «نعم، غيرة وحقد وحسد، وهذا طبيعي، الكل يحسدي على عظمتي غير المسبوقة، لكن الكل يعرف أيضًا أن هذا هو قدري ولا حيلة لي ولا لهم في ذلك. لعل ست أدرك هذا أخيرًا وعرف أن من مصلحته الاصطفاف بجاني».

راودتها رغبة هائلة في صفعه. يا لك من متعجرف سمج بحق
قرص الشمس العظيم. حتى ولو كان هذا هو القدر المحتوم، قدر
من مصدر غير معلوم، لا يعني أن تكون بهذا الغرور والاستخفاف
بالآخرين. تكاد إيزة تتفهم شعور ست، لقد رأت الامتعاض على
قسامته حينما ظل أوزير يعيد بلا توقف ذكر مغامراته، بينما حوت-نبت
في المقابل تتأمل أوزير بوله وفخر. حاولت أن تنقل شعورها بالتعاطف
إلى ست من خلال نظراتها، فهو شقيقها على الرغم من كل شيء
ويؤسفها أن تراه محبطاً. ويبدو أنه تفهم تعاطفها ورد نظراتها بأخرى
ممتنة (كان هذا امتناناً، صح؟ أم كان أكثر؟). لو كانت مقاليد الأمور
بيدها، لساوت بين الشقيقين، وجعلت الحكم بينهما شركة، وجعلتهما
يحبان زوجتيهما ويرضيان بنصيبهما (كادت تجنح بخيالها نحو المساواة
بين الأربعة كلهم، رجالاً ونساءً، لكنها تراجعت، فلا مكان لهذا في عالم
كعالمهم حتى في الخيال). ربما لو كانوا جميعاً أبناء لوالدين بشريين كانا
سيعلمانهم مثل تلك الأشياء، لكن قُدر لهم أن يكونوا أبناء أعظم الآلهة،
وأن يكون لهم الحكم والملك والقداسة... ومستقبل مفعم بالشقاق
والتناحر لو صحت نبوءة الجدد. لكن لا، عليها أن تنفض من عقلها
الأحلام، وتتصرف طبقاً للواقع.

«خذني معك»، «لا، هذا حفل رجال، لا مكان فيه لامرأة»، «على
الأقل خذ معك الحجاب الواقى الذي صنعته لك»، «إيزة! أتحسين أن
ألعابك السحرية ستفرك مع أوزير العظيم؟»، «صحيح، أنت محق،
أذهب إذن وأطل الإقامة وأرحني من ثقل عظمتك بضعة أيام».

ضحك الإله مستمتعًا بانقلاب مزاج زوجته. «كيف أطيل الإقامة وكيف يغمض لي جفن وأنا بعيد عن جميلتي؟»، وطبع على وجهها قبلة. وكأنه لم يغب عنها من قبل ويجوب العالم لأعوام فقط من أجل تحقيق مجده الشخصي. لكن أساريها انبسطت مع ذلك، وارتسمت نصف ابتسامة على ثغرها النحاسي الممتلئ. إنها تحبه رغم كل شيء.

«أوزير»، أجاب في طريقه إلى الباب دون أن يلتفت: «ماذا؟».

«اعتنِ بنفسك».

٢

«أوزير... أخي الحبيب، كم أفقدك».

واندفع ست معانقًا أخاه في حميمة أدهشت أوزير.

«آه... وأنا أيضًا أفقدك جدًّا يا أخي، على ما أظن».

أطال ست الاحتضان فيما يسرع خادم خفيف الحركة ويفرد حبلاً يقيس به طول أوزير خلسة من وراء ظهره، «أنت لا تتخيل كم أنا سعيد بزيارتك... ما كل هذا الطول يا رجل؟ ها ها ها، إنك أطول مني بكثير»، «ها ها، نعم أنا طويل»، احتضنه ست أكثر، وأوماً للخادم في إشارة إلى كتفي أوزير «والعرض أيضًا، أقصد كم أنت عريض يا أخي».

التقط الخادم إشارة سيده وبدأ يقيس عرض أوزير من الكتف إلى الكتف أيضًا. «حسنًا حسنًا، كفاك عناقًا»، «اعذرنى فقد اشتقت إليك». وظل ست متشبثًا بأخيه حتى تأكد من إتمام خادمه القياس، وابتعاده، ثم

فك العناق -العناق الوحيد في حياة ست على الأرجح- وقال: «تفضل يا أخي، تفضل».

مضى أوزير مع ست، مستغربًا -ومستمتعًا- حفاوة وبشاشة استقبال ست له رغم ما يُعرف عنه من الغيرة وسوء الطبع، لكنه قرر أن تبدل شخصية أخيه، تأكيد لنظريته أنه حتى ست لن يستطيع مقاومة عظمة إنجازاته ومقاومة شخصيته المبهرة، وها هو يحاول التكفير عن فظاظته معه منذ... منذ كانا نطفًا في رحم السماء.

قاده ست إلى قاعة مزدحمة تعجُّ بالآلهة الثانويين -من النوع الذي لا يُذكر اسمه في الحكايات ويُنسى بعد اكتمال دوره- والبشر من ذوي البشرة الداكنة، مثل من قابلهم في فتوحاته جنوبًا. «من هؤلاء؟»، «هؤلاء من جاءوا ليحتفوا بعظمتك يا أخي»، «أين أبونا وجدنا؟ أين بقية الآلهة؟ ألم تقل إن الكل قادمون؟»، «لا بد أنهم في الطريق، لا أعلم سر تأخرهم، دعك منهم»، ثم صفق بيديه، «أين الطعام؟».

امتلاً المكان بالخدم الذين يحملون صحافًا مترعة بكل أصناف الطعام والفاكهة، وقناني لا حصر لها من النبيذ. لفت انتباه أوزير ستار قماش يغطي ركنًا قريبًا في القاعة. «ما الذي خلف هذا الستار يا أخي؟»، «لا تشغل بالك، بالمناسبة، اسمح لي يا أوزير أن أشكرك على اختراع النبيذ أكثر من أي شيء»، وفي قوله هذا كان ست مخلصًا كل الإخلاص، فقد كان أكثر الآلهة عشقًا لذلك المشروب الجديد رغم ضغيبته نحو مخترعه، بل كان النبيذ سلوانه الوحيد على همه الذي يؤرقه.

لفت انتباه أوزير أصوات دق ونشر وحفر قادمة من قاعة مجاورة، «ما هذه الضجة؟»، «دعك منها وكل واشرب واستمتع، إن كل هذا لأجلك وعلى شرفك»، تردد أوزير، فتابع ست: «يا لك من ملك عظيم وإله مقدس»، فابتسم أوزير وهز رأسه بحبور، وبدأ يأكل ويشرب. ولم يمض وقت قبل أن ينخرط في الأكل بكل جوارحه^(٣٦)، أما ست فاكتفى بقليل من النبيذ وبعض ثمرات الخس، الذي كان يحبه حبًّا جمًّا، حتى إنه يزرعه في حديقة قصره. ولم تنقطع خلال ذلك أصوات الدق والنشر في الخلفية.

بعد الأكل، حمل الخدم الأواني الخاوية إلى خارج القاعة، وجلس أوزير مسترخيًا على وسادة، ببطن منتفخ بالطعام وعقل منتشٍ بالنبيذ. سأل: «أين بقية الآلهة؟»، أجاب ست: «في الطريق»، ثم توجه إلى بقية الحاضرين: «من منكم يود أن يعدد محاسن أوزير؟». تزاхت أصواتهم: «أنا»، «أنا»، «أنا»، «لا تقلقوا، الكل ستتاح له الفرصة، ابدأ أنت».

نهض أحد الآلهة الثانويين، وبدأ يعدد إنجازات أوزير ويمدحه، وأوزير يهز رأسه الشمل مستمتعًا. ولما انتهى المتحدث تبعه آخر، وكرر كلام الأول حرفًا حرفًا، وكذا فعل البقية واحدًا تلو الآخر. لم يلاحظ أوزير التكرار قط في غمرة سيل المديح.

أما ست، فقد انسحب إلى قاعة جانبية يعمل فيها الخدم على صنع صندوق عريض مزخرف من الأبنوس. صرخ هامسًا: «أسرعوا قبل أن

(٣٦) لا تحتاج الآلهة إلا إلى الماعت كي تعيش، لكنها تستمتع بتناول أصناف طعام وشراب البشر، لذا يقدمها البشر لهم قرايين.

يفيق»، غير أن قوله لم يحثهم على الإسراع، إذ كانوا يعملون بأسرع ما في وسعهم بالفعل.

لكنه اطمأن لما عاد ورأى أوزير غارقاً في ثمالة الإطراء الذي يكرره الحاضرون بلا تغيير.

أخيراً، وبعد أن كرر الحاضرون كلهم -وعدددهم اثنان وسبعون- نفس الديباجة، وبدأ أوزير ينظر حوله، كان العمل في القاعة الأخرى قد تم. جاءت عصبة من الخدم يحملون على أكتافهم الصندوق الأسود المزخرف البديع، وبيطاء أنيق متعمد وضعوه في منتصف القاعة بالضبط.

عندئذ نهض ست وهتف: «والآن أعيروني انتباهكم». ولى الكل أنظارهم صوبه، بمن فيهم ملك العالم الإله الشاب، «اسمحو لي بأن أعرض عليكم هذه التحفة البديعة». وتلك كانت تحفة بديعة بلا جدال، فوادي حابي فقير في الأشجار، ولا يتوفر لسكان كيميت من بشر وآلهة ما يكفي من الخشب لصنع ما يريدون، فكان أكثر البنيان هنا إما من الحجارة أو من الطين اللبني، لذا كان الصندوق الأبنوسي تحفة ثمينة يتمناها أي شخص لنفسه، إنساناً كان أو إلهاً، هكذا تركزت عينا أوزير على الصندوق.

قال أحد الحاضرين: «ما هذا الصندوق؟»، قال ست: «اسمه تابوت»، قال آخر: «وما معنى التابوت؟»، «إنه صندوق شخصي، يمكنك فيه أن تنام أو تستريح أو تخبئ أشياءك أو تضع من تكره و... تباً، المهم أن هذا التابوت سيكون هدية لأحد الحاضرين، بشرط واحد»، «ما هو هذا الشرط؟». لو كان بين الحاضرين إيزة أو دحوتي أو أي شخص

قادر على التفكير فيما يكمن وراء المظاهر، كان ليدرك من تبادل الحديث أنه حوار غير عفوي تدرب عليه المتحدثون من قبل، وكان سينتبه إلى ذلك الأنين المكتوم القادم من وراء الستار، الذي يحمل نبرة تحذيرية لا مرأى فيها. لكن تركيز عقل أوزير الثمل كان منصباً بالكامل على التابوت بنقوشه وزخارفه، ولم ينتبه إلا إلى شرط ست للحصول على التابوت.

«أن يلائم جسدك فتحة التابوت بالضبط». قال أحد الحاضرين: «أتمنى أن يناسب جسدي هذا التابوت الثمين»، وردد الآخرون: «وأنا أيضاً»، «وأنا أيضاً».

«ليجرب كل منكم الصندوق، ومن ناسبه أخذه».

تعاون الخدم على رفع غطاء التابوت الثقيل. ثم بدأ الحضور واحداً تلو الآخر يتوالون عليه ويتمددون فيه، ثم ينهضون آسفين لأنه أطول أو أقصر أو أعرض أو أضيق من أجسادهم، كل ذلك وأوزير يشاهد، يرغب أن ينهض ويجرب لكن كبريائه تمنعه من النهوض بغير دعوة. إلى أن جرب الاثنان وسبعون جميعاً التابوت وفشلوا، فأشار ست إلى أوزير: «مولاي، هلاً شرفتنا بالتجربة؟».

نهض أوزير متثاقلاً من الشُّكر الذي لم يغادر جسده بالكامل بعد، اقترب من التابوت، وخطا فيه، ثم تمدد. وجد أن أبعاد التابوت مطابقة لجسده تمام التطابق، صاح مغتبطاً: «إنه مناسب».

هدر ست: «إذن، هو لك».

وقبل أن يتم صبيحته، كان الحاضرون قد اجتمعوا وتعاونوا على وضع الغطاء الثقيل فوق أوزير قبل أن تتسنى له فرصة للنهوض، وإن تركوا فرجة صغيرة يمكن من خلالها رؤية الرب المذعور يركل ويلكم الغطاء من الداخل بلا طائل. انحنى ست ووجه حديثه لشقيقه عبر الفتحة:

«أخذت الملك بلا وجه حق، ولم أعترض، أخذت إيزة بلا استحقاق، ولم أعترض، تدور متبختراً بخيلاء يصيب الكل بالغثيان، ولم أعترض. كظمت غيظي عنك يا ابن أُمي ثمانية وعشرين عامًا، وتكافئني الآن بأن تأتي وتأخذ حتى زوجتي؟ حوت-نبت؟ إنك بحق قرص الشمس لأقذر من خطت قدمه على سطح أبي. لن تر النور مرة أخرى يا أوزير، ولأخذن كل ما كان لك، حتى لو عنى ذلك فناء العالم وكل ما ومن عليه».

«انتظر، كيف تجرؤ... لا... لا تفعل...».

لكن وجه ست تراجع، وحل محله وجه أسود بديع القسمات، وجه... ملكة بنط؟ ما الذي جاء بها إلى هنا؟

«ليتك التزمت بوطنك واحتفظت بحضارتك المقرفة لنفسك».

وأتمت بيدها وحدها إحكام غلق الصندوق على الإله.

وتصاعد النشيج من خلف الستار.

مات أوزير... وكان ذلك في السابع عشر من شهر الربة حوت-
حرو^(٣٧)، وهو في الثامنة والعشرين من عمره.

مات، وعرف كل من في الكون أنه مات لحظة فارقت روحه
جسده. لم يعرف أحد حينذاك أنه رحل بتلك الطريقة وأنه حدث كذا
وكذا، بل هو شعور مباغت لحظي عصف بالقلوب كلها، وكأن آخر ما
فعلته روح الراحل كان إرسال إشارة ما لجميع الأحياء تنبئهم برحيله
قبل أن تغادر جسده.

هكذا انفطر كل قلب في الكون في اللحظة نفسها. حزنت الآلهة
والبشر، وبكى جب فارتجت الأرض وانشقت، وانتحبت نوت فبرقت
السما ورعدت، واغتم رع -حتى مع إصراره على إبداء عدم الاهتمام-
فشحبت الشمس وغابت وراء الغيوم، أما ست فانتشى ورقص
وابتهج، فهاجت العواصف وثارَت الأعاصير، وغرق العالم في فوضى
ودمار أسوأ مما أصابه يوم انسحب شو للسماء من قبل.

أما إيزة، الملكة التي صارت أرملة، فمع أن حزنها فاق الجميع،
تلقت النبأ بهدوء من كان يتوقع الأسوأ. لقد كانت تتطير من هذا الحفل
وقلبها -الذي لا يكذب عليها أبداً- لم ينفك ينذرها من مأساة وخيمة،
لا سيما ونبوءة الجد القديمة تتردد في عقلها. إن وقوع البلاء ليس أفضل

(٣٧) أو شهر هاتور (حتحور) بحسب المسميات المتعارف عليها اليوم للشهور المصرية القديمة.

من انتظاره طبعًا، لكنه أريح. هكذا تلقت إيزة الخبر بقلب ثابت رغم انكساره، وكانت جالسة فنهضت، وخلعت رداءها اليومي وارتدت عباءة كتانية بيضاء وقصت إحدى صفائرها السوداء، فعلان سيصبحان من الآن فصاعدًا رمزًا للحداد في كيميت، وخرجت.

خرجت من القصر، من واسيت، من الأرض بأسرها، وصعدت إلى السماء، إلى معندجت التي شارفت على ثغر نوت غربًا. إن إيزة لا تعرف كيف مات أوزير بالضبط، لكنها تعلم تمام العلم من هو قاتله، وأنها إن استسلمت لظلمة الحداد ولم تفعل شيئًا فورًا، لمرّ مقتل زوجها ومليكيها وشقيقها الحبيب على معشر راكبي معندجت مرور الكرام. إنهم، بحسب ما تعرف عنهم، لا يتميزون بحمية استثنائية لنصرة الحق ومقاومة الباطل، ما لم يكن هذا الباطل ثعبانًا قديماً غيبًا، وهي لا تنوي ترك دم زوجها يضيع هباءً بين أيديهم.

على متن السفينة كان الآلهة جميعًا مطرقي الرؤوس، ووجوههم الحيوانية التي اتخذوها لمدارة تعابير الحسرة على الوجوه الأصلية، تشقها قنوات جافة شقَّتْها الدموع. أما ست فكان منتصب القامة على رأس المركب، مستندًا إلى حربة تقطر بدماء حديثة خمنت إيزة أنها دماء عاب، ومتخذًا رأسًا جديدًا لحيوان غريب، لا تستطيع تحديد إن كان حمارًا أم كلبًا أم أيلًا أم ثعبانًا، أو مزيجًا من هذا كله. لا بد أنه من اختار لنفسه تلك الهيئة الفريدة المريعة وأرغم خنوم على تنفيذها له. تجاهلته إيزة ومضت بخطى وثيدة بين الآلهة، الذين راقبوا بقلوب متعاطفة وعيون زائغة تتحاشى تبادل النظرات المباشرة معها، واتجهت مباشرة إلى مقصورة رب الأرباب، فوجده وقد صار شيخًا أتمومًا، شارد الذهن

تائه العين فاغر الثغر، يسيل لعبه من فمه حتى صنع بركة صغيرة على أرض المركب تحته. شدت إبرة من نفسها أمامه وهتفت: «قُتل زوجي». لم ينتبه لها، لكنها لم تتأثر، تعلم أنه قادر على أن يكون واعيًا ومنتبهًا وقتما أراد مهما كان حاله، كررت بصوت عالٍ تعمدت أن يسمعه الجميع: «قُتل زوجي وأريد القصاص».

ولم يكن إلا بعد أن كررت هتافها عدة مرات، كل مرة أعلى من سابقتها، أن رد ملك الآلهة العجوز بصوت مشروخ لكن حاسم: «لا شأن لي».

متوقع، لماذا يؤلمها مع ذلك؟

التفتت، واجهت الآلهة على المركب، كررت وهي تنظر في كل الوجوه: «قُتل زوجي وأريد القصاص». لم يجيبها أحد ولو بنظرة. إنهم ليسوا أغبياء، قد يجهلون ملابسات مقتل أوزير، لكن لا يتعذر عليهم تخمين الفاعل، فهذا ليس لغزًا يتطلب محققًا خارقًا، وعلى الرغم من أسفهم الشديد لما حدث، لا ينوي أحدهم استعداد ست. وكان ست هو المستجيب الوحيد لنداء إبرة بعدما كررته حتى بُحَّ صوتها.

«هوني عليك يا شقيقتي، أتفهم حزنك، وأعدك بصفتي ملك العالم الجديد، أني سأفعل ما بوسعي لاكتشاف من قتل شقيقنا والانتقام منه».

آه يا لعين. كم كانت تشفق عليه من قبل، كانت تراه ضحية لقدر مجحف وطبع حيواني ليس له فيه يد، بل وكانت تحبه نوعًا، أليس شقيقها؟ لكن التعاطف مع الضحايا يتعدى حدوده عندما يصبحون جناة، قتلة، مغتصبين. ليس ست الآن في عينيها إلا شيطانًا، شيطان قتل

زوجها واغتصب على ما يبدو ملكه، شيطان يدعي البراءة أمام كل من يعرفون حقيقته. اقتربت من ست حتى كادت ترتطم به، كانت تفوقه طولًا بفارق واضح. هتفت فيه من عليائها:

«ملك؟ من نصبك ملكًا؟ أتقبلون به ملكًا وهو قاتل الملك الحقيقي؟ كيف تقبلون بهذا يا معشر الآلهة؟ يا أبي؟ يا أمي؟ يا أجدادي... أتسمعون ما يقوله القاتل؟». لكنها تعرف في صميمها أنهم يقبلون، ولها في سيرة أبيها العبرة.

رفع ست ذراعيه، وكأنها ينفض عنهما دمًا غير مرئي، «هذا اتهام جائر عار من الصحة كما يعلم الجميع...»، وكانت تعلم كما يعلم الجميع أن كلامها صحيح تمام الصحة، «... ولا أقبل أن يتهمني مخلوق بمثله من دون أن أردّه بالعقاب المناسب. لكنني أعلم أنه نابع من حسرتك على الراحل الحبيب، وسأتظاهر بأنني لم أسمع شيئًا. بل ولك عندي حل يرضي الجميع ويعيد لك ما خسرت. لم أعد متزوجًا بعدما نبذت زوجتي حين اكتشفت خيانتها لي. لذا، سأتزوجك يا إيزة...».

أما هذا فلم تضعه في الحسبان. تراجعت إلى الخلف خطوتين، انكمشت في نفسها، وتقدم ست ذات الخطوتين بجرأة وقامة منتصبة، حتى كاد فرق الطول بينهما ينمحي، «... سأتزوجك وأجعلك ملكتي مثلما كنت ملكة أوزير من قبل، وسأمنحك كل ما ترغبين فيه...»، هذه المرة كان صوته مخلصًا بحق، يقصد كل حرف قاله، «... سأتزوجك وأمنحك الابن الذي ضنَّ عليك به أوزير ومنحه لغيرك».

شحب وجهها النحاسي حتى كاد يقارب لون وجهه، جالت بعينيهما في وجوه بقية الآلهة مستغيثة، نظرت إلى جب الذي كان يحاول الاختفاء في ركن القارب، ذات الركن الذي قضى فيه ليلته خنزيرًا مستحقرًا قبل زمن بعيد. قال جب بصوت واهن لا يكاد يُسمع: «ربما عليك قبول العرض يا بنيتي... إنه ابني أيضًا مثلما كان أوزير». نظرت إيزة إلى رب الأرباب، لا يزال غارقًا في شروده ويقطر اللعاب من فمه المقدس، نظرت إلى دحوتي فبادلها النظر من دون أن ينبس ببنت شفة، ونظرت إلى وجه نوت، أمها الحبيبة التي دنا وجهها حتى بات قاب قوسين أو أدنى، فوجدتها تبكي وتغرق دموعها العالم بالأسفل.

عندها صرخت إيزة، موجهة حديثها لست وللجميع: «أقسم لكم بحق قرص الشمس المقدس، وبحق دموع أمي وخنوع أبي وملك زوجي المغدور، لأنتقمن له، ولأقتصن منك يا ست، وليعودن ملك البلاد لصاحب الحق».

قال ست ساخرًا: «ومن هو صاحب الحق؟ أهناك وريث لا أعرف عنه شيئًا؟». لم ترد.

توقفت السفينة حينما بلغت نهاية رحلتها، وترجلت الآلهة عنها تبعًا، متحاشين إيزة وكأنها غير موجودة، واستعدوا لخوض رحلة الظلام.

راقبتهم إيزة جميعًا يخنفون عن ناظرها تباعًا، حتى ساد الظلام وبقيت وحدها على معندجت، واقفة بلا حراك.

لم تتوقع أن تثير مطالبتها بالحق أي نتائج ملموسة لما صعدت على معندجت، ومع ذلك أملت أن تثبت موقفًا، وأن تنتزع ولو اعترافًا بسيطًا من رع أو أحد كبار الآلهة بجرم ست. لكنها لم تتوقع البتة أن تبلغ بجاجة ست حد أن يعرض عليها الزواج، بل إنه حتى لم يعرض، وإنما قال: «سأزوجك» وكأنه أمر مفروغ منه. لم يكتفِ بقتل أخيه واغتصاب عرشه، يريد استكمال المجموعة بزوجه أيضًا، لم لا يسمي نفسه «أوزير» أيضًا، بذا تُنسب إليه مآثر المقتول كذلك ويتم الانتقال بسلاسة، وكأن الجريمة ما ارتكبت؟

بدأت تروح وتجيء على السفينة المظلمة الخاوية. أهذا إذن هو الشقاق والتناحر الذي تنبأ به الجد الأكبر؟ حسبته سيكون اقتتالًا يدوم طويلًا بين الشقيقين، بين الرجلين، بين الملكين، اقتتال ملحمي يدوم قرونًا. لكن أيتتهي الشقاق بهذه السرعة؟ مات الملك، عاش الملك، وعليها أن تقبل بالوضع القائم وتخضع، مثل أمها، ولا تثير الصداع. ما هذا الشقاق الخائب؟ إنه حتى لم يصل إلى مرتبة أيام جب الأولى. انهزم جانب الحق من قبل أن يبدأ الصراع، ولم يبق فيه إلا أرملة مسكينة، بلا حول ولا قوة.

آه يا أوزير، آه يا زوجي العزيز، آه يا سبعي يا جملي يا بعلي، يا بيتي الذي وقع، يا قلبي الذي انخلع، أهكذا تذهب وتركني؟ بلا وريث؟ بلا ابن منك يحميني ويأخذ بثأرك ويسترد مملكتك؟ لكن... قال ست شيئاً ما فاتها في خضم هول ما قال، عن ابن لأوزير من أخرى، أي كلام هذا؟ ليس مستغرباً أن يكون للملك زوجات أخريات ومحظيات بلا عدد، لكنه لم يكن ليخفي هذا عنها، فهي الملكة الكبرى، هي العرش. لا، إن ست يكذب فقط ليخدعها، عليها ألا تنصت لهذا الكلام، عليها أن تجد وسيلة لاسترداد الحق المسلوب والأخذ بالثأر، إنها ليست كالأخريات.

تريدون شقاقاً وتناحرًا يقلب العالم؟ لكم هذا، ستريكم، إنها ليست كالأخريات، إنها ليست ضعيفة.

بل هي ضعيفة. تعرف كل شيء عن السحر لكن قوتها محدودة، وكانت أفضل حاکمة للعالم عندما تركها أوزير نائبة له، لكن لن يُعترف بها الآن لأنها ليست ابناً ذكراً للملك السابق، ولا لها ابن ذكر تنوب عنه حتى يبلغ أشده. ليس لديها القوة ولا الشرعية، أي فعل سترتكبه الآن ستُعاقب عليه لافتقارها هذين.

تحتاج إلى القوة والشرعية.

تحتاج إلى القوة والشرعية.

تحتاج إلى...

وعلقت قدمها خلال سيرها في سائل لزج زنخ.

قفزت متراجعة، متقززة. ما هذا القرف؟ أهو دم متخثر؟ دم عابب المتخلف عن معارك النهار؟ نظرت حيث السائل، ضيقت عينها وانتظرت حتى تعتاد الظلمة وترى بنور خنسو البعيد الواهن. ميزت بركة صغيرة على سطح المركب، أمام مقصورة رب الـ... الأرباب... هذا لعاب أتوم الذي كان يتساقط من فمه المفتوح.

غمرها التقزز أكثر، ثم... ثم أشرقت في عقلها فكرة، ثم أخرى، ثم ثالثة ورابعة.

تحتاج إلى القوة والشرعية، ولن يكون بلوغ أيهما سهلاً، بل الطريق طويل ومنهك ومحفوف بالمخاطر، ويتطلب أعواماً وأعواماً من التخطيط والمثابرة. لكنها تعرف أنها قادرة، بل تعرف أن ليس من بين الآلهة من هو أقدر منها على ذلك.

بحثت في أرجاء السفينة حتى وجدت قارورة صغيرة ملقاة جانباً، ملأتها بالسائل المقدس العطن، وعلى الوجه النحاسي الجميل الذي ذبل من فرط البكاء، ظهر ما يشبه شبح الابتسامة.



اسم الإله

١

لم تعد عباؤها بالبياض الذي كانت عليه يوم وضعتها أول مرة، فبعد شهور من الارتحال جابت فيها إيزة القطر من أقصاه إلى أقصاه، اتسخت العبادة واهترأت وخشن نسيجها، وباتت إيزة تبدو كالمعوزين من البشر. من يصدق أن تلك المرأة المزرية سليلة أقدس الآلهة وكانت حتى شهور خلت ملكة الأرض وما عليها؟

سألت عن جثمان زوجها البشر والحيوانات والنباتات والأحجار، طرقت الأبواب وهامت في القرى والحقول وخاضت في النهر والبحيرات وصعدت الجبال ونزلت الآبار، لم تترك ركنًا في كيمييت لم تبحث فيه عن جسد الحبيب الفقيد. عاملوها كأنها مجنونة، طردوها ونبذوها، لكنها تحملت كل ذلك وتقبلته بصدر رحب، على الرغم من صدوره من أدنى المخلوقات الذين كانوا يسبحون بحمدها ليلاً ونهارًا من قبل.

عدا أنها لم تعد من سعيها خالية الوفاض بالكامل، فقد كانت تجمع في نفس الوقت مقدار قبضة يد من تربة كل مكان في الوادي المقدس، رملية كانت أو طينية أو صخرية أو غيرها. وها هي الآن، في هذا الصباح الباكر، تقبض قبضتها الأخيرة، من طمي أحد مستنقعات شمال النهر الخصيبة، لتكمل مجموعتها الفريدة.

نفضت عن نفسها الإحباط، لو سمحت له بالتمكن منها الآن، وهي لا تزال في البداية المبكرة من المسعى المستحيل، فلا داعي لبذل الجهد في المحاولة. حتى لو خاب بحثها عن الجثمان الآن، ربما تجد إليه سبيلاً آخر بما ستحصل عليه لو نجحت خطواتها التالية، أو بالأحرى مقامرتها التالية، ستقامر بالكون كله في سبيلك يا أوزير، ست...

ثمة من يراقبها، أحست فجأة بثقل العيون المصوبة عليها من حولها. التفتت بحدة، استعدت لقتال لا تعرف كيف ستخوضه، هتفت بكل ما فيها من شجاعة ورعب: «أفصحوا عن أنفسكم وإلا أحرقتكم». فهرع الأطفال من مكانهم يركضون.

شقت الابتسامة طريقها على ثغرها رغماً عنها (أول ابتسامة كاملة منذ... متى؟ منذ رآته آخر مرة، قبل الحفلة)، وراقبت حفنة أطفال البشر الفضوليين تبتعد عنها. تنهدت، بحثت عن مكان عالٍ، ثمة ربوة قريبة، اتجهت إليها وتسلقتها بصبر ومشقة، تتدلى على ظهرها حقيبة قماشية ثقيلة تحوي مجموعتها الفريدة من الطين والرمل. جلست على قمة الربوة، قبالة صخرة ملساء تصلح كطاولة عمل، أفرغت عينات التربة بحذر عليها. لا تزال تشعر بالعيون المراقبة، عدا أنها لم تعد تهتم،

بل هي في الواقع لا تمنع الصحبة، لها الكثير لم تصحب أحدًا، لا إنسان ولا إله، حتى الوغد دحوقى يلتزم بنظام المملكة الجديدة الجائر ولم تسمع منه كلمة، بعدما كان لا يكاد يفارق بلاطها عندما كانت ملكة.

تحسست حزامًا قماشياً يحيط بعباءتها حتى وجدت ضالتها، قارورة اللعاب المقدس، فتحتها وسكبت محتوياتها مغالبة نفورها فوق عينات التربة، وهي تردد أصواتًا خافتة لم يفهمها مراقبوها الصغار، فتسلل أحدهم مقترّبًا أكثر كي يصيخ السمع.

هتفت بين تعاويذها: «اذهبوا إلى بيوتكم الآن وإلا عضت الأفعى مؤخراتكم». لكن الأطفال لم يروا أي أفعى، ونبرتها في الواقع كانت مرحبة لا منذرة، فتشجعوا على الاقتراب أكثر. «لقد حذرتكم، لتعضكم الأفعى إذن، ليس لي شأن إن فعلت».

جعلت إيزة تخلط السائل والتربة بيديها دون أن تتوقف عن ترنيم التعاويذ بصوت ملحن يعلو ويهبط. صار الخليط عجيبًا كالصلصال. بدأت تُشكل العجين كأبرع النحاتين، ورويدًا رويدًا بدأ ما تصنع يتخذ شكله؛ أفعى طينية ضخمة مهيبة. دنا الأطفال أكثر لرؤيتها عن قرب. «هذا إنذارى الأخير»، نظرت إلى السماء، أمست الشمس فوقها تقريبًا، «ابتعدوا الآن»، ولم يبتعدوا.

انحنت إيزة، دنت من الأفعى وهمست في أذنها الطينية، ثم نفخت فيها. مرت ثوانٍ، ثم تلوت الأفعى فجأة، وفحّت عاليًا، ثم قفزت في الهواء. صرخ الأطفال رعبًا وركضوا ممسكين بمؤخراتهم، غير أن الأفعى لم تسع وراءهم، بل صعدت إلى السماء وكأنها تتسلق حبلًا خفيًا، حتى اختفت عن العيون.

أما إيزة فلم تتمالك نفسها وانخرطت في قهقهة عالية طويلة وهي تراقب الأطفال المذعورين، «تعالوا، تعالوا، لا تخشوا شيئاً، كنت أمازحكم»، لم تتخيل أنها كانت ستضحك أبداً مرة أخرى، كم أن هيتهم لطيفة ومضحكة، يا لهم من كائنات جميلة، «أنا آسفة، أنا آسفة»، وأخذت تضحك وتضع يدها على صدرها تحاول أن تتمالك نفسها، حتى أمن لها الأطفال وعادوا يقتربون منها بحذر وهم يتلفتون قلقاً من عودة محتملة للأفعى.

قال أحدهم: «أأنت ساحرة؟»، وتبعه آخر: «لا تقترب منها وإلا عادت الأفعى لتعض مؤخرتك»، «لا تخافوا، هذه الأفعى لن تعض إلا مؤخرة شخص واحد، وقد ذهبت ولن تعود»، «أتقسمين؟»، «بماذا أقسم؟»، «بحياة الملك»، «أقسم بحياة أوزير»، «أتضحكين علينا أيتها الساحرة؟»، «أوزير مات، أقسمي بحياة ست».

عادت المראה لتغص حلقها. «كيف تعرفون بموت أوزير؟»، «نعرف جيداً، فقد رأينا تابوته».

تابوت؟ «أي تابوت؟ ماذا تعني؟»، «لا، لا تقل لها شيئاً، قال لنا الرجل إنه سيقتلنا مثل أوزير لو تفوهنا بحرف»، «لن يقتلكم أحد، لن أقول لأحد أنكم قلتم لي شيئاً»، «أنت ساحرة، ما يدرينا أنك لن تطلقينا علينا الأفاعي إن قلنا لك؟»، «سأعطيكم قطع القصب الحلو»، «ليس معك قصب»، «بل معي»، «أين؟»، «أنا ساحرة، أستطيع فعل ما أريد»، «لو أنك ساحرة ماهرة لكنت عرفت ما نعرف من دون أن نتكلم»، «أستطيع أن أعرف بفتح رؤوسكم واستخراج الأخبار بنفسني».

أعاد هذا الذعر إلى وجوههم وانفجر أحدهم في البكاء، «لن أفعل، لا تخف، أنا آسفة»، وكانت فعلاً آسفة، «انظروا، ها هو القصب»، وطرقت بإصبعيها فانشق الهواء ووقع منه عود قصب طويل غليظ، التقطته بخفة وبدأت تقسمه قطعاً صغيرة، وراقبها الأطفال بلعاب يجري، وقشرت إحدى القطع، وأخذت تمصها وتستمتع بطعمها المسكر أمام أعينهم التي حلت اللهفة فيها محل الذعر.

«أنا سأقول لك»، «بل أنا»، «بل أنا».

وأخذوا يتسابقون وهم يحكون لها كيف أنهم قبل عدة أشهر رأوا في منتصف إحدى الليالي بالقرب من هنا اثنين وسبعين شخصاً لهم هيئات غريبة، يحملون صندوقاً ضخماً أسود ويسرون في ضوء المشاعل إلى النهر، إلى الفرع التانتي^(٣٨) من حابي. حكى لها الأطفال بأصوات يقطعها التلمظ بقطع القصب أنهم تتبعوهم مثلما تتبعوها، وتنامى إلى مسامعهم أنهم أتباع الملك الجديد ست، وأن في ذلك الصندوق -الذي يسميه الأتباع تابوت- جثة الملك السابق أوزير. وحكوا لها تفاصيل الحفلة المزيفة التي كان الأتباع يسلون أنفسهم بتكرار إلقائها على مسامع بعضهم، متبجحين ومتفاخرين بربهم الملك الجديد. غير أنهم لمحوا الأطفال بعد أن وضعوا الصندوق في الماء وحمله التيار إلى حيث لا يعرف أحد، وطار دوههم، ولما أنهكهم التعب دونهم هتفوا إنهم سيقتلونهم ويقتلون آباءهم لو تفوهوا بحرف مما سمعوا ورأوا.

(٣٨) تانتي: أحد سبعة أفرع كان ينقسم إليها نهر النيل عند الدلتا لتصب في البحر الأبيض المتوسط، وقد جف خمسة من السبعة ولم يبق الآن إلا فرعان، نعرفهما باسمي دمياط ورشيد.

«لذا، أرجوك أيتها الساحرة ألا تخبري أحدًا بهذا وإلا قتلونا وأهلنا، لكن... لماذا تبكين؟». لم تستطع إيزة كبح دموعها مع كل هذا الفيض من التفاصيل، أخذت تحتضن الأطفال وتقبلهم وتوزع عليهم قطع القصب المقشر، «شكرًا، شكرًا لكم، شكرًا لكم»، وأخذت من بين دموعها ترقيعهم بتعاويذ سحرية حامية، تحفظهم من خطر أتباع ست وكل من قد يرغب بهم شرًا.

عدا أنها لاحظت بينهم طفلة ظلت صامته طوال الوقت، ولم تتوقف عن التفرس في ملامح إيزة بعمق، ولما رأت إيزة الطفلة تهمس بشيء في أذن إحدى رفيقاتها، أمسكت يدها برفق وسألتها: «ماذا قلتِ لها؟»، «لا شيء»، «بل قلتِ شيئًا، أئمة شيء بي يضايقك؟ أعترف أنني لم أعتني بمظهري كثيرًا مؤخرًا». بدا على الفتاة التردد في الحديث، فشجعتها إيزة بقطعة قصب أخرى. قالت أخيرًا: «هل أنتِ أم الكلب؟».

تراجعت إيزة مندهشة، «أي كلب؟»، قال صبي آخر: «لا يا حقاء، هي ليست أم الكلب، بل تشبهها فقط»، «صحيح، تشبه الساحرة أم الكلب جدًّا»، عقدت إيزة حاجبيها، «يبدو أن لديكم حكاية أخرى تريدون حكيها»، اندفعوا للحكي، لكن أكبرهم تقدمهم وسبقهم: «هاتي مزيدًا من القصب أولًا»، فجاءت لهم إيزة بالقصب وهي يأكلها الفضول. هكذا بدأت الطفلة تحكي والعصارة الحلوة تسيل من فمها: «امرأة أخرى تشبهك بالضبط، كانت تحمل طفلًا رضيعًا له رأس كلب أسود، تقبله وتبكي وتجري بين المستنقعات. ثم وضعته تحت الشجرة عند المستنقع هناك...» وأشارت جنوبًا، «وبعدها أخذت تشق ملابسها

وتصرخ. ثم بعد حين تركته ومضت»، «يبدو أن كل غرباء الأطوار يجيئون إلى هنا لفعل أغرب الأمور»، «نعم، مثلك أيتها الساحرة».

فهمت، وعرفت هوية المرأة الأخرى وطفلها ذي رأس الكلب، وأدركت أنها كانت تعلم من البداية لكنها أبت أن تعترف لنفسها. «وماذا حدث للطفل؟»، «لا نعرف، لم نعد نذهب إلى هناك، فالكلاب اجتمعت في المكان فجأة ولم تعد تسمح لأحد بالاقتراب»^(٣٩).

«ما هذه الهيئة المزرية يا إيزة؟».

جاء الصوت من خلفها على حين غرة، وهرع الأطفال راكضين خوفاً من هذا القرد المتكلم الذي ظهر خلف الساحرة فجأة، وإن ظلوا يراقبون من على مسافة. من دون أن تستدير قالت: «مهما كانت مزرية، تظل أفضل من هيئة البابون».

ضحك دحوتي.

٢

ريثما كان دحوتي وإيزة يرتقيان السماء، كان العالم حولهما يتداعى.

لم تضربه فوضى مثل التي ثارت إثر مقتل أوزير أو عند انسحاب شو، لا سيول ولا عواصف ولا كوارث طبيعية، بل أخذت الشمس تبتهت، والأرض تنشق، والجبال تتفتت، والحيوانات تتكلم بلسان

(٣٩) نتيجة للكشوفات المتتالية الكبرى التي عرفتها إيزة من هؤلاء الأطفال، صار المصريون القدماء يقدسون أقوال الأطفال ويؤمنون أنها تحمل النبوءة، ولم يكن من الغريب أن يستشير الكبار أطفالهم في أمورهم، ويحاولون تفسير كلماتهم الطفولية بحثاً عن أي نبوءات أو رسائل إلهية متضمنة.

البشر، والبشر ينبحون وينعقون ويزأرون. أخذت مياه حابي تغور في الأرض، ومياه ودج-ور تغور وتغلي وتهدد بابتلاع الأرض كلها؛ أي أخذ نسيج الوجود ذاته يتفتت.

مع ذلك، ظلت إيزة مستكينة رائعة المزاج، كأنها في نزهة.

«إنك حتى لم تسأليني عن سبب استدعائك لمعندجت»، «ألم تقل إنني سأعرف عندما نصل؟». حذق فيها دحوتي هنيهة، وحافظت هي على وقارها، باستثناء لمعة عين لم تدم أكثر من جزء من الثانية، كانت كافية ليلاحظها أبو منجل الحصيف. إنه يعرف يقيناً أنها المسؤولة، يراهن على ذلك بكل مخزونه من القرابين المختلسة، لكنه مع ذلك لا يكاد يصدق كيف واتتها الفكرة، وكيف جرؤت.

حتى دقائق قليلة خلت، كانت رحلة الشمس اليومية تمضي في روتينها العادي، نفس الصراع مع وحش الفوضى ونفس التبرم من رب الأرباب ونفس التبجح من ست، ثم صرخ رع على حين غرة صرخة وجع عالية أذهلت الجميع، أذهلت حتى عابب ذاته، وقد حسب أنه نال من غريمه بشكل ما، قبل أن يعاجله ست بضربة قضت عليه مؤقتاً وذهب مع بقية الآلهة ليروا ما الذي حلّ برع. كان ملك الآلهة منظرًا على أرض مقصورته، واقفًا على وجهه يمسك بمؤخرته ويتألم، وبجواره على الأرض أفعى غريبة الهيئة تفحّ في الجميع. دعس ست الأفعى بقدمه فهاتت.

هتف رع بين أوجاعه: «لقد لدغني شيء مؤلم، لا يعرفه قلبي ولم تره عيني ولم تصنع يدي، ومع ذلك يؤلمني أكثر من أي شيء. لا هو بنار ولا هو بهاء، ومع ذلك قلبي يحترق وجسدي يرتعد. أغيثوني يا أبنائي».

عطلت معندجت حيث كانت بالسماء. ترك الآلهة مواقعهم والتفوا حول رع المتألم، وتناوبوا على تفحص مكان اللدغة. لم يفهموا كيف تأثر رب الأرباب بلدغة كائن بسيط مثل هذه؟ بذلوا كل ما لديهم من معرفة بالطب والسحر في محاولة لعلاج خالق الكون، وذهبت محاولاتهم سدى، فالسم ليس مثل أي سم، والأفعى ليست مثل أي أفعى، لا هي كثعابين الأرض ولا هي كعابب قادمة من قبل الوجود.

أما دحوتي فقد تأمل الأفعى المسحوقة، وتشمم منها رائحة عطنة مألوفة، يعرفها كل المقربين من رب الأرباب، و... يا لك من جبارة يا إيزة! قال دحوتي: «لعل إيزة قد تستطيع مساعدتك يا مولاي»، «أحضروها فوراً، أحضروا عابب ذاته لو كان عنده دوائي».

فنزل من السفينة بسرعة، متحاشياً نظرة ست النارية. يعلم دحوتي أن من بين أهل الأرض والسماء جميعاً، لا أحد سواها لديه من العلم والذكاء ما يكفي للتفكير في أمر كهذا وتنفيذه، لكنه لم يحسب أن لديها ما يكفي من الجرأة أيضاً. إن استهداف رب الأرباب يعني استهداف الوجود برمته، لو لم تداوه إيزة بسرعة سيسقط وتسقط معه الماعت، سيتفكك نظام الوجود برمته، هذا إن استطاعت مداواته، ولم يكن فعلها ضربة انتحارية من أرملة يائسة. لكن لا، إيزة ليست بالانتحارية، إن لها من فعلها هذا هدفاً، هدف يتحرق دحوتي لمعرفته، ووجهها المطمئن الثابت لا يفصح عنه.

همس لها دحوتي وهما يعتليان مركب النهار: «كان بوسعي فضحك بين الآلهة، لكنني لم أفعل»، «لا أعرف عما تتحدث»، «بل تعرفين. فضلت

أن أرى ماذا ستفعلين، راهنت عليكِ يا إيزة، أرجوكِ لا تجعليني أندم». احتفظت بصمتها لبعض الوقت، لكن حالما صارا على سطح المركب همست له بخفة لم يلاحظها غيره: «أحسنت الرهان».

كل من على السفينة، بمن فيهم دحوتي وإيزة، كان قد ضربه الوهن مثل العالم حولهم، انعكاسًا للتردي المستمر في حالة رع الملدوغ. مع ذلك تمكنت إيزة من الحفاظ على وقارها، ومضت بتودة إلى ملك الآلهة في مرقده.

أظهرت الهلع، «ماذا بك يا أبي الإله؟ هل جرؤ أحد أبنائك عليك؟ هل آذاك هذا؟»، وأشارت إلى ست المستند إلى صارية المركب ويرمقها بمشاعر مختلطة دون أن تبادله النظر. قال رع: «لدغتنني أفعى...»، وشهق عميقًا، «ليست من خلقي مع أنها مني»، «كيف هذا؟ لا يمكن»، دقَّ دحوتي الأرض بقدمه في نفاد صبر، تجاهلته إيزة.

اضطربت معندجت، نظر أحدهم من فوق سورها وهتف: «نهر السماء يحف»، «المركب سيقع». تعالى اللفظ بين الآلهة وعم الذعر.

وسط كل هذه الجلبة، انحنت إيزة على أذن رع، وهمست: «أخبرني باسمك يا أبي الإله، فالمرء يحيا من جديد عندما يُنادى باسمه». لم يسمعها إلا رع، ودحوتي الذي يركز معها بكل كيانه غير آبه بانهايار العالم حوله.

جحظت عينا ملك الآلهة، بما فيها عين الشمس الباهتة، «ما الذي تعنيه؟»، «أخبرني باسمك الحقيقي».

«أنا ملجأ الأرواح، أنا خالق الأنفاس، أنا الذي ينير الجسد، أنا صانع الساعات وجالب الأيام وخالق الأعوام...».

«ليس من بين ذلك اسمك، صدقني، سيعيش من يكشف عن اسمه».

سرى السم أكثر في عروقه، أنَّ الإله وبكى. بدأت معندجت تقع من السماء، وبدأت الآلهة تنتحب.

«أنا خالق السماء والأرض، أنا العاصف بأعداء الخليقة، أنا الكبش، أنا الجعران، أنا خبري ورع وأتوم، أنا صاحب الاسم الخفي...».

«أخبرني بهذا الاسم الخفي».

دوى تلاطم الجبال وسمعوا صراخ نوت وهدير جب، سمعوا فحيح عابب المنتصر يتردد من أعماق نون.

«لا يمكن أن أفصح عنه»، «لن أستطيع مداواتك إلا به»، «ستقاسميني بهذا قوتي»، «أفضل من أن تهلك ويهلك معك الوجود»، «عديني أنك لن تخبري به غيرك»، «أعدك».

جفَّ النهر السماوي بالكامل وبدأت معندجت تقع وكأنها صخرة صماء.

غالب الجد العجوز عذابه ورفع رأسه، انحنت عليه إيزة وهي تكاد تموت، وزحف دحوتي تجاههما محاولاً الإنصات. أسر ملك الآلهة باسمه المقدس في أذن حفيدته الساحرة، ولم يتمكن الوزير على كل جهده من سماعه. وعلى الفور وضعت إيزة يدها فوق رأس جدها، وتمتت بكلمات لا يفهمها أحد، ولا حتى دحوتي ورب الأرباب ذاته، وتعالى صوتها رويداً، وأخذ اللون الذهبي يعود للعين الشمسية رويداً، ثم

سعل رع فجأة، وتقياً دماً أسود كثيفاً تناثر على سطح السفينة، وشيئاً فشيئاً عادت القوة للجسد المنهار، ونهض.

وبنهوضه قامت الماعت مرة أخرى، وعاد النظام الكوني للعمل بكامل قوته، واسترد جب ونوت عافيتهما وسلطانهما على نطاقيهما، وطففت معندجت في آخر لحظة قبل أن ترتطم بالأرض، وأخذت ترتقي لتعود إلى مسارها السماوي الأصلي. رويداً رويداً بدأ كل شيء يعود إلى ما ينبغي أن يكون عليه... إلا مليكها المغدور وإرثه الضائع.

استدارت إيزة وولت مبتعدة بهدوء، خفضت عينيها كي تداري نظرة الانتصار، وكادت تحتفي لولا صوت رع الذي هدر خلفها: «ماذا ستفعلين بي؟». توقفت، التفتت إليه بثبات، لكن بملامح رائقة وصوت قصدت أن يخلو من أي نبرة تهديد: «لا تخش شيئاً يا أبي، قوتك وسلطتك وعالمك في أمان، مني على الأقل. أنا فقط سأعمل على تحقيق ما ترفعت أنت عن فعله...»، ثم نظرت إلى قاتل زوجها الذي كان يراقب مبهوراً مثل الجميع، تابعت: «...سأعيد الحق إلى أصحابه».

٣

ها قد حازت القوة، ينقصها الشرعية.

إنها الآن قادرة على مواجهة ست لو أرادت، لا تضمن النصر لكنها على الأقل ستكون مواجهة متكافئة نوعاً. لكن حتى لو غلبته، ماذا ستكون النتيجة؟ لن يؤول الملك إليها، لن يسمح هذا المجتمع قاصر النظر بحكم ملكة. إن أرادت استعادة إرث أوزير المسلوب، يجب

أن يكون لها منه ابن شرعي، ينتقل الملك إليه مثلما انتقل من أتوم - رع إلى شو إلى جب إلى أوزير من قبل. ولهذا تحتاج إلى الجثمان.

هكذا اتجهت إيزة حالما بلغت الأرض إلى الفرع الثاني من حابي، حيث أخبرها الأطفال أن هذا آخر مكان سُوهَد فيه صندوق أوزير، أو التابوت كما يسمونه. غير أنها لما بلغت مستنقعات شمال الوادي تذكرت أمرًا آخر؛ أم الكلب التي تشبهها ورضيعها ذا رأس الكلب. هذا لا يعنيها، ليحترق الكلب ولتحترق أمه، ما لها ومال تلك الخائنة؟ عزمت على متابعة سعيها وعدم تضييع الوقت في أمور بلا معنى، وانطلقت، وحملتها قدماها إلى شجرة المستنقع الجنوبي، بالضبط إلى حيث قررت ألا تذهب.

بدأت خفقات قلب إيزة تتعاضم، وكأن لها ذكرى سيئة هنا، كيف هذا وهي لم تأتِ إلى هنا من قبل؟ كيف وهي لم تكن تود أن تأتي أصلاً؟ عدا أنها في الواقع أرادت أن تجيء، أرادت أن تعرف. لقد خمنت الحقيقة، لكن لا يزال بها شك، ويرادها الأمل أن ما خمنت ليس حقيقياً، ليس إلا هذيان أطفال وقولاً خبيثاً من ست لزعرعتها وحثها على قبول عرضه المقيت. تريد المعرفة وتخشاها.

المكان حول الشجرة خاو، ليس هناك أي رضيع برأس كلب ولا أي كلاب كما قال الأطفال، هنا فقط شجرة عريضة عالية على أرض طينية معشوشبة. لكنها بدأت تميز آثار أقدام الكلاب، وقدمي طفل أيضاً. جلست تحت الشجرة، استندت بظهرها إليها. ظلت في مكانها لا تعلم ماذا تفعل. مرت دقائق، ساعة، اثنتان، ثلاث، تريد أن تذهب

لكن دافعاً خفياً يكبلها. ثم، على حين غرة، لمحت بجانب عينها، في آخر نطاق رؤيتها، لمحت الرضيع تحت الشجرة بجوارها. التفتت، لم تجد شيئاً. توترت، تحفزت. بعد ثوانٍ من الترقب رأت مرة أخرى، بتلك الطريقة العصية على الفهم، راحة يد ست تنزل على وجنتها بصفعة هائلة، شعرت بألمها الهائل حتى إنها وقعت جانباً من شدة الصفعة. صرخت إيزة رعباً وانتفضت في مكانها، ماذا يحدث لها؟ ثم بعد شيء من التروي فهمت، إنها ترى بعين غيرها، هذه رؤى شخص آخر، أو بالأحرى أخرى. أصار بوسعها أن تستبصر ما حدث مع آخرين؟ أهذه من قوى رب الأرباب التي فازت بها؟

طيب، لنجرب. بدأت تستجمع تركيزها في محاولة متعمدة لاستدعاء الرؤى (هل هي متأكدة أنها تريد أن تعرف؟)، أغلقت عينها، لا شيء، (لا، لا تريد أن تعرف)، ركزت أكثر، تحسست الأرض، قبضت من الطين قبضة، تشممتها، لعقتها، (بل تريد) بها خليط من الروائح لا يميز بينها إلا أنف حيوان مدرب، أو أنف ساحرة عظيمة لها قوة رب الأرباب ذاتها، ميزت رائحتها؛ حوت-نبت (ها قد ثبت لك أنها هي يا إيزة، هل أنت سعيدة الآن؟)، يكفي هذا، لا تحتاج إلى معرفة المزيد.

لكن، الآن وقد التقط الأنف الرائحة، ما عاد هناك مجال للتحكم، انهمرت عليها الرؤى تباعاً، على التوازي، مثلما يتذكر المرء أمراً فتراوده تفاصيله كلها دفعة واحدة. رأت إيزة بعيون حوت-نبت كل شيء وكأنها من عاشت تلك الذكريات شخصياً؛ رأت تلك الليلة عندما كانت حوت-نبت وست ضيوفاً لدى إيزة وأوزير في واسيت، ست

كان في الخارج يصطاد كما يحب الصيد في الليل، وحتوت-نبت نائمة في مخدعها. وها هو... ها هو أوزير يلج مخدعها، ثملاً من النبذ والثناء، يمشي مترنحاً لا يكاد يخطو خطوة سليمة، لا يرتدي شيئاً تقريباً. ثم يرفع الغطاء عنها، «ما هذا يا أوزير؟ ماذا تفعل؟»، لكن صوتها، صوت أختها، لم يحمل الاستنكار، بل الترحيب، بل الدعوة. وفي حين افتقرت قامة أوزير للانتصاب، لم يفتقر إليه جميع أعضائه، بل وكأن أحدهم استولى على كامل شدة ومهابة صاحبها.

كفى، كفى، لا تريد أن تعرف، لكن لا خيار، انهار سد الغفلة ولا ملاذ من المعرفة، خبرت بنفسها ما دار بينهما، ذاقت حتى النشوة التي غمرتهما. لم يميز أوزير حوت-نبت من إيزة، بل لعله في الواقع لم يكن يبحث عن إيزة حتى، فلم يفكر إلا في نفسه خلال اللقاء. آه يا سبعي يا جملي، آه يا وسخ يا نجس. لكن ما صار لم يكن حادثة ندم عليها طرفاها، بل تكررت في الليلة التالية، والتالية والتالية، ولم يكن ثملاً في بقية المرات، تواعدا عن وعي وحذر في أماكن بعيدة عن أعين زوجيهما، شقيقيهما. وفي مرتبها الأخيرة وضع حول عنقها القلادة الثمينة التي جلبها معه من الجنوب.

ورأت ست، وقد نبهته ملكة بنط -لهؤلاء القوم ملكة؟ أنثى؟ يا لهم من محظوظين، باستثناء الجزء الذي دمر فيه أوزير عالمهم بالطبع - إلى خيانة زوجته، يضربها، يسجنها، يذلها، يحاول إجبارها على إجهاض رضيعها، لكن يبدو أن هذا الرضيع كان أكثر صلادة من أبيه الهش، إذ فشلت كل محاولات القضاء عليه حتى وهو جنين.

وسمعت، وهي مكبلة الأطراف ومكممة الفم ومقيدة بالأغلال إلى الحائط خلف ستار في قصر ست، سمعت تفاصيل الخطة الشيطانية التي اتفق عليها مع ملكة بنط وأتباعها لقتل أوزير، وأنصتت للحفل بالكامل من خلال أذني شقيقتها وراء الستار، وأنّت معها وبكت محاولة تحذيره من دخول الصندوق، وارتمت على الأرض وأطلقت العنان لنشيجها لما فتح ست عليها الستار وفك سلاسلها كي ترى الصندوق الذي يحتوي جسد عشيقها، وتسمع صراخه وركلاته من الداخل محاولاً تحرير نفسه عبثاً، ولا تستطيع التدخل لمساعدته.

وأخيراً، رأت نفسها في اليوم التالي، وقد ألقاها ست خارج قصره، وقد أمرها ألا تعود إلا بعدما تتخلص من ابن الخيانة الذي في بطنها. وهامت على وجهها في الأرض، حتى بلغت تلك البقعة، وأقعت تحت تلك الشجرة، وأنجبت الرضيع ذا رأس الكلب، لا، بل هو رأس ابن آوى، لكن الأطفال لم يسعهم التفريق بين هذا وذاك. إنبو^(٤٠) كان اسم رضيعها، يا لسخرية القدر. أنجبته وهي تبكي وتتنحب، وتشق صدرها وتلطم، وتنادي على عشيقها المقتول، وزوجها القاتل، و... وحتى أختها إيزة، يا لك من لعينة، يا لك من مسكينة. وتركت الرضيع هنا، وذابت... وانقطع الإرسال.

انهارت إيزة في مكانها، وانفجرت في بكاء حارق لم تبكه حتى عندما قُتل زوجها. مع أن أكثر هذه التفاصيل ليست عليها جديدة، بل خمنتها بشكل أو بآخر من قبل، إلا أنها لم تكن مستعدة لمواجهة على هذا

(٤٠) يعني اسم إنبو «الطفل الملكي»، وإنبو هو الإله الذي سيسميه اليونانيون «أنوبيس».

النحو. صارت تكره الجميع، تتعاطف مع الجميع، تلعن الجميع، تعذر الجميع. ودت لو عاد بها الزمن ومنعت كل شيء من الحدوث، بل ليت أمنية رع في منع ولادتهم تحققت وما صار كل ذلك. رع! كان بوسع رع طوال الوقت أن يعرف كل ذلك لو أراد، لو بذل قليلاً من المجهود لعرف الحقيقة وأقام الحق وعاقب الظالم أو تدخل بأي شكل كان. لكنه لم يحرك ساكناً، اعتصم بسمائه واعتزل العالم ليحدث فيه ما يحدث، إنه ذنبه أيضاً بشكل أو بآخر.

ظلت إيزة على حالها، هائمة في أفكارها وتبكي عائلتها، حتى ساد الظلام واستولى عليها النعاس. وعند منتصف الليل، استيقظت على لسان رطب يلحق دموعها التي لم تنفك تنهمر حتى في نومها، لسان كلب، بل لسان ابن آوى، بل رأس ابن آوى على جسد طفل عادي يبدو ابن عشرة بمقاييس البشر مع أنها تعلم أن عمره الفعلي لا يتجاوز الشهور.

ربّتت على رأس ابن شقيقتها.



عبر الأخضر الواسع

١

حتى بالنسبة إلى ربة سليلة أقدس الآلهة ولها قوة رب الأرباب، يظل خوض مياه ودج-ور أمراً مؤرقاً مرعباً^(٤١). كانت لتفضل مجابهة ست في معركة مباشرة على أن تخوض البحر، لكن هذا ما آل إليه سعيها، بعدما بحثت بقاربها في كل بقعة من الفرع الثاني عن التابوت، حتى تيقنت أن التيار رماه في البحر، ولن تراجع الآن.

(٤١) كان المصريون القدامى - وآلهتهم بطبيعة الحال - يهابون البحر وخوضه، خبرتهم الملاحية تلخصت في ركوب النيل؛ افرد الأشربة وستأخذك الرياح جنوباً، اطو الأشربة وسأخذك التيار شمالاً. أما البحر، الممتد بلا نهاية أمام العيون، فكان مجهولاً مخيفاً مرعباً، وكأنهم يبحرون في نون مباشرة. حتى رحلاتهم جنوباً عبر البحر الأحمر كانت لا تتجاوز الإبحار بمحاذاة الشاطئ أكثر الوقت، لا يدعون اليابسة تغيب عن أنظارهم، وعلى الأرجح كانوا يرسون كل ليلة ويبيتون على الأرض خشية من الإبحار في الظلام. لذا عندما تخوض إيزة البحر بحثاً عن جثة زوجها، فهي تفعل ما لا يجزؤ أشجع الآلهة على فعله.

كانت قد فكرت للحظة في هجر مسعاها، والبحث عن أختها التي قال ست إنه نبذها، وأخذها هي وإنبو والالتجاء إلى أي جزيرة منعزلة في جنوب الوادي، ليعيشوا وحدهم ويجتروا أحزانهم في سلام ما بقي لهم من عمر، أي إلى الأبد. لكن بقدر ما تبدو تلك فكرة مغرية، إلا أنها بدأت طريقها ولم يعد في وسعها التراجع. لقد سرقت قوة ملك الآلهة وتعهدت باستعادة حق زوجها، وست يعلم ذلك، ولا شك أنه يتربص لها، ولن تنهأ في سلام منه في أي مكان إلا لو أعلنت إذعانها لمبتغاه. بالإضافة إلى أن دافعها، بصراحة، لم يعد استرداد حق زوجها المغدور، بل بالأحرى رد الاعتبار لنفسها. لقد ألقى كل من أشقائها الثلاثة أوراقهم، وصارت إلى ما هي فيه نتيجة لأفعالهم، لن تطيق أن تعيش ضحية مذعنة لحماقة وجشع وشهوة وحسد الآخرين. حان الآن دورها، ولترينهم أنها خير من أنجبت بطن السماء التعيسة، حتى لو فعلت ذلك بخوض البحر نفسه.

وهي على أي حال لم تعد وحيدة، معها إنبو، الطفل الملكي الذي وُلد برأس حيوانية مباشرة ولم يتخذها اتخاذًا مثلما اعتاد أسلافه. ظل إنبو يتتبعها منذ وجدته أول مرة، ربما لأنه وجد فيها أقرب شيء إلى ريح أمه، وكان جسده قد كبر خلال أيام حتى صار أقرب لفتى مراهق قوي، وعمل معها بهمة على بناء سفينة قوية تتحمل خوض البحر، وأبحر معها. وجدت في ثمرة الخيانة هذا آية من الوفاء غير المسبوق في شجرة عائلته. كان ينبغي أن يكون ابنها، فقط لو اكرث أبوه أين يصوب بذوره.

أما شؤون الملاحه، التي لا خبرة لأبيها بها، فقد استعاضت عنها
إيزة بالسحر الذي ترتجله ارتجالاً، فتبتكر التعاويذ وتقيم الطقوس
لتهدئة العواصف واستدعاء الرياح واستسباح الأمواج، ثم تقف
وتصغي إلى قلبها استجداءً للتوجيه. لم يكن لإبحارهما وجهة واضحة أو
هدف. لكنها وثقت في بوصلة غريزتها، ووجدت -بكثير من الدهشة-
أن صوت الغريزة اتفق مع اختيارات أنف إنبو المرهف للاتجاه الذي
يبحرون إليه، حتى مع أنها لم تثق في الطفل بما يكفي -بعد- لإخباره
بغايتها وهدفها. أهو يتشمم ريح أبيه؟ أم عرف بشكل ما مرادها وعزم
على مساعدتها؟ لا يهم، لا يزال الفتى غصّاً وسيكشف الزمن عن سعة
قدراته. إنها تراهن على أنه سيكون له شأن عظيم في المستقبل.

حملهما التيار وصوت الأنف والقلب إلى شاطئ رملي في الشرق.
وجيب قلب إيزة وانتصاب أذني إنبو واتساع فتحتي أنفه أخبروهما فور
أن خطت أقدامهما رمال الشاطئ أنهما في المكان الصحيح. لم يمض
الكثير من الوقت قبل أن يتعثرا في جذع مبتور لشجرة كانت على ما
يبدو سامقة مهيبه. لا تحتاج إلى سؤال إنبو إن كان يشم ريح أبيه، فقد
أصبحت تلتقط عبق فقيدها بوضوح؛ لقد كان هنا حتى وقت قريب.
سهل عليها هذه المرة تكرار ما فعلته عندما وجدت إنبو، أي استبصار ما
حدث للجنة. استجمعت تركيزها وتوالت الصور:

أخذت المياه التابوت الذي يحوي الجنة -الذي لا يزال محكم الغلق
ومنيحاً ضد تسرب المياه على نحو مذهل- عبر ودج-ور إلى هنا، إلى
هذا الشاطئ، وحيث ألقته الأمواج نمت حوله تلك الشجرة بسرعة

هائلة (أين كانت كل تلك الخصوبة التي تنثرها حولك أينما حللت طيلة
الأعوام الثمانية والعشرين التي قضيتها معي؟)، اكتفت تلك الشجرة
التابوت وأخفته بداخلها وكأنها تحميه. وها هو ملك مدينة جُبلا^(٤٢) يمر
بالشاطئ برفقة حاشيته، ثم يُذهل من تلك الشجرة العظيمة التي نبتت
من العدم تقريباً، فيصيح في عبيده أن يقطعوها، كي يتخذها عموداً
في قصره، يتبرك به ويوطد به حكمه. وبعد خلع الشجرة... ينقطع
الإرسال.

جلست على الشاطئ الرملي تفكر في الخطوة التالية، كيف تستعيد
تابوت زوجها؟ تستطيع أن تهدم القصر بسحرها وتسويه بالأرض إلا
من عمودها، وتأخذه وترحل بسهولة، لكن ليس لأهل هذا المكان ذنب
في مصابها، وتكره أن تستعيد حقها بظلم الآخرين.

وفيما هي شاردة في أفكارها، رأت زمرة من الفتيات الحسان
على الشاطئ غير بعيد عنها، يخلعن ملابسهن ويخضن في الماء ويلعبن
ويتضاحكن. استمتعت بمراقبتهم، ودت لو تنضم إليهن. لكنها لما
تناهى إلى مسامعها من أحاديثهن أنهن خادמות للملكة ويعملن في
القصر، التمتعت عيناها.

طلبت من إنبو أن يظل في السفينة ليعتني بها، ويستعد للإبحار حالما
تعود.

وذهبت إليهن.

(٤٢) وهي الآن مدينة جُبيل في لبنان، جُبلا هو اسمها البابلي القديم، وفي السجلات اليونانية عُرفت
باسم بيلوس. تُعد من أقدم المدن التي سكنها البشر في العالم.

قالت إحدى الخادِمات للملكة:

«جاءتنا هذه المرأة عندما كنا على الشاطئ نَسبح ونغتسل ونلعب. لفت انتباهنا لونُها النحاسي العجيب، وحينما وجدتنا ننظر إليها نادتنا، وأخذت تمدح جمالنا وبشرتنا البيضاء وشعرنا الناعم، وقالت، بلسان لم نسمع مثله من قبل لكنه مفهوم، إنها ستعلمنا كيف نجدل شعرنا جدائل طويلة بديعة، ومنحتنا عطورًا بديعة لم نعرف لها مثيلًا من قبل. ثم... ثم طلبت مِنَّا أن نأخذها للمكتنا، إليك يا مولاتي».

«طبعًا طبعًا، قولها إنكن جميلات وإعطاؤكن العطور أسباب كافية طبعًا لإحضارها إلى حضرة الملكة في القصر. يا لكن من حمقاوات ساذجات».

«نحن آسفات يا مولاتي. لكن، إن فيها شيئًا غريبًا، شيء أخذ لا يقاوم، حتى لو لم تطلب كنا سنجلبها لك، سترين هذا بنفسك إن قابلتها».

إلقاء الغريبة خارجًا هو الحل الأفضل، لكن تردد الأجانب على المنطقة ليس بالأمر الشائع، وامرأة وحيدة مشعثة لا تبدو خطرًا كبيرًا على بلاط الملكة، لا ضير إذن من إرضاء الفضول واستدعائها، عسى أن تجد فيها ما يسليها.

«طيب، أدخلنها إذن».

انطباعها الأولي كان التقزز من هيئتها المزرية وعباءتها الممزقة وشعرها المتشابك الأشعث، تراهن أن جسد هذه المرأة لم يعرف ماءً - غير البحر - منذ شهور، ومع ذلك، لما اقتربت المرأة منها وانحنى احتراماً برشاقة وأناقة الملوك - والآلهة؟ - فاح منها عطر يسلب الألباب، ولما ألقت عليها التحية خفق لها قلبها حتى تمت، وهي الملكة بنت الملوك، أن تسجد لها وتقبل قدمها.

لكنها تماكنت نفسها.

«من أنت؟»، «أنا من جئت لشفاء ابنك».

جفلت الملكة وأظلم وجهها. كيف عرفت الغريبة بمرض رضيعها؟ لقد احتفظت بنبا مرضه سرّاً ولا يعرف به حتى الملك ذاته، ناهيك عن الخادومات اللواتي يبدو عليهن نفس الذهول الآن، ما ينبئ أنهم لم يعرفن به ويسررن للغريبة بالأمر. جلبت له الملكة أطباء المملكة سرّاً ولم يملك أحدهم حيلة لشفائه، حتى يئست وسلمت بأنها ستفقد لا محالة.

«من أنت؟»، «أنا عابرة سبيل لي عندك طلب يسير، ويسرني منح ابنك حياته مقابل منحي ما أريد»، «كيف عرفت بمرض ابني؟»، «أنا من لا يقف أمامها سر ولا تستعصي عليها علة»، «أأنت ساحرة؟»، «حسبت هذا واضحاً»، «ما طلبك إذن؟»، «شيء هين، لن يصعب على ملكة منحه»، «ما هو؟»، «ستعرفين في النهاية»، «ماذا لو كان الثمن غالياً علي؟»، «وهل هناك ما هو أغلى من حياة ابنك؟»، «نعم، حياة بقية عائلتي، ومثلك زوجي، وحرية شعبي»، «ما أريده أهم من ذلك كله،

وإن كان عليك أهون بكثير. لكن ليس الآن الوقت المناسب».

اضطربت الملكة. من ناحية هي تتوق للاستسلام تحت قدمي تلك المرأة ومنحها زمام حياتها لتقودها كما شاءت، ومن أخرى يراودها من بعيد قلق دفين، قلق مكتوم وكأنه كُهم وقيد وأمر بالصمت، يحذرها من استقبال الغريبة في بيتها. لكن رغبة الأم في شفاء ابنها والشعور الغريب بالانسحاق أمامها كانا أعلى وأقوى من أي قلق.

«لك ما تريدن».

٣

بلغ الملكة الاستنكار المتداول همساً على ألسنة العاملين بالقصر تجاه المربية الجديدة غريبة الأطوار، الراضية بإيلاء لمعايير الهيئة والنظافة التي على كل العاملين في القصر الالتزام بها، متعلقة بنذر مبهم أنها لن تتجمل إلا لزوجها من دون مزيد من التوضيح. ولم تتوقف غرابة أطوار المربية عند ذلك، بل تجلت أكثر في طقوسها الغريبة اليومية. إذ إن المربية، بعدما تختفي عن الأنظار طيلة النهار، تخرج ليلاً، وتأخذ رضيع الملكة -المبهم بدوره والذي لم يسمع به أحد من قبل ظهور المربية- وتختفي به في قاعة بعينها من القصر، اختارتها بنفسها، وتحكم غلق الأبواب كي لا يقاطعها مقاطع ولا يعترضها معترض، ما يلتزم به الجميع بناءً على أوامر الملكة بعدم التعرض للمربية الجديدة بأي شكل ممكن. ثم تبدأ فقرة الأصوات المخيفة، إذ يبلغ مسامع كل من في القصر صدى مزيج من عويل النساء وبكاء الأطفال وتغريد الطيور المتصاعد من القاعة المغلقة.

بلغ كل ذلك مسامع الملكة، لكنها مع ذلك لم تفصح عن سر حمايتها للمربية ومنحها تلك الخطوة النادرة، لم تفصح حتى للملك الحائر لكن المتقبل والواثق في حكمة زوجته. صحيح أنها تتحرق شوقاً لمعرفة ما يحدث لابنها في الداخل، وتموت رعباً كلما تخيلت ما يُفعل به، لكنها تدعن على مضض للغريبة التي أخبرتها مراراً بأن أي محاولة لكسر عزلتها أو التجسس عليها ستفضي إلى عواقب وخيمة، لا سيما وأن أن رضيعها يتحسن أمام عينيها يوماً بعد يوم، وهي لا تريد أكثر من ذلك، أليس كذلك؟

لكننا نعلم بالطبع إلى أين تؤول الحكايات التي يُنصح فيها البشر بتوخي الحذر وتجنب الفضول، وإلا لن يكون ثمة داعٍ لحكي الحكاية في الأصل.

هكذا، وذات يوم بعد مرور عدة أسابيع على مجيء المربية الجديدة، غلب الملكة فضولها وقلقها، واختبأت خلف ستار في ركن مظلم بالقاعة، يسمح لها باختلاس النظر من دون أن يلحظها أحد، وانتظرت مجيء الساحرة.

٤

لما حلَّ الليل، دخلت المربية القاعة تحمل الرضيع لصق صدرها. راقبتها الملكة تداعبه قليلاً بابتسامة حانية، قبل أن تضعه برفق على مهد من قش في أحد الأركان. ثم وضعت الملكة يدها على فمها بقوة كي تكتم شهقة عالية، عندما تحولت المربية فجأة إلى طائر، إلى سنونوة سوداء

صغيرة، أخذت تحلق حول القاعة عدة مرات في دورات واسعة وتزقزق بصوت بديع، ثم أخذت الدورات تضيق رويدًا رويدًا، ما سمح للملكة برؤية مركز الدوران: العمود الخشبي في منتصف القاعة، ذلك الذي كان شجرة جلبها زوجها في إحدى نزواته وأصر على تنصيبها هنا.

بالتدريج تحولت الزقزقة إلى ما يشبه العويل، عويل امرأة لا طائر، عويل من فقد عزيزًا. حطت السنونوة لحظات على غصن بارز من الشجرة العمود، تمسح رأسها فيه وتتابع العويل، ثم طارت عائدة إلى المهد القشي. وقفت فوق الرضيع في الهواء ترفرف بقوة، ثم تحول عندئذ رأس السنونوة وحده إلى رأس المربية، الساحرة، بينما احتفظت ببقية جسد الطائر. ومن فم الساحرة ترددت همهمة ممزوجة بالزقزقة، أصوات مبهمّة لا يمكن تمييز إن كانت بشرية أو طيورانية إن جاز التعبير. بعد وهلة، اشتعل القش، قامت نار مهيبّة من العدم وأخذت تستعر حول الطفل ومهده، وامتزج بكاء الطفل بصوت السنونوة الذي ما انفك يعلو.

هنا، لم تملك الملكة نفسها، وكيف تلتزم أم بالصمت والهدوء وابنها الرضيع يحترق أمامها؟ مرقت خارجة من مخبئها، وانقضت على النار المشتعلة من دون أن تأبه بما يحترق من ملابسها وجسدها، وانتزعت ابنها. ركضت به نحو الباب وفتحته من الداخل، وهي تصرخ طالبة المساعدة والنجدة من كل من في القصر.

أما المربية، إيزة، فقد استعادت هيئتها الأصلية، وهتفت في الملكة: «أيتها الحمقاء، توقفي».

لكنها لم تتوقف، تابعت الهروب، وأمرت الحراس بالدخول وقتل الساحرة، وظلت تركض حتى بلغت أقصى طرف القصر البعيد، حيث توقفت لالتقاط أنفاسها.

«يا لك من غبية!».

صرخت الملكة لما وجدت الساحرة أمامها وكأنها كانت هنا من البداية، «ألم أمرك بعدم التدخل؟»، «أيتها اللعينة، كنت تحرقين ابني»، «انظري في ابنك، هل تجددين فيه أثرًا لحرق؟»، عندها نظرت الملكة إلى الرضيع الذي دفتته في حضنها لأول مرة، لتجد أنه بخير حال، لولا معاناته كي يتنفس بعدما كادت تكتم نفسه بحمايتها المفرطة. تابعت إيزة: «كنت أحرق الجزء الفاني من روح ابنك، كنت سأجعله خالداً، إلهًا، لكنك أضعت عليه الفرصة».

«ماذا؟ أنا أسفة، أسفة، خذيه، امنحي ابني الخلود».

«فات الأوان. لحسن حظك أنه برأ بالفعل من مرضه، وإلا لكنتِ قضيتِ على فرصته في الحياة البشرية العادية أيضًا. الآن، أريد ما هولي».

وهنا ظهر الخدم والحرس استجابةً لصراخ الملكة، شاهرين السيوف والرماح، لكن الأسلحة كلها تلاشت من بين أياديهم ووجدوا أنفسهم يقبضون على الهواء. هتفت الملكة: «اتركوها، اتركوها. لك ما تريدين، كل ما تريدين، لكن أرجوك ارحلي واتركي أهلي سالمين».

بعدها انهارت الملكة وأعلنت حقيقة ما أخفته، كلف الملك ابنه الأكبر ولي عهد المملكة بالإشراف بنفسه على استخلاص التابوت من جذع الشجرة، إظهارًا للشكر والعرفان للساحرة الأجنبية، واتقاء لشرها.

شعر الأمير الشاب بالفخر لتكليفه بمهمة جليلة كهذه. وعندما تم استخلاص التابوت جعل خدمه يرفعونه، ومشى يتقدمهم فيما يشبه جنازة مصغرة إلى جناح الضيوف الرئيسي بالقصر الذي صار محل إقامة الساحرة الأجنبية، وأمرهم بإنزاله أمامها وهو يردد عبارات التعزية الملائمة.

أما إيزة، فانحنت على التابوت الأبنوسي بوقار مصطنع، يداري فيض المشاعر الجارف بداخلها، وبدأت تلفه بالكتان وتغمره بالعطور والبخور. لكن هدوءها لم يدم طويلًا، إذ ما إن فتحت غطاءه، ووجدت جثة زوجها سليمة متماسكة لم يصبها ضرر، حتى انفجرت في نحيب عالٍ، وارتمت على التابوت تلطم وتبكي وتشقّ الملابس وتشد الشعر. ظلت تبكي فقيدها وقتًا طال أمام أعين الأمير وحاشيته، حتى شعر أن اللياقة تحتم عليه التدخل لتطيب خاطرها بشكل ما، فغالب توتره وتجراً ودنا منها، انحنى وربت على كتفها، وقال برفق: «كفالكِ يا سيدتي».

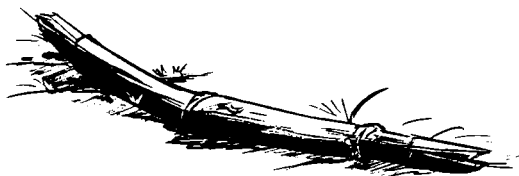
ذلك لأنه من قوم عاشوا بمعزل عن الآلهة، لا يعرفون أنك لا يجب أن تتدخل، أبدًا بتاتًا قطعًا، في شؤون الآلهة الخاصة.

فوجئت إيزة بقول الأمير ولمسته، فاستدارت غريزيًا بشراسة قط مذعور، شراسة ورثتها عن عماتها حوت-حرو التي صارت سخمت. لم تزد إيزة عن النظر إليه، لكن نظرة الربة بكل ما تحمله من مشاعر وقوى متضاربة، على تلك المسافة القريبة، كانت أكثر من كافية لتفر روح الأمير من جسده بغير رجعة.

صُعب الجميع وأولهم إيزة لما خر الشاب ميتًا. لم ترغب أبدًا في التسبب بأذى لأحد، خطتها بمنح أحد أبناء الملكة الخلود مقابل مرادها انتهت بسلب حياة ابن آخر.

لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها بعد ذلك، حتى الملك أمر الجميع بالابتعاد عن طريقها حتى تغادر المملكة. أحست برعب الجميع منها وكراهيته العميقة لها، وكم آلمها ذلك.

حملت صندوق زوجها بنفسها، غادرت القصر واتجهت إلى الشاطئ حيث تنتظرها السفينة، وعلى منها ابن شقيقته الوفي. وأبحرت السفينة من فورها.



لملحة أشلاء العريس

١

بعد رحلة عودة حزينة تراوحت بين الصمت والنواح والرياح،
بلغت السفينة بحمولتها المقدسة أرض كيميت.

حاولت إيزة أن تنفض عن نفسها الحزن والندم على ما أصابت به
الأمير الشاب، قالت لنفسها إنها حادثة غير مقصودة ولا يجب أن تعطلها
عن خطتها لاستعادة الحق الكوني. بيد أن تلك الحادثة تركت في حلقها
غصة مريرة، جعلت المضي قدمًا في خطتها ثقیلاً على نفسها، فعمدت
إلى تأجيل التنفيذ، وشغلت نفسها بالخروج للبحث عن أختها. هكذا
أخفت بمعونة إنبو -الذي صار الآن شابًا قويًا مكتمل النمو، من دون
أن يتخلى عن رأس ابن آوى ويتخذ غيره ولو للحظة- تابوت أوزير
في كهف خفي عن الأنظار، قررت أن هذا كافٍ لحمايته من الأخطار،
ومضيا معًا يبحثان بين قرى البشر عن حوت-نبت.

لم يطل بحثهما هذه المرة. بفضل سحر إيزة وأنف إنبو وجداها سريعاً بعد عدة أيام، متكورة حول نفسها في حقل قمح قرب النهر العظيم، سقيمة الجسد والروح والعقل، ومن الجلي أنها لم تتحرك البتة منذ أمد بعيد. لولا حصانتها الإلهية لأمت جثة هامة أو هدية للوحوش. ذنب إيزة الحديث تجاه أمير جُبلا امتزج بالشفقة التي شعرت بها نحو أختها، فغلبا ضغينتها تجاهها، واحتضنت جسدها السقيم، وجعلت تمسدها بالزيوت وترقيها بالتعاونيد الشافية.

استغرق شفاء حوت-نبت عدة ليالٍ، ولما استفاقت، ورأت إيزة وإنبو، تذكرت كل شيء، وانفجرت في البكاء والصراخ، وكادت تنهار مجدداً وتعود إلى ما كانت عليه، لولا أن إيزة أعلنت بحسم عن غفرانها لحوت-نبت، حسبها ما شهدته من عذاب، لكن عليها الآن أن تنهض وتشد من نفسها، فأختها بحاجة إلى مساندتها في مسعاها، «هل أستطيع الاعتماد عليك؟». هكذا مسحت حوت-نبت دموعها ونهضت.

خلال طريق عودة الرفقة الثلاثية إلى جثمان الإله المقتول، أفصحت إيزة أخيراً لأختها وابنها عن خطتها لاستعادة الشرعية، واتسعت أعينها ذهولاً مما سمعاه. «حتى وأنا أحوز من السحر ما لم يسبق لكائن أو إله غير أتوم-رع، لا زلت أخشى فعل ذلك، إن هذا مسلك لم يسلكه غيري من قبل، ولست متأكدة إن كان ممكناً... أنا بحاجة إلى وجودكما جوارى». على الرغم من غرابة وجنون الخطة، أعربت حوت-نبت وإنبو صدقاً عن مساندتهما الكاملة لمسعى إيزة. إذ على الرغم من إضمارها لبعض الحسد لإيزة، باتت مقتنعة أنها حتى لو اجتمعت لديها

قوة إيزة لن تستطيع أبدًا أن تكون بمثل ذكائها وقوة إرادتها، وإنها لو تريد أن تصلح ما أفسدته فعليها أن تقنع بدور الشقيقة الداعمة.

عندما اقتربوا من وجهتهم، اختلت إيزة بنفسها. خلعت عباءة الحداد المهترئة بعد كل تلك الشهور، واغتسلت في مياه حابي منزهة نفسها من كل الأوساخ التي علقت بها من طول الترحال، وما اقترفته من آثام في سبيل الغاية الأسمى، بدءًا من تهديد الوجود وسرقة رب الأرباب وحتى القتل غير المتعمد لأمرير جُبلًا. اصطنعت من نبات الكتان عباءة بيضاء جديدة، وضعتها على جسدها الذي بات نظيفًا نصرًا شهيدًا وكأنه خُلِقَ لتوه. حوت-نبت، لما رأت إيزة بعد عودتها، لم تملك نفسها من أن تنهض وتضفر لها شعرها وتزينها، وهي تردد أهازيج الزفاف المخلوطة بالدموع.

صارت إيزة الآن، بشكل ما، عروسًا.

عدا أن الفرحة لم تكتمل، فعندما بلغوا الكهف المنشود، وجدوا غطاء التابوت ملقى جانبًا، ولا أثر لجثمان العريس.

٢

ليست لدى ست قدرة إيزة السحرية على الاستبصار، ولا مهارتها الذهنية في الاستنباط والاستدلال، لكنه يملك غريزة الوحوش الأولية التي تستشعر الخطر والفرائس، يملك حاسة سادسة إن جاز التعبير. ومثل كل الوحوش المفترسة، لا يضيع وقته في التفكير، وإن أنبأته غريزته بشيء فهو فاعله.

وهذا بالضبط ما حدث ذات ليلة، فيما كانت إيزة وإنبو لا يزالان يبحثان عن حوت-نبت، وكان ملك البلاد بالغضب ورب الرياح والصحراء في رحلة صيد ليلية كما يفضل، شعر فجأة بدافع غريزي للاقترب من أحد الكهوف التي مر ناحيتها بالمصادفة، وكلما اقترب أكثر تعاظم قلقه وإحساسه بأن ثمة مؤامرة تُحاك ضده وخطرًا هائلًا يتربصه. كان الكهف غائرًا لا يبلغه نور خنسو، لكن حتى الظلام لا يعيق ست، بل مضى بثقة معتمدًا على صوت غريزته وأنفه ويديه. ولما لمس عرقه، وكيف لا يعرفه؟ فهو من أشرف على صناعة هذا التابوت بنفسه.

حينما رفع الغطاء الثقيل، ولمست يده جثة شقيقه، ثارت نائثرته وصرخ راعدًا. أخرج الجثمان من الصندوق، ألقاه على كتفه وركض في الخلاء، يصيح بجنون متوعدًا كل من ينوي له سوءًا، ويسب ويلعن كل من في الكون، من الذي استمناه إلى أدنى حشرة فيه، هذا وهو يمزق جثة شقيقه أشلاء بيديه العاريتين، ويلقي كل منها حوله وهو يركض في شتى أرجاء كيميت، حتى بلغت حصيلة أشلاء أوزير اثنتين وأربعين شلواء، كل منها في أحد أقاليم القطر بعيدًا عن البقية. رحلة التمزيق المريعة هذه أعادت لست الرضا عن نفسه، فمضى متبخرًا إلى جبال الشرق ليستقل سفينة عمله الصباحي، وهو يشعر أنه قد أنقذ نفسه من خطر كبير قريب.

آخر ما أدركته إيزة بالاستبصار السحري من كل هذا كان الجزء الذي حمل فيه ست جثة أوزير وخرج من الكهف، أما ما فعله بالجثة بعدها فظل غائبًا عنها. راحت زينة العروس وسط الدموع وشق الملابس

وشد الشعر واللطم وإهالة طين وتراب الأرض فوق الرؤوس، والعويل الذي انخرطت فيه الشقيقتان على غياب جثة الراحل. مع أن إنبو شهد بكائيات إيزة على أوزير من قبل في السفينة، إلا أن اتحاد الشقيقتين في البكاء كان وكأن كلاً منهما تحفز طاقة هائلة في أعماق الأخرى على الخروج، بكائياتهما المشتركة أثارت في قلبه الرهبة والروع^(٤٣).

ثم بعد عدة ساعات، وقد تمددتا على الأرض فاقدتي الوعي من فرط الإنهاك، نهضت إيزة متثاقلة، وأخذت تهزُّ جسد حوت-نبت وتحثُّها على النهوض.

«هيا»، «إلى أين؟»، «لنسترجع جثمان أوزير، أحسبتما أننا سنستسلم أم ماذا؟».

٣

هذه المرة، كانت رحلة البحث الأثقل وطأة على إيزة.

كانت قد حسبت أنها انتهت من مرحلة اللف والدوران بعدما وجدت رفيقيها والجثمان وستمضي قدماً، أخيراً، للمرحلة التالية الأهم، فقط لتكتشف حالما بدأت بحثها أن ست مزقه وبعثر أشلاءه، وعليها أن تتبّع أشلاء زوجها في كل مكان. لم تكن تعلم أنه قُطّع إلى اثنين وأربعين

(٤٣) بكائيات الشقيقتين وطريقتهما في النواح على أوزير الراحل ستظل باقية في هذه البلاد بين البشر، ولا يزال صدى أفعالهن القديمة يتردد بين نساء عالمنا المعاصر، خاصة في قرى صعيد مصر، في طرق الحداد على الراحلين وأغاني الندابات وأشعار «العديد».

شلوًا، وأنها نُثرت على الأقطار الاثني والأربعين، فتعين عليها البحث مرة أخرى في كل شبر من الأرض والنهر عما لا تعرف مدى تشنته. حتى السحر وأنف إنبو ارتبكا أمام هذا التشنت غير المسبوق. لكنها، بإرادة حديدية، تابعت البحث.

غير أن حتى الإرادة الحديدية وسحر رب الأرباب المسلوب لا يكفیان في بعض الأحيان، فبعدما تمكنت إيزة من إيجاد ٤١ قطعة من أشلاء أوزير المبعثرة بعد شهور طويلة، وجمعتها معًا بمعونة إنبو، الذي أظهر مهارة فطرية في التعامل مع الجثث أذهلت أمه وخالته، اكتشفت أنه لا تزال هناك قطعة ناقصة، القطعة الأهم للأسف في هذا السياق، ليست رئة ولا بنكرياسًا، بل عضو الذكورة.

بحثها عن القطعة الحميمة الأخيرة قادها إلى النهر، إلى النهر بأكمله، وهو ما استغربته جدًا، حتى محاولاتها للاستبصار كانت تعود بصور ضبابية غائمة، لكنها ظلت تذرع النهر ذهابًا وإيابًا مع معيتها في قارب من البردي يحمل جثمان الراحل ملفوفًا بالكتان - كنا لنقول ملفوفًا كالمومياء، لكنه في الواقع كان مومياء حقًا، أول مومياء، عدا أنهم لم يعرفوا ذلك بعد - لفًا تامًا إلا في مكان العضو الناقص، مثل مقبس فارغ. وأخيرًا، لما بلغت البقعة التي ألقى فيها ست عضو أخيه في النهر، نجحت محاولتها في استبصار ما حدث لقطعة الأحجية الأخيرة: لقد تناوبت أسماك حابي على تناول الوليمة الإلهية.

مع أن ذلك كان من سوء حظ إيزة، فقد كان من حسن حظ وادي النهر وسكانه. عضو أوزير المُلْتهم سيكون سبب خصوبة ماء هذا النهر،

وسيفيض حابي بسببه كل عام، شهر مسرى^(٤٤)، وستغمر مياه النهر الأراضي الزراعية كلها، وتغطيها بالظمي الخصب القادم من المحيط السرمدي، وبعد انحسار الفيضان سيتمكن البشر من الزراعة في تربة هي الأخصب في الكون، وسيعيشون في وفرة من حصة الأرض بفضل خصوبة أوزير، أو بالأحرى خصوبة عضوه.

سيظل الملك يمنح الأرض الحياة حيًا وميتًا، كاملاً وممزقًا.
سيظل يخصب كل ما يمسه، إلا إيزة.

انفجرت إيزة غضبًا، وأخذت تسب وتلعن زوجها الراحل الذي حتى في موته ضنَّ عليها ببذور الحياة التي ينتفع منها كل من في الكون من دونها، عمدت حوت-نبت للاختفاء عن ناظرها في تلك اللحظة، وكان ذلك من قبيل الحكمة. هتفت إيزة في ذروة حنقها: «ستكتمل خطتي بأي شكل ممكن، وستقوم بدورك يا أوزير ولو يعود قصب».

ثم، ولدهشة حوت-نبت وإنبو اللذين كانا يراقبان على مبعدة، توقفت إيزة فجأة بعدما قالت، والتمعت عيناها. ثم هرعت وترجلت عن القارب، واختفت في خضار الحقول المحاذية لضفته. وبعد دقائق عادت وهي تحمل... عود قصب قصيرًا أجوف. وأمام أعينها الذاهلة، دست عود القصب في مقبس العضو المفقود.

يحذر شديد، سألتها حوت-نبت: «هل أنت متأكدة أن هذا سينجح؟»، «لست متأكدة من أي شيء، لكن طفح كيلى، ولن أصبر

(٤٤) الذي يوافق شهر أغسطس في النظام المعروف الآن، وهو الشهر الأخير في التقويم المصري القديم.

على هذا الهم أكثر من ذلك». احتفظت حوت-نبت بتعليقاتها لنفسها، وذهبت لتساعد أختها في الاغتسال والتزين والتصفير، باحتفال أقل وتعجل وتوتر هذه المرة. ولما انتهتا، ساعدهما إنبو على نقل الجثة إلى مساحة خاوية على ضفة النهر، وهناك بدأت إيزة في إقامة طقوسها.

لا علم لنا بباهية تلك الطقوس، فقد ذكرتها السجلات باقتضاب، نعلم فقط نتيجتها: استطاعت إيزة رد أوزير إلى الحياة، عدا أنها ليست حياة كاملة، وإنما حياة وظيفية محدودة، مرهونة بمهمة واحدة عليه أن يؤديها بأي شكل -ولو بعود قصب- ويعود إلى الموت.

فوق جسد أوزير، الملفوف بالكتان من رأسه إلى أخمص قدميه، لا يظهر ولا يبرز منه إلا عود قصب مسكين يقوم بدور لم يُخلق له، حلقت إيزة بهيئة جسد السنونو والرأس العادية، ثم حطت عليه، واجتمعت به كما يجتمع النساء بالرجال، في حضرة حوت-نبت وإنبو، اللذين ربما كان حضورهما للدعم الفني المرتجل بحسب ما تتطلب مستجدات الواقعة التي ليس لوقعتها سابقة، أو للدعم المعنوي بالتشجيع والإرشادات التي تساعد الربة السنونوة والإله ذو العود على الأداء بأفضل وجه، أيًا كان هذا الوجه.

واكتمل -بشكل ما- اللقاء.

تم لإيزة ما أرادت، وشعرت على الفور بما بدأ يتكون في أحشائها. وعاد أوزير إلى الموت.

ربما ترى قراءة أخرى في هذا المشهد استغلالاً لأوزير أقل ما يقال عنه أنه غير محمود، وترمي إيزة بتهم استغلال السلطة والقوة للحصول على مآرب جنسية، وبقائمة مطولة من الاضطرابات على رأسها النيكروفيليا. لكن بحسب مقاييس الكون وسجلات التاريخ، فتلك كانت أهم لحظات تاريخ آلهة المصريين، ربما لا توازيها أهمية إلا لحظة خلق أتوم للحياة الأولية. وأوزير نفسه لم يعترض، إذ إنه -بالإضافة إلى ولع الذكور العادي بفعلها حتى ولو جثة هامدة- رغم موته الثاني والنهائي بعد ذروته الأخيرة، بات على وشك الترقى إلى مكانة ليس لها مثيل في الهرمية الكونية، قد توازي مكانة رب الأرباب نفسه، وذلك بفضل تلك الموقعة ومجمل مجهودات عروسه/ أرملة، التي عادت إلى هيئتها الطبيعية بعدما تمت العملية، ووقفت على ضفة النهر لا يزال سائل الحياة -المُسَكَّر- يقطر منها، وقفت تحت معندجت التي كانت في ذروة السماء، ونادت:

«فلتشهد أُمِّي السماء، وليشهد أبي الأرض، ولتشهد يا جدي، يا أبا الآلهة يا رب الأرباب يا صاحب قرص الشمس، اشهدوا أن في رحمي إلهًا ابن إله، الوريث الشرعي للملك أوزير وجب وشو، ولئن لم يعد له الغاصب مُلكه المسلوب ويضع نفسه تحت تصرف الملك ورحمته، ليستعيدن ابني الملك بالقوة والحيلة، وليقتصن لأبيه خير القصاص».

تردد قول إيزة في الكون كله، سمعه الخالق وكل مخلوق. عم الصمت من جلاله ما قيل وخطورته، حتى معندجت توقفت في قلب السماء، ومن فوقها نادى رع العظيم بنفسه (في إحدى اللحظات النادرة التي اكرث فيها لشأن غير شمسه ورحلتها): «ويحك يا ابنة نوت، إن أوزير قد مات، كيف تعلمين أن ما في رححك ابن له؟ وأنه إله حقيقي ووريث لملك الآلهة؟».

فجاءه الرد من الأرض: «إنني أنا إيزة، أوسع الآلهة حيلة وأطهرهم قلباً، إن من في رحمي هو حرو ابن أوزير ابن جب ابن شو ابن أتوم-رع الذي خلق نفسه بنفسه، وإنك لقادر على أن تتحرى ذلك بنفسك يا جدي لو شئت. لو تراني كاذبة، قلها أمام الجميع».

توجهت أنظار الآلهة والخلق إلى صاحب قرص الشمس، في انتظار تكذيبه لهذا الادعاء الهائل. لكنه بعد لحظة من التمهل الصامت، أشار للسفينة بمتابعة المسير من دون أن ينطق بحرف. تابعت الشمس طريقها، تاركة قول إيزة يرفرف فوق رؤوس الجميع بغير تحدّ.

قبلت الآلهة كلها بالحقيقة الجديدة، إلا واحد. قفز ست من على معندجت، وهبط على الأرض مثل نيزك، أمام إيزة مباشرة. احتضن إنبو أمه كي يحميها من أذى تنبأ بحدوثه، وهم أن يفعل المثل لإيزة، لكنها أشارت له بيد حازمة أن يدعها. فراجع الإله الشاب وأمّه إلى الخلف، وراقبا رب العواصف يهب كإعصار ويتناثر من ثغره اللعاب: «إن من في رححك نغل غير شرعي، إنه ابن لألف أب».

لكنها تلقت ثورته بوقفة راسخة وعين مطمئنة، استمعت لاتهماته وسبابه وبذاءة قوله. لم تتكلم إلا لما أفرغ حمولته الكلامية كلها، عندها قالت بشيء من العطف: «بل هو ابن أوزير يا أخي، وسيكون له الملك...». هدر ست مقاطعًا، لكنها أشارت بيدها فانطبق فاهه منغلِقًا بقوة سحرها، وتابعت: «...لقد قتلت زوجي واغتصبت عرشه وعرش ابني، لكنني لا زلت على استعداد لأن أعفر لك. عرفت ما حدث، وأتفهم، وأستطيع أن أسامحك حتى على سوء قولك وأتركك تنعم في مُلكك للصحراء والرياح بسلام، فقط لو رددت المُلك لصاحبه واعترفت بجرمك وندمت وتراجعت».

أطلقت سراح لسانه، لكنه لم يرد، وإنما رفع يده وهمَّ بلطمها. نظرت إبرة إلى عينه مباشرة من دون أن يطرف لها جفن. قطعت يده الهواء كما السيف، ثم توقفت قبل أن تمسّها، وظلت عالقة لثوانٍ وكأنها كُبلت بأغلال خفية. اشتعلت عينا ست نازًا، ندت عنه صرخة حانقة، ثم ذهب مغاضبًا، عاد إلى معندجت كي ينفث غضبه في عابب كعاداته. انسلت حوت-نبت من بين ذراعي ابنها، ركضت إلى إبرة وعانقتها، «أحسن صناعًا بحماية نفسك منه بالسحر»، «لم أفعل»، «ماذا؟».

انسلت من بين يدي أختها برفق، «إن ست لم يكن ليؤذيني قط... لكنه لن يكفّ أذاه عن ابني عندما يُولد، لكن لندع هذا إلى وقته»، ومضت بتؤدة صوب جثة أوزير، تحسست رأسه برفق، وقالت: «ماذا سنفعل الآن بجسد الحبيب؟».



التخلص من البتة على أكمل وجه

١

والآن، بعدما قضت وطرها منه وقضى هو نحبه، بات ما يؤرق إيزة
- إلى جوار آلام الحمل، الذي رغم ظروف إخصابه الفريدة كان حملاً
شديد العادية- هو ماذا سيكون مصير زوجها؟

منذ أن خلق أتوم الكون من صلبه، كان موت المخلوقات والآلهة
تلاشيًا عن الوجود. تنفصل الروح عن الجسد بالموت، وتهيم في العالم
بهينة طائر غير مرئي، وتبقى كذلك حتى يتحلل الجسد ويفنى، فتفنى
الروح بدورها، ولا يعود بعدها أي أثر للراحل في العالم. ظل الموت
مساحة غير مطروقة من الخلق، لم يمنحها رب الأرباب نصيبًا من
التفكير، وإن فكر فيها ينصب تركيزه على منع الموت والهلاك، على الأقل
منع موته وهلاك الحياة بوجه عام. لكن إيزة لا ترغب في هذا لزوجها،

أو هي للدقة لا تأبه بما يحدث لزوجها بعد كل ما صار منه، لكن ابنها الملك القادم يجب أن تتضمن سيرته الذاتية مكانة ملحمة لأبيه. ربما لو كان اختتم عهده بالصعود إلى السماء مثل سلفيه لرضيت بهذا، لكن أن يتلاشى بهذا الشكل المهين مثل الفنانين! هذا لا يليق بالملك الجديد.

لن تقبل بتحلل الجسد ولا ضياع الروح ولا زوال الملك، تحتاج إلى وسيلة تمنحه جسداً دائماً وروحاً خالدة وملكاً أعظم مما فقدته. إنها لا تستطيع جمع الروح بالجسد مرة أخرى، ليس بشكل دائم، لكن الحفاظ على الجسد، على الأقل، لا يبدو هدفاً بعيد المنال، ولديها بالفعل من تتوسم فيه لأجل هذه المهمة خيراً.

لما باحت إيزة إلى ابن أختها إنبو بما يحول في خاطرها، شرع في العمل على الفور، وأبدى مهارة فطرية في التعامل مع جثمان أوزير وكأنه أمر تدرب عليه آلاف المرات من قبل. جلب جثة أوزير المخيطة، شقها بعناية، واستهل العملية باستخراج الأمعاء من الجثة باحترافية باردة ودقة تقنية، بل وبشغف جعلها تجفل منه، لكنه طمأنها إلى أنه يعرف ما الذي يفعله.

جرى العمل في الليل، خلصة، بعيداً عن عين الشمس الكاشفة وأعين المتلصصين المتجسسة، أما القمر، خنسو، فهو موظف فاسد تسهل رشوته، بل ظهوره في الواقع ذكر إيزة بصديق غائب لعل وقت عودته قد حان.

جاء ذات ليلة، استجابة لرسالة دسّتها إيزة في يد خنسو، مرؤوسه، تطلب منه المجيء. جاء دحوتي برأس أبي منجل وذعر فأر، متلفتاً حوله

كمن يخشى التلبس في وضع مخل. «عاش من شافك يا حضرة الوزير». انتفض دحوتي إثر ترحيب إيزة الساخر الذي لم يخلُ من ود وعتاب. «هل أنت متأكدة أن ست لا يراقب المكان؟».

«لا أحد يعرف بما يجري ولا بمكاننا سوى موظفك المخلص، وما دام مفعول الرشوة لا يزال يسري في دمه، فأظن أننا بأمان... وسأعمل على تجديد الدواء في ميعاده».

رويدًا رويدًا، بدأ ذعره يتحول إلى فضول، لما رأى ما يفعله إنبو بجثمان أوزير، وأدركت إيزة أنها أصابت هدفها.

«هل لي أن أسأل ما الذي تفعلونه بالضبط؟»، «إن أخبرتك، ما الذي يضمن لي أنك لن تذهب وتخبر ست بكل شيء؟»، «لماذا إذن طلبتني ما دمت لا تثقين بي؟»، «هذه نصف مخاطرة فقط، أنت لا تعلم الخطة، فلو ذهبت لإخبار ست سيتسنى لنا وقت كافٍ للهرب، أما لو أخبرتك ونقلت له الخطة فتلك مصيبة».

«أي خطة؟ دعيني أفكر... ابن آوى هذا لا يلعب في أمعاء أبيه كي يتغذى عليها، ما كنت لتسمحي له بذلك، وهو يبدو خبيرًا بما يفعل بشكل ما»، رفع منقاره عاليًا وتشمم، «تلك الزيوت التي يستخدمها، أعرفها، إنها... أهو يحاول الحفاظ على الجثة من التحلل؟ لماذا تحافظين على جثة أوزير؟».

التمعت عيناه، ولم تملك إيزة منع ابتسامتها. «يبدو أنني مضطرة لقتلك يا وزير العزيز كي لا تهرب بالسر»، «وزيرك السابق يا إيزة، السابق، أنا الآن وزير رب الأرباب ووزير ست ملك العالم بحكم

الوضع القائم»، «أيصح أن يكون وزير رب الأرباب وملك العالم مع حفنة من المتمردين ليلًا؟»، «لو بغرض التجسس، يصح، فعلتها سابقًا، قبل أن تولدي، وسأفعلها ثانيًا لو تطلب الأمر».

تنهدت إيزة، «كفى مهاترة يا دحوتي، أحتاجك معي»، «لا يمكن أن أخون...»، «تخون من؟ رع؟ لقد خنته مسبقًا لما يسرت أمر ولادتنا رغمًا عنه، وأنت تعلم أنه لا يهتم بما يجري هنا. أم تخون ست؟ وهو الخائن بالفعل؟»، «ليس لي شأن بمن خان من، أنا فقط أؤدي وظيفتي ولا شأن لي...»، «لا تدعي اللامبالاة، أنت أكثر كائنات هذا العالم شوقًا لتحريك المياه الراكدة، ولو ساد السلام العالم يومًا ستكون أول من يقلقه كي تستمتع بالمشاهدة وإرضاء فضولك. أنا أعرفك جيدًا يا دحوتي، يا وزيري السابق... يا وزير ابني المستقبلي».

سكت، بدا أنه يفكر في عرضها غير المباشر، لم يرد، وإنما مشى الهوينا نحو إنبو، مال بمنقاره في تجويف معدة أوزير حتى كاد يخترقه، تشمم، تحسس، همس لنفسه: «عبقري، مبهر»، ثم سأل إنبو برفق: «ماذا ستفعل بالجثمان بعدما تنتهي؟».

نظر إنبو إلى إيزة نظرة من نوع «هل أرد عليه أم أكسر عنقه؟»، أو مأت له مطمئنة، فرد على دحوتي من دون أن يتخلّى عن حذره: «سأعيده إلى التابوت»، «ثم...؟»، تنهد إنبو، «ثم سندفنه تحت الأرض». «دفن الجثة في صندوق؟ لم أسمع بمن يدفن الموتى من قبل، لكن... لم لا؟ فكرة جيدة، رائع يا فتى»، ثم التفت إلى إيزة، «لا أخطط للموت، لكن لو متُّ، فلتجعليه يفعل هذا في جثتي، فلتجعليه يحنطني»، «يحنطك؟»،

«نعم، قررت الآن أن اسم هذا الأمر كله «تخيط»، أنسيت أن هذا دوري؟»، «سمه ما شئت، أنت لن تغادر هذا المكان حيًّا على أي حال». «مادمت ميتًا في جميع الأحوال، فلتخبريني إذن بما يدور في ذهنك». «أحتاج إلى مكان أحفظ فيه روح أوزير الهائمة مثلها سنحفظ جثمانه»، «دعيتها هيم في العالم، لن يحدث لها شيء ما دام الجثمان آمنًا، لماذا تحتاجين إلى مكان مخصوص؟»، «لإقامة المملكة»، «مملكة؟»، «مملكة الموتى، أنوي جعل أوزير إله الموتى وملك عالم الأرواح». شفق دحوتي.

«أحيانًا لا أستطيع تمييز إن كنت عبقرية أم مجنونة يا إيزة. أنا أفهم العبقرية، ولا أفهم الجنون، وأنت في مكان ما بين الاثنين»، «هذا لأنك عديم الخيال يا دحوتي، لا تفكر إلا فيما هو موجود، ولهذا تتوق دائمًا لمعرفة ما لا يجرؤ عقلك على تخيله»، «طيب، مادمت عديم الخيال، لا داعي لإخبارك بالحل البليد الذي فكرت فيه، الذي لن يلائم عبقريتك الفريدة»، «لا تكن طفلًا وتحدث».

بعد تمنع ظاهري وجيز، قال: «ثمة مكان غامض، خلقه رب الأرباب منذ فترة كي تأوي إليه روحه ليلاً عندما يذبل جسده، ليرتاح. اسمه العالم الآخر، الدوات»، انعقد حاجباها وانحنت ناحيته أكثر، «أين يوجد هذا الدوات؟»، «لا أحد يعرف، تحت الأرض، فوق السماء، في أقصى الغرب، أو داخل نون. إنه في كل تلك الأماكن وليس في أيها في نفس الوقت. أظن أن رع نسيه بعدما خلقه، لم يرد ذكره في أي سجل بعدما دونت الوثائق اللازم لإتمام خلقه أول مرة. تعرفين أن لا شيء

يحدث في هذا العالم من دون علمي»، «لا تمدح نفسك»، «على الأقل لا شيء يفعلُه رب الأرباب من دون علمي».

قلبت إيزة الكلام في رأسها، الفكرة مستساغة، لكن إرسال أوزير إلى هناك لن يكون بالأمر الهين، «ستساعدني على إرسال روحه إلى الدوات»، «لا أريد التورط أكثر من...»، «بل ستتورط يا دحوقي، يكفي أنك هجرتني كل ذلك الوقت واخترت صف القاتل»، «كنت أقوم بعملِي»، «جيد، عملك أن تساعد الملك الشرعي الآن...»، وأشارت إلى بطنها.

«في الواقع... كنت أجهز منذ فترة بضعة طقوس وتعاوِذ للذهاب إلى الدوات بنفسِي لاستكشاف المكان، لكنني بصراحة لست قويًا بما يكفي لفعل ذلك وحدي، يتطلب هذا قوة لا تقل عن قوة رب الأرباب». وغمز لها.

٢

اتفقت حسابات إيزة ودحوقي وإنبو على أن الزمن المطلوب لإتمام عملية التحنيط مع طقوس إرسال روح أوزير إلى الدوات هو سبعون ليلة، وبعدها نقلوا التابوت إلى جزيرة معزولة، لم يدخر الثلاثي جهدًا في عملهم.

كان من المفترض أن يستمر العمل سرًا، لكن، كعادة الأسرار في الحكايات، لم يخل الأمر من لسان يجري به خلصة، وآخر يردد ما

قاله الأول في توتر، وثالث في فضول، ورابع في دهشة، ويختتم الجميع حديثهم بحث السامعين على القسم بأن الخبر سيقف عنده، فهذا سر خطير كما نعلم. وعلى سبيل مزيد من إشباع الفضول، وتقديم واجب العزاء بالمرّة للشقيقتين، تهافت الآلهة، سرًّا بالطبع، على الجزيرة. وجدت إيزة نفسها مضطرة لاستقبال الوافدين وتلقي التعازي، وهي تستعر غيظًا في داخلها وتلقي اللعنات على من أفشى سرها، وشاركها دحوتى الانزعاج والتأمين على الدعاء، مع أن كليهما يعلم من صاحب أكبر منقار ثرثار لا يمتاز بكتم الأسرار.

ومع تعدد الزيارات، ومثلما هي عادة أهل تلك البلاد، بشرًا كانوا أو آلهة، وجد أحدهم في تلك الزيارات فرصة لعمل مصلحة. نمتي، وهو إله ثانوي لم يكن ذا أهمية تستدعي ذكره من قبل، اتخذ قاربًا من البردي، واستقر به على ضفة النهر المقابلة للجزيرة، عارضًا خدمة عبور النهر على الآلهة المتهافتين بأجر رمزي، وأطلق على نفسه لقب «نمتي نُوقيُّ الآلهة».

رد فعل إيزة المبدئي كان الرغبة في طرد ذلك الملاح المرتجل والتوقف عن استقبال الزيارات، لكنها فكرت أنه ما دام السر قد فشا وما عاد من الممكن التراجع عن ذلك، فلعلها تستفيد من الزيارات في تحسين علاقتها وعلاقة ابنها المستقبلي بمجتمع الآلهة، الذين ستحتاجهم حتمًا عندما يحين اليوم المنشود. هكذا كظمت غيظها، واكتفت بوضع قاعدتين صارمتين لنمتي؛ الأولى أنه عليه أن يراعي باستمرار خلو قاربه وخلو ركابه من الديدان، فالدود هو العدو اللدود للجثث، ونحن هنا

نعمل على أقدم جثة في الوجود. لقد عانت إيزة ورفاقها الأمرين في تطهير الجزيرة من كل أثر لتلك الحشرات، ولن تسمح بوجودها مرة أخرى. والثانية أنه عليه منع ست بالذات من القدوم إلى هنا، ولو رآه عليه أن يأتي فوراً لتحذيرهم منه. قبل نمتي القواعد وأكد لإيزة التزامه التام.

مرت أكثر أيام التحنيط وإقامة الطقوس بلا مشاكل، إلا من حوادث تافهة، مثل أن الإله سوبك ابن الربة نيت صاحب رأس التمساح، غلبته الغريزة الحيوانية أثناء زيارة التعزية، وقضم قطعة من الجثة المقدسة، فأجبروه على بصقها وعوقب بقطع لسانه (بسبب تلك الحادثة لا تستطيع التماسيح حتى اليوم تحريك ألسنتها).

ثم حدث ذات يوم، أن جاء رجل عجوز بصحبه جيش صغير من الديدان، وطلب من نمتي أن يعبر به النهر إلى حيث يحنطون أوزير. غير أن نمتي نُوقِيَ الآلهة، وقد تذكر تحذير إيزة الحاسم، رفض بإباء نقل الرجل وديدانه... إلا مقابل رشوة ضخمة من الذهب.

هكذا تمكن ست المتنكر من نقل جيشه الدودي بسهولة. وفي دغل قريب من موقع التحنيط، كمن مع دوده يتابع عن كثب عملية التحنيط، ويبدل مجهوداً هائلاً ليكتم رغبته في الانقضاض على الجثمان وتمزيقه إرباً مثلما فعل من قبل. إن التابوت في العراء، تحت ضوء خنسو، ويحيط به إيزة وحت-نبت ودحوتي-الخائن! لولا حماية رب الأرباب له لمزقه إرباً- وإنبو. مع أنه لا يمانع تمزيق أوصالهم جميعاً، إلا أن الهجوم المباشر لن ينجح على الأرجح؛ هذا اللقيط إنبو يبدو غريباً لا يستهان

به، وستصده إيزة بسحرها، وهو يعلم أنه لن يقدر على مواجهتها مرة أخرى... كم يود قتلها، كم يود م... إيزة اللعينة الحبيبة القذرة الجميلة. لا، ليس هذا وقت التفكير فيها. ظل كامناً، يراقب ويتربص.

٣

تعجب دحوتي لما قال إنبو إنه بحاجة للذهاب كي يبحث عن عشبة بعينها ليحشو بها بطن أوزير، «كيف عرفت أنك بحاجة لهذه العشبة دونًا عن غيرها؟»، هزَّ إنبو كتفيه، «لا أدري، كلما نظرت إلى الجثة، يخطر لي فورًا ماذا ينبغي أن أفعل بها». وغادر من دون أن ينتظر رد دحوتي.

عاد دحوتي لممارسة الطقوس منشغل البال بهذا الإله الغريب، فكر أنه ولا بد سيكون له شأن عظيم في مملكة أبيه الدواتية المرتقبة. ظل منخرطًا في السحر وشاردًا في الفكر، ولم يفق إلا مع صرخة إيزة: «ديدان!».

استفاق دحوتي من شروده، وانضم إلى إيزة وحوت-نبت في التقافز على جمع الديدان الهائل الذي هجم عليهم فجأة من اللامكان يريد جثة أوزير. أقامت إيزة بسحرها نطاقًا واقياً يحيط بالجثمان، وعادت إلى دهس الحشرات المقيتة بالأقدام والأأيادي.

عاد إنبو فجأة، رأى المشهد، انضم لهم داهسًا الديدان، «من أين جاءت تلك الأشياء؟»، «ليس هذا وقت السؤال، ساعدنا الآن

وسنعرف لاحقًا»، «إنهم كثر جدًّا، ولو بلغت واحدة فقط بطن أوزير ووضع بيضها سينهار كل شيء»، «أنا أحمي الجثة بسحري»، «هذا لا يكفي، دعوني آخذه».

وتبع إنبو كلامه بالقفز نحو التابوت، وحمل جثة أوزير بخفة، «سأعود بعدما تنتهون من القضاء على الديدان». وركض حاملاً غنيمة قبل أن يرد عليه أحد.

تابعوا دهس الديدان بكل الطرق. بعد دقائق صدر عن دحوتي صوت غير واضح، أجابته إيزة: «هل قلت شيئًا؟»، «لا شيء، فقط اندهشت قليلًا، فتلك أول مرة ألاحظ النمش على وجه إنبو».

ساد الصمت إثر قوله لثوانٍ. توقفوا عن دهس الديدان.

ثم صرخت إيزة ولطمت وشقت ملابسها.

عاد إنبو الحقيقي بعدما ترامى إلى مسامعه عويل الشقيقتين. لم يفهم في البداية سر نواحهما، فوجه سؤاله إلى دحوتي: «هل مات أوزير مجددًا أم ماذا؟»، لكن أنفه قدم له إجابة أسرع وأوفى مما تلعثم به لسان البابون المرتبك، فانطلق على أربع مُطلقًا نباحًا مهددًا هادرًا أخاف حتى رفاقه.

ست، الذي كاد يبلغ ضفة النهر ويصل بغنيمة إلى قارب نمتي، شعر بأنه مُطارَد، ولما نظر خلفه راعته رؤية إنبو عن قرب. بدا له إنبو كتلة سوداء متأججة من العضلات والمخالب والأنياب جاهزة للانفجار، شعر إله العواصف أنه على وشك مجابهة أول خصم جدير بالمواجهة في حياته، وتذكر كيف كان ذلك الخصم قبل شهور رضيعًا

قييحًا أصغر من كف يده، يختلط بكأؤه بنباحه، كان القشة التي قصمت ظهره وأطلقت جماع كراهيته لأوزير.

ألقى جثة أوزير جانبًا، اتخذ هيئة فهد ضخمة، وزأر عاليًا مهددًا بدوره. قفز الاثنان في اللحظة نفسها وقابل مقلب كل منهما وجه الآخر. اشتبكا في قتال مريع، متكافئ في البداية، ثم شيئًا فشيئًا بدأت كفة إنبو ترجح، ضرباته تصيب وأنيابه تنغرس ومخالبه تشق، فيما زاد عدد ضربات ست التي تذهب سدى. تفوق إنبو كان ساحقًا حتى إنه ترك أثره على الهيئة التي اتخذها ست إلى الأبد. إن البقع التي تزين الفهود المرقطة حتى اليوم، ليست إلا نتيجة لآثار الدماء المتفجرة من جروح ست في ذلك الصراع المرير.

أدرك ست أن هذا القتال لو استمر قد يعود إنبو بجثتين لا بواحدة، فتملص من قبضة غريمه بحركة مفاجئة وقفز نحو جثمان أوزير، ركله فوقع في النهر. وعندما قفز إنبو خلف الجثة لينقذها، استغل ست ذلك وهرب.

٤

تلك لم تكن محاولة ست الوحيدة، فقد حاول أكثر من مرة سرقة وتخريب جثمان أوزير ومنع دفنه، لكن إيزة ورفقتها باتوا جاهزين بعد الهجوم الأول، وتمكنوا من ردع ست وإتمام التحنيط وطقوس الدفن التي أرسلت أوزير إلى مستقره ومستودعه الأخير: الدوات.

أما بالنسبة للدفن، فقد أعلنت إيزة بين الآلهة وأمام العالم كله، أنها قسمت جثة أوزير على أربعة عشر موقع دفن متناثرة في كافة أنحاء كيميت. عدا أنها في الواقع لم تفعل، وما كان إعلانها إلا لإرباك ست وأي محاولة مستقبلية لتخريب جثة أوزير، ودفنت زوجها في قبر سري في مدينة أب-دجو^(٤٥)، مصحوبًا بكل التعاويذ الحامية التي تتكفل بإيقاع كل صنوف العذاب على من أراد بجثمانه شرًا. في المستقبل، بعدما ينتهي الصراع وتلزم الآلهة السماء ويصبح الحكم على الأرض كله للإنسان، سيُعرف موقع دفن أوزير، وسيبنى الملوك معبدًا ضخمًا على قبر الإله^(٤٦)، وسيصبح وجهة للحجاج البشر القادمين لزيارة إله الموتى وملك العالم الآخر.

أما في الدوات، فسيكون لأوزير مملكة وعالم لم يسبق لهما مثيل، سوف يسود على الموتى كما يسود رع على الأحياء، وحتى رع ذاته سيخوض رحلة ليلية دورية هنالك مثلما يخوض رحلته في نوت، وسيخضع لسلطان أوزير خلال مروره حتى ليختلط على غير الخير أمام هذا المشهد من فيهما الخالق ومن المخلوق.

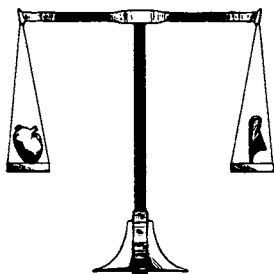
وبما أن حكاية صراع أبناء نوت طالت وتشعبت وتعقدت، وعلى وشك أن تزداد تعقيدًا وغمابة، وبما أن الدوات عالم غني واسع مغرٍ بالاستكشاف، فلندع إيزة في آلام حملها ولنأخذ استراحة وجيزة من دراما الإخوة الأعداء، نخض فيها معًا رحلة في غياهب مملكة أوزير الجديدة، وإن كان هذا سيتطلب منا القيام بقفزة زمنية لعصور مستقبلية

(٤٥) مدينة أبيدوس في غرب محافظة سوهاج حاليًا.

(٤٦) وهو معبد «الأوزيريون» بأبيدوس. عدا أنه ما عاد صالحًا للزيارة بعدما تمكنت منه المياه الجوفية في الأعوام الأخيرة وأغرقت أوزير نفسه. مصادفة؟ أم مؤامرة ستية جديدة؟

بعيدة، عصور حكم البشر، عندما يغدو الإمداد اليومي بالأرواح الوافدة
لا ينقطع، ويصبح الدوات مشغولاً بقاطنيه أكثر من أرض الأحياء.
لنرحل معاً إلى العالم الآخر.

مكتبة
t.me/soramnqraa



الدوات: من القبر إلى الميزان

١

تشيع الإشارة إلى الدوات، ذلك العالم المنسي الواقع من حسابات رب الأرباب، بأنه «العالم السفلي»، وهي تسمية رغم أنها لا تخلو من صحة، لا تخلو أيضًا من تضليل. إذ إن صفة السفلي تقترح أنه تحت الأرض المعروفة، ومع أن العديد من السجلات لا تنفي ذلك، إلا أنها في الوقت عينه تقترح أن هذا العالم في السماء، في جسد نوت الذي يستبيحه الجميع، وفي إمنتت، غرب وادي النهر المقدس، ما نعرفه الآن بالصحراء الغربية، وفي نون، المحيط السرمدى المحيط بالكون. لكن الدوات على الأرجح ليس في أحد تلك الأماكن دونًا عن غيرها، وإنما يكمن بشكل ما حيث تلتقي السماء مع باطن الأرض وصحراء الغرب والمحيط السرمدى، في مكان ما غير فيزيائي أو فوق مادي يشمل كل هذا، مكان آخر، عالم آخر.

مثلما هي حال أيام صاحب الشمس الأولى في السماء، تفتقر السجلات إلى ذكر أيام أوزير الأولى في خواء الدوات. وهذا مؤسف، فعندما نتخيل روح أوزير، بعد كل ما مر به من تقلبات دهرية، وقد وجدت نفسها بفعل قوة سحرية في عالم خاوي غريب، كيف لنا ألا نتساءل كيف كان شعوره؟ وكيف وضع أساسات مملكته؟ كيف دبر إنشاء نظام شديد التعقيد لاستقبال الموتى وحسابهم؟ وكيف استطاع إقامة التحالفات مع العديد من الآلهة للاضطلاع بأدوار متنوعة الأهمية في عالمه بالتوازي مع أدوارهم في عالم النهار المادي؟ وكيف كان تقبل رب الأرباب لتعدي ابن نوت على منتجعه الخاص وتحويله إلى مملكة عظمى توازي مملكته النهارية في الأهمية؟ لا تذكر السجلات أي دور أساسي لإييزة في إدارة عالم الموتى، فهل انتهى دورها بدفن زوجها، وأقام أوزير كل ذلك وحده، مثل رائد أعمال عبقرى شقَّ طريقه من الصفر؟ أم أنها ساعدته بشكل أو بآخر، وطمست السجلات دورها ونسبت المجد كله لأوزير؟ كلها تفاصيل، مع أنها تثير أشد التساؤلات في النفوس، إلا أنها ستظل للأسف خارج نطاق علمنا.

أما الدوات نفسه، بعدما نما كبر وازدهر واستقر، فلا يعاني من ندرة السجلات، بل على العكس تمامًا، يعاني من غزارة سجلات وغنى تفاصيل يفوقان كل ما يتوفر في حكايات الآلهة، لكنها تتسم مع ذلك بتناقض وتباين بعضها عن البعض، إلى حد يجعل من محاولة رسم صورة واضحة المعالم للدوات وجغرافيته وتفاصيله وقوانينه والحياة فيه أمرًا شديد الصعوبة، حتى مع النهج المتجاوز للعقل والمنطق الذي نتبعه هنا منذ البداية.

هكذا نحتاج إلى اتباع نهج مغاير عن ذلك الذي اتبعناه في سرد أنباء الآلهة. ولا شيء أصلح لاستكشاف عالم الموتى من الموت طبعًا. لذا، مع خالص الأسف يا عزيزي القارئ، اعتبر نفسك بدءًا من السطور القادمة... ميتًا.

٢

أقدم لك في البداية كل التعازي على رحيلك المحزن المبالغت، وددت لو كنت أنا الراحل، لكن عندها من كان سيكتب لنا هذا الكتاب؟ لكن عليك أن تتجاوز الحزن سريعًا، أعلم أنك لا زلت تحاول استيعاب ما حدث، كان رحيلك مبالغًا مؤسفًا، لكن أمامك رحلة شاقة ومصيرية، أهم من أي شيء جرى لك في حياتك السابقة... وإن كانت حياتك السابقة ستؤثر بالطبع على مجريات رحلتك القادمة.

من الأفضل بالطبع أن تكون ثريًا، أقصد لو كنت ثريًا قبل الموت، وجهزت خلال حياتك المدينة القديمة مقبرة ضخمة في مكان سري بعيد خفي عن أعين اللصوص، وعملت على ملئها بكتابات ولوحات تسرد أهم منجزات حياتك، أي بنسخة جرافيكية من سيرتك الذاتية، لتقرأها الآلهة بعد وفاتك وتعرف محاسنك. ولو كنت محظوظًا ستتابع في الحياة القادمة ما كنت تفعله وتفتخر به في الماضي، لكن لنرجى هذا إلى حينه. وعسى أن تكون ملأت المقبرة أيضًا بكنوزك ومقتنياتك التي ستحتاجها في العالم الآخر، و٣٦٥ تمثال أوشتي، تمثال لكل يوم من

أيام السنة، كي تدب الحياة كل يوم في أحدهم ليقوم بالأعمال الشاقة المطلوبة منك نيابة عنك (وبخصوص تلك النقطة، أتمنى أن تكون من المحدثين واسعي الأفق الذين يكتفون بتمثيل الأوشبتي، لا من الملوك الأوائل القدامى الذين قتلوا خدمهم وحاشيتهم وضموهم إلى مقابر ملحقة كي يتابعوا خدمتهم في العالم الآخر).

وأتمنى أنك لم تبخل على نفسك واشترت كل ما هو متاح من النصوص الجنائزية في زمنك، مثل كتاب «إم-دوات» -ومعنى العنوان «ما يكمن في الدوات»- وكتب الطريقين والكهوف والبوابات ومتون التوابيت وكتاب الموتى وغيرها، في الزيادة إفادة. إن رحلتك القادمة صعبة مثل رسالة دكتوراه، تحتاج فيها إلى كل المصادر الممكن الوصول إليها. غني عن الذكر أن نصوصك الجنائزية يجب أن تكون أصلية كتبها كهنة معتمدون، لا تستسهل شراء الكتب المزورة، فبالإضافة إلى أنها قد تحتوي على نصوص مغلوطة أو ناقصة، فالتعاويز المتضمنة لن تعمل إلا بمباركة الكهنة الرسميين.

لا داعي للحديث طبعاً عن ترتيبك المسبق لمراسم التحنيط والعناية بالجسد، لضمان بقاء جسدك وبالتالي بقاء روحك، وطقوس الجنازة التي تُرسل روحك إلى الدوات، وطقوس فتح الفم التي من دونها لن يتمكن جثمانك من التنفس والحديث في العالم الآخر، ونواح وعويل سيدات الأسرة والندابات المحترفات -ورثة الشقيقتين- والقرايين التي ستظل أسرتك تقدمها إلى مقبرتك إلى الأبد بعد موتك، فتلک أمور لا غنى عنها لأي مُتوفى ويفترض أن يعرفها الجميع. لو كنت ملك كيميت، أو وزيرها، أو حاكم أحد الأقاليم القوية، أو حتى من النبلاء والكهنة،

فذلك سيساعد بالتأكيد. أما لو كنت من العامة الفقراء، من الذين لا تتوفر لهم الوسائل للحصول على كل هذا، لا تزال أمامك فرصة للحصول على حياة أبدية هائلة، لكنها ليست شديدة السهولة.

نسيت أن أقول أيضًا إن العالم الآخر يقتصر فحسب على كيميت وأبنائها، لو كنت أجنبيًا فقد تُوفيت للأسف بلا داع، لا مكان لك في هذا الدوات، أي كما يقول المحدثون «مَتَّ فطيس» (عذرًا، كان عليّ ذكر ذلك مبكرًا). إلا لو كنت على علاقة دبلوماسية قوية بالحكام والنبلاء، وأنفقت في المعابد وأغدقت على الكهنة، وبنيت مقبرةً لائقة، عندها مرحبًا بك في عالمنا الآخر، بل إن دحوتي نفسه سيقوم بمهمة الترجمة الفورية والإشراف على معاملاتك وإجراءات تسكينك في العالم الآخر.

أنت الآن أوزير، وأوزير الآن أنت. يتوحد المتوفى ويتمهى مع رب الموتى وملك الدوات العظيم في رحلته التالية، حتى إن اسم أوزير يصبح جزءًا من اسم الراحل بعد الموت. لو كان اسمك سمير مثلاً، فسيصبح من الآن أوزير-سمير، ولو كان اسمك جيهان، فسيصبح من الآن أوزير-جيهان، لا يكثر نظام الدوات بالجنديرية في هذه الأمور. هذا ليس تعصب ملك ديكتاتوري معتوه، بل هو يُمْن عليك بمنحك اسمه، بمنحك جزءًا من ذاته. مثلما كنت جزءًا من رع في حياة النهار، صرت الآن جزءًا من أوزير في الحياة الأخرى، الأبدية لو كنت محظوظًا. يجب أن تسعد بتماهيك مع أوزير.

تحتاج الآن، بعدما انصرف الجميع من الجنازة وتركوك مومياء محنطة وحيدة، إلى أن تستيقظ، أو للدقة أن يستيقظ منك الجزء الحر

الهائم من روحك الذي يُدعى الباء^(٤٧)، الذي له هيئة طائر رأسه هي رأس المُتوفى، أي رأسك الآن، مثل إيزة في هيئة السنونوة. تحتاج إلى أن تستيقظ وتفيق جيدًا، وتبدأ الدراسة.

أي نعم، الدراسة، وإلا ما فائدة النصوص الجنائزية التي أنفقت الغالي والثلثين مقابلها؟

لا تحسبن الحياة الأبدية سهلة تُشتري بالمال، لا زال عليك دراسة وفهم النصوص التي جهزت بها قبرك، لو أتقنت عملك فستجدها في كل مكان؛ في برديات مطوية بعناية في طيات موميائك، منقوشة بحروف

(٤٧) يتكون المرء، بحسب الأسطورة المصرية القديمة، من عدة عناصر، اختلف عددها وتبدل تعريف وأهمية كل منها مع الزمن. من أهمها وأشهرها:

با: الروح الهائمة الحرة، أهم مكونات الإنسان، وهي المسؤولة على الأرجح عن شخصية الفرد وأفعاله. تتحرر من الجسد عند الوفاة وتقيم بهيئة طائر له رأس المُتوفى، وهي قابلة للتحول بأشكال عدة.

كا: الجانب المادي من الروح، وتُدعى القرين. تظل الكا مع الجسد حتى بعد الموت، وتقتات على الطعام والشراب. لا يتناول المُتوفى الطعام والشراب بشكل تقليدي كما الأحياء، لكن يمتص جسده منهم العناصر الغذائية المطلوبة لاستمرار الكا، لذا ينبغي أن تستمر أسرة الراحل في تقديم القرابين إلى قبره باستمرار لتبقى الكا حية. يُقال «ذهب فلان مع قرينه» بمعنى أن فلان قد مات.

آخو: الجزء النوراني الخالد من الروح، القبس الإلهي الذي يجعله حيًا. الآخو هي مجموع الكا والبا معًا، ويمكن اعتبارها الروح بشكل عام.

خات: الجسد المادي للإنسان، اللحم والدم، وهو وعاء الروح.

شوت، أو خاييت: ظل الروح. لا توضح السجلات أهمية الظل كثيرًا، لكن يبدو أن له علاقة بحمايتها وراحتها. يتمتع الشوت بحرية حركة كبيرة مثل الباء، ويرافقها في تجوالها.

إيب: القلب، مصدر مشاعر الإنسان، ومصدر الخير والشر فيه. الإيب هو النسخة الروحية من القلب، إذ يظل القلب المادي (هات) في الجسد المحنط بعد الوفاة. الإيب هو الذي يُوزن أمام ريشة الماعت لحظة الحساب، كما سيتضح لاحقًا.

رن: اسم المرء السري الذي تمنحه الآلهة للمرء عند الولادة. وأظن أننا نعرف الآن ما الذي يمكنك أن تفعله إن عرفت الاسم السري لأحدهم.

بديعة داخل وخارج تابوتك، وعلى حوائط وأعمدة وأسقف مقبرتك، وعلى حوائط الغرف الداخلية والأسطح الخارجية للهرم (لو أنك من الملوك القدامى العظام، أصحاب الأهرام). عليك ألا تضيع لحظة، لا تترك ركنًا من دون قراءة ودراسة وحفظ ما فيه. اتعب الآن لترتاح لاحقًا.

تتنوع مواضيع النصوص الجنائزية وأفكارها، لكن يمكن تصنيفها ببعض التعميم إلى صنفين أساسيين: صنف يصف رحلتك القادمة في الدوات، ويتضمن وصفًا لجغرافيا المكان وإرشادات الطريق وتعاويز حامية تقيك الأخطار وتضعك مع الأبرار، وصنف آخر يصف رحلة أخرى موازية لن تمر بها - وإن كنت قد تصادف إحدى مراحلها في وقت ما، فلا شيء أكيدًا في العالم الآخر - وهي رحلة أهم بكثير: رحلة رب الأرباب في عالم الموتى.

لا تتعجل، سأحدث عن هذا وذاك.

٣

استكشفتُ من قبل رحلة رب الأرباب السماوية، ورأيتُ كيف يخوض رحلة الليل في جسد نوت بعدما تلتهمه ساعة الغروب، حتى يُولد من رحمها جديدًا ساعة الشروق. أما الآن، فسوف أستكشف رحلة أخرى يخوضها ليلاً، رحلته في الدوات، تلك التي يخبرنا عنها أحد أهم النصوص الجنائزية التي أتمنى أنك لم تنسها أثناء إعداد مكتبتك القبرية: «إم-دوات».

لكن دعني بدايةً أطرح سؤالين، أولهما ذلك الذي لا شك أنه يراودك مثلما يراودني، ويفترض أن يراود كل إنسان عاقل يقرأ هذه السطور: كيف يخوض رب الأرباب رحلته الليلية في الدوات، في الوقت الذي يُفترض فيه أن يقطع جسد نوت كي يلحق موعد الشروق؟ لا تناقش السجلات القديمة هذه المعضلة، ولا يبدو أن هناك من لاحظ أي مفارقة هنا، وكأنه أمر بديهي يعرفه الجميع.

أما نحن، كمحدثين ضيقي الأفق، فلا نستطيع تجاوز مفارقة بهذا الحجم من دون إعمال الفكر فيها ولو قليلاً، دعني أحاول استكشاف احتمالات إيجاد حل لتلك المعضلة: الاحتمال الأول أن لعل رب الأرباب يختار أن يخوض الدوات في إحدى الليالي ويخوض نوت في الأخرى، أو ثمة ظروف ما تحتم عليه ذلك أو ذاك، لا سيما وأن الرحلتين نهايتهما واحدة؛ ولادة خبري من جديد في الفجر التالي، وهو احتمال قد يكون صحيحاً. والاحتمال الثاني أن هذا الجزء من الدوات يقع داخل جسد نوت، بصورة مادية أو سحرية، أي أن أوزير حذا حذو أبيه وجده وانتهك جسد أمه وأقام فيه ملكاً وأعلن عليه سيادة، وهو احتمال لا يخلو من منطق، لكنه لا يخلو أيضاً من مرارة. والاحتمال الثالث أن كلتا الرحلتين تقعان كل ليلة على التوازي، ربما يخوض كل منهما أجزاء مختلفة من روح رب الأرباب، أو أن أتوم وبقية الآلهة قادرون على الوجود في أكثر من مكان في نفس الوقت، ولعب أدوارهم كالشمس والقمر والأرض والهواء، ومع ذلك يتجسدون في هيئات مستقلة تذهب لشؤونها الخاصة، وهذا هو الاحتمال الأنسب لحكايتنا والأقرب لقلوبنا والذي ستبناه هنا.

وبها أنك الآن في الدوات، لعلك تتمكن من الوصول إلى حل وتجد العلاقة بين الرحلتين، ولو استطعت، أن ترسل لنا الحل بطريقة ما.

أما السؤال الثاني فقد يكون سؤالك وحدك، وقد تكون -أو أمل أن تكون- أحصف من أن تسأله، لكنني سأجيب عنه على أي حال. قد تسأل: «ما لي أنا وما لرحلة رب الأرباب؟ أترعجني بأخبار رحلاته حيًا وميتًا؟ أخبرني بما سيحدث لي». ردًا على هذا نقول إن المعرفة هي سلاحك الأهم، حيًا وميتًا. أن تعرف شيئًا أو شخصًا أو حدثًا أو مكانًا، يعني أن تأمن شره وتضمن خيره وتألف وجوده. إن معرفة أسماء الآلهة والموجودين، حتى الأسماء العادية المتداولة، تُعدُّ في الدوات من علامات الأهمية والقوة وسعة العلاقات، فإن رأيت إلهًا، رئيسيًا أو فرعيًا، وناديته باسمه، وعرف من كلامك أنك عليم ببواطن الأمور، سيقدم لك كل مساعدة ممكنة ويعزف عن إيذائك. نجد مثلًا في نص الساعة الثالثة من كتاب إم-دوات: «من يعرف (الأرواح الخفية) وهو يمر بينها، سيتقدم وسط زئيرها ولن يقع في أتونها. ومن يعرف هذه الأشياء يصير في درجة حارس المكان وسينال خبزه من رع. ومن يعرف ذلك سيحرك ساقيه وفقًا لرغبته ولن يدخل مكان الهلاك وسيتنفس الهواء في ساعته»^(٤٨).

نتمنى أن نكون بهذا قد أسكتنا أكثر تساؤلاتك إلحاحًا وأقنعنا البقية بالتزام الهدوء مؤقتًا، فما عاد من الممكن تسويق ذكر دورية الشمس الليلية في الدوات أكثر من هذا.

(٤٨) هذا النص وجميع النصوص اللاحقة المتعلقة برحلة إله الشمس في الدوات، منقولة بتصرف من كتاب تفسير كتاب ما هو كائن في العالم الآخر مدجات إيمي دوات - شرح وترجمة: محسن لطفي السيد.

على الرغم من هدف رب الأرباب الأصلي لخلق الدوات؛ أن يسكن إليه ليلاً، فقد انتهت به الحال هناك إلى خوض رحلة ليلية دورية غير خالية من المخاطر، وحتى المناطق الآمنة منه لا يمر فيها أتوم باعتباره ملكاً خالقاً فوق الجميع، بل كزائر عابر ذي مكانة رفيعة، لا تتجاوز مرتبة الضيف المكرم في أرض لا لبس في خضوعها لغيره.

تبدأ رحلة رب الأرباب مع أولى لحظات الليل، ومسكتت، مركب الليل، تلج نهر الدوات.

إن نهر الدوات صورة معكوسة لحابي في عالم السطح^(٤٩)، في الواقع الدوات برمته انعكاس مظلم لأرض كيميت المقدسة؛ ثمة نهر مثل النهر، ومدن وقرى وأقاليم مثل تلك المعروفة عند الأحياء، بل إن حقول سخت إيارو، الهدف المأمول لرحلة المتوفين، حيث المستقر والمستودع والنعيم، توازي حقول وأحراش دلتا حابي. عدا أن كل شيء في العالم السفلي عكس مقابله العلوي، فوقه تحت، ويمينه يسار، ويمشي الشخص فيه مقلوباً على رأسه، ويأكل فضلاته لأن حتى الهضم يحدث بالعكس (لا تحش شيئاً، لن تأكل من فضلاتك، ثمة تعاويد تحميك من كل هذا ستطرق لها في حينها)، ونوت، سماء العالم السطحي، تصبح ننت، نقيضة السماء، تلك التي تقف بالمقلوب عكس وقفة نوت في عالم الأحياء. ويختلف العالم الآخر عن عالم الأحياء أيضاً في سعته، إذ إنه هائل، مساحته تزيد على مساحة عالمنا بأضعاف مضاعفة، والوقت فيه أطول بكثير عما نعرفه، فالساعة الواحدة في الرحلة الليلية لرب الأرباب تعادل عمراً كاملاً على سطح جب.

(٤٩) مثلما كان نهر سماء النهار انعكاساً لنهر حابي. حابي كان أصل كل شيء عند المصريين القدامى... وعند المعاصرين أيضاً حتى لو نسوا ذلك أو تناسوه.

سر التناقض وانقلاب الحال في الدوات، أن رحلة الشمس فيه عكسية، يدخل رب الأرباب في قاربه وهو شيخ عجوز يموت، ثم تدب فيه الحياة ويتجدد، فيتحول إلى طفل يُولد عند الفجر. بذلك يكون العالم الآخر، حتى لو دان بالولاء لأوزير، يظل قائماً على نظام رب الأرباب، حتى لو بالمقلوب.

تُقاس رحلة مسكتت الدواتية بالساعات، أي بالمسافة التي تقطعها مسكتت في كل ساعة من ساعات الليل الاثنتي عشرة. تختلف مساحة كل ساعة الفعلية عن الأخرى، لتباين طوبوغرافية وظروف محطات الرحلة. بعضها تذكر السجلات مساحته بدقة وبعضها لا. تنضم في كل ساعة إلى طاقم المركب ربة الساعة الحالية وتغادره ربة الساعة السابقة، وهن اثنتا عشرة ربة، مسؤولية كل منهن إرشاد سفينة الليل في تلك الساعة وحمايتها من الأخطار الكامنة فيها، إذ تعرف كل ربة دروب وخفايا ساعتها الخاصة خير معرفة.

أول وأبرز ما ستلاحظه في دورك الجديد كأحدث نزلاء الدوات، وأول ما يلاحظه أتوم ومعيته ما إن تمخر مسكتت عباب نهر الدوات، هو الظلام الحالك الكامل الذي لا يكسره ضوء، حتى عين أتوم -رع نفسه لا تضيء هذا الظلام، بل لا تكون أكثر من جرة متوهجة نوعاً أقرب للموت منها للحياة. مع ذلك، هذا الوهج الواهن والحرارة الشحيحة اللذان يصدران عن عين الشمس، لهما عظيم الأثر على سكان هذا العالم البارد المدلم، فتحتشد الأرواح -الطيبة والمعذبة على السواء- والآلهة -المقيمة في الدوات ومؤقتة الزيارة- ليشهدوا مرور رب الأرباب، عسى أن ينالوا من نوره قبساً يصطلون به.

تنضم إلى المركب في بداية الساعة الأولى ربتها يوشميت-هاتو-
خيفتي-رع، أي مهشمة جباه أعداء رع.

تمخر مركب الليل عباب النهر في منطقة الأفق الغربي المعروفة
باسم نت-رع، أي وادي رع، وتقع خلف جبل الغرب باخو حيث
تلتهم نوت مركب النهار في آخر اليوم. كي يتجاوز رب الأرباب ومعيته
من الآلهة تلك الساعة، عليهم قطع مسافة ١٢٠ يترو (واحد يترو =
عشرة ونصف كيلو متر بمقاييسنا الحالية). تُعد هذه الساعة حاجزًا بين
عالمنا وعالم الدوات، تُوصف بأنها مثل بهو أو منطقة عازلة بين العالمين،
ونظرًا لاسمها «وادي رع» نعتقد أنها لا تزال ضمن نطاق سلطة رب
الأرباب.

يجتمع على ضفتي النهر هنا عدد من الآلهة الثانوية مختلفي الوظائف
والأهمية لتيسير رحلة رب الأرباب والتسييح بحمده. ومثل أي ملك،
يوزع الإله الميت في تلك الساعة قطع الأراضي على الآلهة الموجودة. لذا
حاول أن تكون ذا حظوة وتشق طريقك في عالم الموتى كي ترقى إلى
مكانة تتيح لك الحضور في الساعة الأولى من رحلة رب الأرباب الميت،
ولو سعد حظك ستنال أرضًا وتصبح إقطاعيًا في الدوات.

أما ربة الساعة الثانية فهي شسات-ماكيت-نب-اس، أي التي
تعرف كيف تحمي سيدها، وتنضم إلى مسككت ما إن تلج السفينة أولى
مناطق الدوات التابعة لسلطة أوزير. اسم المنطقة ور-نس، ومساحتها
١٢٠×٣٠٩ يترو مربعًا. تحفل الساعة الثانية بالحقول الخصبة-ربها هي
نفسها حقول الإيارو التي يسعى لها الموتى من البشر، لكن هذه معلومة

غير أكيدة- يجتمع أهل هذه المنطقة على الضفتين لمراقبة الخالق الميت واستجداء وهج جهرة الشمس الواهن، ويسبحون بحمده ويهللون لمروره مثل أهل الساعة السابقة، غير أن فيهم فارقًا جوهريًا، فالكثير منهم يحملون أسلحة.

لا خوف منهم، فهم مسالمون طيبون، لكنهم تابعون للإله أوزير، أشبه بوفود الاستقبال والحماية للزائر عظيم الشأن، وهم أول علامة على سلطة الملك المومياء، وأول تذكرة لرع أنه أمسى زائرًا في عالم لا يتبع سلطانه.

مع ذلك يستمر رب الأرباب الميت في توزيع الأراضي والمنح على الحاضرين.

الساعة الثالثة، تؤكد أكثر على سلطة أوزير. فهي منطقة تدعى «نهر أوزير»، مساحتها تساوي مساحة الساعة الثانية، وهي النظير الدواقي لمدينة أب-دجو حيث يستقر جثمان أوزير المدفون.

لا خطر هنا على خالق الكون الميت، لكن المشاعر المتوترة تكون على أشدها، فهو في أضعف حالاته وأوزير يحيطه بكل مظاهر القوة والسيطرة. يقول النص المكتوب «يسافر الإله العظيم في منطقة وادي السيد الأوحده، بواسطة المراكب الأرضية، ويعوم بواسطة أوزير الموجود في المدينة. يستريح هنا الإله العظيم لبعض الوقت ويصدر أوامره لأوزير وتابعيه». لا يخفى على فطنتك أن الجزء الخاص بإصدار الإله العظيم (أي أتوم-رع) الأوامر لأوزير وتابعيه ليس إلا من قبيل دبلوماسية النصوص الرسمية، بينما في الواقع كل شيء يحدث هنا بأمر

أوزير، فالمنطقة سُميت باسمه وتُوصف بأنها وادي السيد الأوحـد وبواسطته يعوم مركب الإله في النهر، ويحيط به في كل مكان جيوش من خدم أوزير وجنود له يُطلق عليهم «الأرواح الخفية». على رب الأرباب هنا أن يكظم غيظه ولا يحاول الاعتراض، فالرحلة ستزداد مشقة وخطورة من الآن فصاعدًا، وهو في أمس الحاجة لدعم أوزير. اسم ربة هذه الساعة نت-بايو، أي ممزقة الأرواح. ونجد للمنطقة حاكمًا إقليميًا يدعى خاترا، يتبع سلطة أوزير التي تسود على الدوات برمته.

وها هي حلكة الليل تزداد، والحقول الخصبة تختفي، فيما ندخل أرض الساعة الرابعة، التي تُدعى ربّتها سيخموس، أي عظيمة القوة. إنها مكان يُدعى عنخيت-خبري، أي الأشكال الحية، وإن كان على الرغم من اسمه لا يوحى بأي حياة، بل العكس تمامًا.

تتبع هذه المنطقة السلطة الإقليمية لإله يدعى سوكر، وتوازي منطقة راستاو، جبانة مدينة منف في عالم النهار. لم يعد نهر الليل يجري ويحف صفتيه سكان الدوات المشتاقون للخالق، بل هنا صحراء قاحلة ليس فيها نقطة ماء، وتغشاها ثعابين مرعبة -مثل ثعبان هائل ذي ثلاثة رؤوس وجناحين وأربع أرجل اسمه نترعا، يعيش على الرياح التي يحركها بجناحيه ورؤوسه- وتهيم فيها وتلتهم كل ما تجده في طريقها. غني عن الذكر أنها مكان عليك أن تتحاشاه بكل ما أوتيت من قدرة.

لا تستطيع سفينة الليل الإبحار في تلك الرمال اليابسة، فتتحول بدورها إلى ثعبان هائل ذي رأسين اسمه «الذي يقطع الطريق»، يحمل

على ظهره رب الأرباب الميت ورفقته، لكن حتى هذا الثعبان لا يستطيع الزحف في تلك الصحراء وحده، فيجره بالحبال أربعة من أتباع أوزير، الذين يقومون بدور الحماية والإرشاد في تلك المنطقة الخطرة.

ينفث ثعبان/ مركب الليل النار من فمه لإنارة الطريق، غير أن تلك النار مهما بلغت شدتها لا تكفي لإضاءة أكثر مما يقع أمامها مباشرة في هذه الظلمة. لا يستطيع رب الأرباب رؤية شيء حتى بعينه الشمسية، لكن يصل إلى مسامعه أصوات العويل والهسيس والصراخ التي لا يستطيع تحديد مصدرها.

مساحة أرض الساعة الرابعة غير معروفة، ربما لصعوبة قياسها ووعورة تضاريسها، فهي غير مستوية وغير مباشرة، بل تعجُّ بالسراديب والممرات والمتاهات، وبها ثلاث بوابات هائلة تقف عليها الوحوش للحراسة، وعلى رب الأرباب أن يعبر من تلك الأبواب. يجدر به بالطبع أن يتذكر اسم كل بوابة ومكانها وحارسها والآلهة الموجودة في المنطقة كي يستطيع العبور في أمان، وعلى الأرجح يعتمد في ذلك على أتباع أوزير الذين يقودونه.

يتابع خالق العالم الميت في الساعة الخامسة رحلته في صحراء سوكر الممتدة. اسم ربة هذه الساعة هر-ابت-يا-اس، أي المرشدة في وسط المركب.

لكن مع أن الإله لا يزال على ظهر المركب الذي تحول إلى ثعبان في الصحراء القاتمة، تختلف الحال الآن تمامًا بعد عبوره من بوابات الساعة السابقة. إذ أصبح يجر مركبه/ ثعبانه سبعة أرباب وسبع ربات في مشهد

جليل يُظهر استعادة رب الأرباب الميت بعضًا من هيئته المبعثرة، وهناك حضور رمزي لألهة التاسوع في سماء تلك المنطقة.

في قلب سماء الساعة الخامسة توجد غرفة غامضة محدبة السقف، معلقة، وعلى جانبيها تقف حدأتان، هما في الواقع الأختان إيزة وحوث-نبت. أما على الأرض، بالضبط تحت الغرفة السماوية، فيوجد تل يرتفع عن الأرض، إنه نسخة من التل الأولي بنبن، أول صورة لأتوم-رع قبل أن يخلق نفسه والكون. الإله سوكر حاكم هذه المنطقة نفسه يسكن في كهف تحت التل.

عندما يمر موكب رب الأرباب تحت الغرفة السماوية الغامضة وفوق تله الأولي القديم، ينبثق من الغرفة بالأعلى جعران، وينزل من السماء لينضم إلى مركب الإله الميت. إنه الجعران خبري، جعران الشمس، صورة أتوم-رع عند الولادة، روح التجدد والحياة المفقودة. لكنه لا يزال منفصلاً عن جسد الإله الميت.

اللحظة المنتظرة، لحظة بداية عودة الحياة، ستحين في المحطة التالية، في...

... الساعة السادسة، حيث تمضي السفينة قدمًا إلى الشمال، وتصل إلى منطقة تُدعى ميتشبت-نبت-دوات، أو اللج العميق سيدة العالم الآخر. اسم ربة الساعة السادسة مسبرت-ارات-ماعتو، أي مسبرت التي تحسن القيادة.

عادت السفينة أخيرًا إلى هيئة مسكتت بعدما عادت المياه تجري في النهر.

بنظرة واحدة تدرك أننا عدنا إلى مناطق سيادة أوزير، حيث الحقول
الخصبة وأتباع ملك عالم الموتى.

اللحظة الأهم تحين عندما نرى رب الأرباب وقد تمدد على الأرض
مع الجعران، والتف حوله ثعبان ضخمة خماسي الرؤوس اسمه عشا-
حرو، أي ذو الوجوه المتعددة، وهو تجسيد آخر للثعابين المنوطة بحماية
رب الأرباب، مثل اليوريا. هنا يبدأ جسد أتوم الميت في الاتحاد مع روح
الجعران خبري تحت حماية الثعبان، ويلمع أول بريق حياة جديد، وكذا
يحدث في العالم كله على التوازي.

يحيا الإله.

تسعد الآلهة الحاضرة من أتباع أوزير وتهلل فرحاً، عدا أنها تستعد
أيضاً وتجهز أسلحتها، فهناك من يستعر غيظه من تجدد الحياة.

اسم ربة الساعة السابعة خسف-حاء-حنسيج-نحا-حر، أي
التي تقطع رأس الثعبان بشع الوجه، هو اسم ينبئ كما هو واضح بأن
ثمة ثعباناً قبيحاً يجب قطع رأسه سيظهر في هذه الساعة.

اسم المنطقة التي يقطعها الموكب هنا تبحيت، أي معتكف أوزير
السري، غير أن سلطان أوزير على المنطقة لن يمنع ظهور الثعبان الخطير
المرعب نحا-حر/ بشع الوجه، وهي الصورة التي يتخذها في الدوات
صديقنا القديم عدو الحياة عابب.

بينما تمضي سفينة أتوم-خبري في تلك المنطقة، تصل إلى مكان
ينخفض فيه منسوب الماء إلى ما يقرب من الضحالة، ما يعرقل تقدم

السفينة ويهدد اكتمال عودة الحياة للخالق والعالم. هنا يظهر نحا-حر ويهجم على السفينة مهددًا بابتلاعها وكل من فيها. لكن الصحبة الإلهية مستعدة؛ الثعبان عشا-حرو، ذلك الذي تدثر فيه رب الأرباب خلال اتحاده مع خبري، يتحول إلى هيئة ثعبانية أخرى تُدعى محن، يشكل بجسده للإله مقصورة ستظل ملتفة حوله تحميه حتى يحين موعد الخروج إلى النهار، في حين تظهر إيزة بنفسها لأول مرة وتتجه إلى مقدمة السفينة، وتلقي التعاويذ القاتلة على نحا-حر، في حين يهاجمه كل من يستطيع القتال من معية رب الأرباب ومن أتباع أوزير -لكن لا ذكر لبطولات ست في التصدي لعابب هنا. لاحظ أننا في نطاق سلطان أوزير، ست غير مرحب به حتى لو كان لصد وحش الفوضى القديم -ويهزمون عابب في صورته الدوائية، وينقذون رب الأرباب الجنين، ويمضي الموكب إلى المحطة التالية.

تهدأ الأمور نسبيًا في الساعة الثامنة. اسم الربة هنا نبت-وشا، أي سيدة الليل، واسم المنطقة التي يعبرها الموكب المقدس تبات-نترو-اس، أي تابوت الآلهة.

أخيرًا يبدو الدوات عالمًا للموتى، فعلى الرغم من أن المياه عادت لمجاريها -حقيقة لا مجازًا- وعاد المركب للإبحار بيسر، وعلى الرغم من الحقول الشاسعة الخصيبة في النطاق الأوزيري، فإن كل سكان تلك الساعة موتى، آلهة كانوا أو بشرًا. كلهم موميאות محنطة في توابيت على الضفتين.

تتناثر على ضفتي النهر هنا اثنتا عشرة أفعى، تنفث من أفواهها النار كي تنير الطريق لموكب الشمس. وعلى مسكتت، يعتمد الملاحون إلى نثر المياه بمجاديفهم على الموتى، وبهذا ينثرون بركة الإله على أولئك المحظوظين، الذين يصحون من موتهم ويشربون بأعناقهم من توابيتهم في تلك اللحظات الوجيزة، لينعموا برؤية خالق الكون العظيم.

يسبح الموتى لخالق الكون ويشنون عليه ويسعدون بمروره، لكنهم يأسون ويحزنون عندما يمر ويذهب ويتركهم.

اسم ربة الساعة التاسعة دوات-ماكت-نب-اس، أي الدواتية التي تحمي سيدها. واسم المنطقة التي يقطعها الموكب بست-أرو، أي التي تنفذ إلى الأشكال ذات الوجود الحي.

مثلما في الساعة الثامنة، يتابع الموكب الشمسي مروره بين أرواح الموتى، ويتابع الملاحون نثر المياه المباركة عليهم، الجديد هنا أن الموتى بدورهم يشنون على الإله ويسبحون له، ويستمد منهم القوة والحياة التي يحتاج إليها ليكمل اتحاده بالجران وليستعيد الحياة.

اسم ربة الساعة العاشرة تنتت-يوحسكت-خات-أب، أي الذبّاحة قاطعة رقاب الكفار، واسم المنطقة التي تعبرها متشت-كات-يوتيب، أي ظلام اللجة عالية الضفاف. منطقة الساعة العاشرة في الواقع توازي جبانة مدينة أنو في عالم الأحياء، أي مدينة رب الأرباب ذاته. إذن لعل تلك الساعة تخضع لسلطان رب الأرباب لا أوزير، ولعل الإله الميت يشعر بالراحة أخيراً ما إن يلجها.

يتابع رب الأرباب اتحاده بجعران الشمس خبري في هذه المنطقة، إذ يبدو أن ذلك الاتحاد بحاجة إلى وقت أكثر مما حسبنا. ثمة آلهة عديدة تحضر هذه الساعة بأدوار متعددة، لكن أهمهم على الإطلاق مشهد للإله حرو - ابن إيزة، الذي تركناه في بطن أمه جنيناً - وهو يشرف على سباحة مجموعة من اثني عشر شخصاً؛ أربعة منهم يقفزون في الماء واسمهم «الغارقون في الدوات»، وأربعة يسبحون على صدورهم «واسمهم المقلوبون في الدوات»، وأربعة يسبحون على ظهورهم واسمهم «المتمددون في الدوات».

أما الماء الذي يسبحون فيه، فهو من نون، المحيط الأولي ذاته. يُفترض أن هؤلاء السابحين يرمزون إلى تجدد رب الأرباب من خلال مياه نون، التي خلق نفسه بنفسه داخلها، ويحتاج إليها كل ليلة كي يحيا من جديد. ببعض الخبث بوسعنا تخمين أن رب الأرباب ذاته هو من يسبح - ويغرق وينقلب ويتمدد - في مياه نون، لكن الوجهة الإلهية تمنع ذكر ذلك صراحةً ورسمه بوضوح في النصوص الجرافيكية، فاستُعيض عنه برسم بعض الأشخاص الرمزيين.

ولما كان العنصر السائد في الساعة العاشرة هو الماء، بات من الطبيعي أن تتمحور الساعة الحادية عشرة حول النار.

ربة هذه الساعة هي سبويت - نبت - يا - خسفت - سيباو، أي النجمة سيدة المركب التي تقمع الكفار في طلعة الشمس، واسم المكان الذي يقطعه المركب ري - كيريرت - ابت - خات، أي بوابة الكهف، التي تمزق الجثث... مسميات لا تبشر بالنعيم الأبدي كما يبدو.

ثمة هاويات في كل مكان هنا، تتلظى في أعماقها النيران التي يُعذب فيها الكفار والخطاة - لا تنسَ أن الهدف من كل ما نفعله هو إنقاذك من هذا المصير، تأكد من تجنب هذا المكان بأي ثمن - وثمة عدد ضخم من شياطين الجحيم الذين يعملون على تطبيق العذاب بهمة ودأب على أعداء أوزير، ويشرف عليهم الإله حرو ذاته.

ثمة ستة مراجل تضطرم فيها النيران: الأول فيه أجساد أعداء الإله يحطمون رؤوسهم بالبلط بأنفسهم، والثاني تقطع فيه الآلهة أجساد الأعداء بالسكاكين، والثالث مليء بأرواحهم، والرابع بظلالهم، والخامس برؤوسهم، والسادس هو وادي الذين انقلبوا على رؤوسهم. والطبيعة النارية لهذه المنطقة بالطبع لا تسمح بجريان المياه فيها، فنرى لفيقاً من الآلهة يقطرون وراءهم مركب الإله، لكن ليس بحبل، بل يشدون الثعبان الحامي محن، وقد منح جسده للآلهة حبلاً يجرون به مركب الإله بعدما عقد ذيله في مقدمته.

وبالإضافة إلى أن عين الشمس بدأت تسترد بعضاً من وهجها، نرى هنا على مقدمة السفينة نجم الصباح، ذاك الذي يسطع قبيل الشروق، ينير الطريق لموكب الإله ليخرج من هذا المكان المقيت، ويبشر العالم بقرب ولادة اليوم الجديد.

في الساعة الثانية عشرة، التي ربتها تُدعى ماع - نفرت - رع، أي التي ترى بهاء سيدها، يصل مركب الليل إلى محطته الأخيرة في منطقة تدعى خيرت - كيكو - خاعات - مست، أي نهاية الظلام وبزوغ الميلاد.

تستعيد الشمس هنا كامل قوتها، ويصبح الرب الخالق خبري،
الجعران، الطفل، الشمس الوليدة الجاهزة لبسط النور والحياة في عالم
السطح الذي أنهكه الظلام. لا يعود هناك نهر تبهر عليه سفينة الليل،
بل يظهر ثعبان هائل اسمه كا-إن-عنخ-نيترو، أي الحياة للآلهة. تقطر
الآلهة مركب الليل بالحبال حتى يدخل من ذيل الثعبان، ويمضي داخله
على عموده الفقري، حتى يخرج من ثغره.

وثغر الثعبان هو نفسه منفذ النور، عانة السماء التي منها يُولد رب
الأرباب من جديد، وتتلقفه بالترحاب يدا ابنه الأول، شو رب الهواء،
ويترجل عن مسكنت ويعتلي معندجت، سفينة النهار.
وبذلك تنتهي ملحمة كل ليلة، وتبدأ ملحمة كل يوم.

* * *

كان ذلك ذكرًا مختزلاً حد الإجحاف لرحلة رب الأرباب في
الدوات، لا يغني أبدًا عن الرجوع إلى النص الأصلي الكامل الذي
يحتوي على كل التفاصيل التي لا يتسع المجال هنا لذكرها. ناهيك عن
أنها ليست رحلة ملك الآلهة الوحيدة في الدوات، فهناك رحلته عبر
البوابات ورحلته عبر الكهوف وغيرها، ولكل منها كتابها. لا نعلم إن
كانت تلك الكتب تحكي نفس الرحلة بوجهات نظر مختلفة، أم إن كان
رب الأرباب يخوضها جميعًا كل مرة أو يختار من بينها. في جميع الأحوال
لا حل لك سوى قراءة وحفظ جميع النصوص والصور المتضمنة لو
أردت ضمان حسن الختام. أعلم أن هذا ليس سهلًا، لكن أحسبت
الموت لعبة؟ إنها حياتك الأبدية، تستحق منك بعض المجهود.

وهذا فيما يخص رحلة رب الأرباب وموته وبعثه ليلة بعد ليلة، أما فيما يخص رحلتك، فالأمر يختلف.

٤

ذكر رحلة رب الأرباب كان وصفًا لما حدث ويحدث ويستمر في الحدوث، معرفتك به تساعدك، لكنها لن تغير شيئًا في الحدث ذاته. أما رحلتك أنت فلم تحدث بعد، وكل ما بين أيدينا من تعاويد وخرائط وشروح ليست أكيدة الحدوث. إن أعمالك السابقة في الحياة الأولى هي أكثر ما سيحدد إلى أي مدى ستنفعك كتب الدوات ومتاع الحياة التي ملأت بها قبرك. فبحسب الساحر سيتنا وابنه، اللذين تمكنا من زيارة الدوات أحياء والعودة من هناك في ظروف استثنائية، اتضح أن المتوفى لو كان وغداً ثقیل القلب مرتكبًا للآثام، لن ينفعه متاعه في شيء، وسيقع ضحية لشياطين العذاب أو تفنى روحه بعدما يثقل قلبه الميزان، وتحكم الآلهة بتخصيص ممتلكاته لغيره من الفقراء المنزهين عن الخطايا خفيفي القلوب^(٥٠).

أما لو كنت من الطيبين، ولم يثقل قلبك الميزان، فقد نجوت من العقاب، لكن ثوابك يظل غير محسوم، فالمصائر متعددة: قد تصبح نجمًا

(٥٠) ربما يجد الفقراء الطيبون في هذا بعض الأمل، غير أننا لا علم لنا بألية هذه العملية. هل مثلاً نحتاج إلى تقديم طلب في الدوات بأنك ميت فقير طيب تستحق الدعم؟ هل يضعونك في قائمة انتظار مثل قوائم انتظار عمليات نقل الأعضاء، لتتظر وفاة غني وغد كي تستفيد من ممتلكاته؟ وهل تحصل على ممتلكات ملك شرير وحدك؟ أم أن هذه الممتلكات تُخصص لزمرة من الفقراء؟ تثير هذه المعلومة أسئلة كثيرة وحيرة كبيرة، ويظل الحل الأسلم، مثلما كان وسيظل دومًا، أن تكون غنيًا.

في السماء وتتابع الحياة الأبدية لامعًا في الليل فوق الأحياء، وربما تصبح من الآلهة، أو يمكن أن تنضم لأوزير في حكم الدوات، أو أن تعمل في الدوات كما كنت سابقًا وتعيش نسخة أبدية من حياتك الماضية بكل متعها وشقائها، أو يخصص لك أوزير أروع أراضي خاصة بك وتصبح إقطاعيًا دوائيًا ويعمل لصالحك غيرك من الموتى الأقل شأنًا، أو حتى أن تصبح من أولئك الموتى الساكنين في التوابيت، الذين لا يستيقظون إلا عند مرور رب الأرباب ليلاً بالقرب منهم فينعمون برؤيته لحظة ويأسفون لفراقه بقية الوقت، أو يمكن أن تنضم لطاقم معندجت أو مسكت، وتصبح رب الأرباب في رحلته اليومييتين.

إن الطلب على الانضمام لمركب رع هو الأعلى من بين مصائر الموتى المتعددة، يليه الطلب على الحياة الأبدية الرغدة كإقطاعي في حقول أوزير الدوائية الخصبة، أشهرها وأهمها حقول سخت-إيارو، التي لا ينالها إلا أتقى الأتقياء وأغنى الأغنياء. لكن ليس كل ما يتمناه الميت يدركه، عليك أن تتقبل ما ستحصل عليه في النهاية. جهز نفسك من الآن لكل المصائر.

ثمة كتب وتعاويز خاصة لكل مصير؛ هناك «كتاب الصعود إلى السماء» الذي يركز على تحويلك إلى نجم سماوي خالد وإله من الآلهة، و«كتاب الخروج إلى النهار» الذي يسعى إلى تعيينك في مركب رب الأرباب وبناء علاقات وظيفية ناجحة مع باقي الآلهة، و«كتاب الطريقين» الذي يقدم خريطة طبوغرافية فعالة لعالم الموتى ترشدك إلى أوزير والحقول الخصبة، وأيضًا إلى مركب رب الأرباب - عليك أن تختار أيًا من الطريقين تسلك، وأنت وحظك - وغيرها الكثير.

جرب أن تردد معي هذه التعويذة من مفتاح كتاب الطريقين، التي
يقسم صاحبها أنها ستضعك في قارب رع لا محالة:

«انظر إلى النجوم في أنو

انظر إلى الذين جاءوا من أجل هذا الإله

من أجل من ربط حزامه وأمسك الدفة

ليت أوزير-سمير يصعد معكم على القارب، إلى موطن
الآلهة، وأن يكون له قارب مقدمته ونهايته على شكل زهرة
لوتس

ليت أوزير-سمير يصعد إلى السماء ويبحر فيها

ليت أوزير-سمير يبهر مع رع»^(٥١).

ليتك طبعًا تبهر مع رع، أتمنى لك هذا من قلبي، صدقني. لكن
حتى تلك النصوص المتخصصة، على الرغم من تأكيدها على أن
تعاويذها مضمونة التأثير، ليست حصرية، في كل كتاب ما قد يساعد
في إلحاقك بمصائر أخرى لو فشل المصير المقصود. الأمر يشبه تسجيل
رغبات التخصصات الجامعية بعد امتحانات الثانوية العامة، أنت تضع
قائمة برغباتك بالترتيب من الأقرب لقلبك فما يليه، والأمر كله منوط
بمكتب التنسيق.

مكتب التنسيق هنا هو المحاكمة الإلهية لأرواح الموتى، التي تقرر
جدارة المتوفى بالحياة الأخرى أو فناءه أو عذابه الأبدي. لكن حتى

(٥١) بتصرف من كتاب الطريقين - CT 1030، ترجمة شريف الصيفي.

المحاكمة لا يمكن بلوغها بسهولة، الطريق إليها معقد ومليء بالفخاخ والخداع والشياطين والحراس لدفع وردع وتصفية أكبر قدر من الخطاة والمذنبين قبل بلوغ المحاكمة أصلاً.

إن الهدف من صد الأشرار والقضاء عليهم وتعذيبهم في الدوات ليس القصاص ولا العقاب مثلما قد تحسب لأول وهلة، بل لأن هذا الصنف من الأرواح يُعد عدوًّا محتملاً لأوزير، شريكًا لست. مجرد ارتكابك لأي ذنب أو شر أو خطيئة في عالم الأحياء، يرجح من احتمال تعاونك مع ست وتورطك معه في مؤامرة ما ضد ملك الموتى، الذي لا شك أنه أصبح مريض بارانويا من العيار الأول بعد المؤامرة التي قتلته وكل ما تعرض له جسده بعد موته من ... مغامرات.

الهدف إذن من العقوبات والمخاطر في كل شبر من الدوات هو حماية أوزير، وعليك أن تثبت في كل خطوة أنك طيب وفي صف أوزير والآلهة الطيبة وتعرفهم جيدًا (لأن المعرفة كما قلنا هي كل شيء)، ما يعيدنا من جديد إلى أهمية النصوص الجنائزية بين أيدينا، التي تؤكد في كل سطر أن من يعرف هذا الكلام ويرسم تلك الرسوم ويردد هذه العبارات، محفوظ محظوظ فائز بكل الكنوز.

٥

تهميم روحك في الدوات اعتمادًا على الخرائط المعتمدة من كاهن المعبد (تزينها الأختام الرسمية وتوقيعات المختصين). أيًا كان المصير الذي ترغب فيه، فوجهة رحلتك واحدة: راستاو، أي البرزخ، الأرض

الدوائية الموازية لمكان قبر أوزير في عالم الحياة، وحيث تُعقد المحاكمة. قد يقطع طريقك نهر أو جدول أو بحيرة، تريد -بحسب الخريطة- أن تعبر ذلك المسطح المائي. تحتاج إلى قارب؟ بسيطة، ستجد بسهولة إلهًا أو آخر جالسًا على قاربه في المياه، قد يكون هنا بالمصادفة، أو وضعته إدارة الدوات بغرض مساعدة الموتى على العبور، في جميع الأحوال عليك أن تتبع الطريقة المجربة لتنال خدماته. ستتجه إليه، وتردد تعويذة الحصول على قارب:

«التحيات لك أيها الراسي في قاربك في شمال السماء، في
البحر العظيم

كل من شاهدك لن يموت

من صعد إليك يتجلى كالإله

ولقد رأيتك، ولن أموت

صعدت إليك وأشرقت كإله، وصحت مثل إوز حابي

طرت مثل الصقر فوق رأس حرو

وأبحرت فوق الكون إلى السماء مثل شو...».

وتمضي التعويذة قدمًا في التزلف إلى الإله والتمجيد في الذات والتماهي مع الآلهة الأخرى. سيمطرك الجالس في القارب بالأسئلة المخرجة والمربكة، لكن التعويذة تقدم لك مجموعة من أهم الأسئلة المتوقعة والإجابات النموذجية. ستجيب أسئلته حتى يرضى عنك أخيرًا ويلقي آخر الأسئلة:

«- ماذا ستفعل إن أخذتك إلى هناك؟

- سأسود المدن والأحياء، فأنا أعرف من يملك وسأعطي من لا يملك

سأجهز الطعام خلال الإبحار شمالاً

وسأخبز الفطائر خلال الإبحار جنوباً

أيها الناظر خلفك، استيقظ إن كنت حيّاً، وانظر، هأنذا»^(٥٢).

يُفترض أن الجالس في قاربه لن يستطيع مقاومة إجاباتك النموذجية وسيأخذك معه.

لن تكون رحلتك خالية من المخاطر، ففي كل خطوة فخ، قد تتعرض مثلاً لخطر الذبح، على يد إله غاضب أو شيطان مارق، ماذا ستفعل؟ تستخدم «تعويذة للحيلولة دون قطع رأس المرء في الدوات»:

«أنا عظيم ابن عظيم، أنا شعلة نار

أنا الذي أُعيد له رأسه بعد قطعه

لم يؤخذ رأس أوزير بعيداً عنه

ورأسي لن يؤخذ بعيداً عني

فأنا مُبرأ، أنا متجدد، أنا أوزير»^(٥٣).

وقد يوقفك أحدهم في أي مراحل الطريق ويكلفك بعمل ما، رَيَّ أحد الحقول مثلاً أو حرثها، أو خدمة أحد الآلهة أو الموتى المباركين. لو

(٥٢) بتصرف من الخروج للنهار TB98, TB99.

(٥٣) بتصرف من الخروج للنهار TB43.

لم تكن جاهزًا ستعلق في دور الخادم وتقضي أبديتك عبدًا لدى آخرين. هنا يحين دور الأوشابتي، التماثيل الصغيرة للخدم السحريين في قبرك بعدد أيام العام. سيخل هؤلاء الخدم محلك في الأعمال المطلوبة منك، عليك فقط أن تذكر التعويذة المناسبة لتفعيل الخدمة:

«إذا كُلف أوزير-سمير (الساقى في خمارة الأهرام) (٥٤) بأي عمل من الأعمال هنا في الدوات، واستدعاك لتحل محله في أي عمل، سواء فلاحه الحقول أو الريّ أو نقل رمال الشرق إلى الغرب عبر النهر، عليك أن تجيب: هأنذا»^(٥٥).

قد تقابل أيًا من الآلهة الذين تعرفهم، لا تتورع عن الاستنجاد بهم، خاصة لو كنت مخلصًا معهم في حياتك وعبدتهم كما ينبغي وقدمت لهم القرابين. ستعرف الابتهالات التي تستطيع بها الاستنجاد بالآلهة في العالم الآخر، هاك مثلًا جزءًا من ابتهاال طويل لدحوتي:

«يا دحوتي، يا ناصر أوزير على أعدائه

انصر أوزير-سمير على أعدائه كما نصرت أوزير أمام المجمع الإلهي العظيم

في ليلة الكفاح ضد الأعداء، في ذلك النهار الذي فيه قُضي على أعداء سيد البشر»^(٥٦).

(٥٤) لاحظ أنه في كثير من الأحيان يُنادى اسمك مرفقًا بوظيفتك في الحياة الأولى، مثل أوزير-سمير (الساقى في خمارة الأهرام) أو أوزير-جيهان (رسامة الوشوم). لذا حاول أن تكون وظيفتك مشرفة، وإلا فضيحتك ستكون بجلال في العالم الآخر. من الآن فصاعدًا سنضع (...) بجوار الاسم حينما يليه ذكر الوظيفة اختصارًا.

(٥٥) بتصرف من الخروج للنهار TB6.

(٥٦) بتصرف من الخروج للنهار TB18.

لا حاجة طبعًا لذكر أنك لو أغضبت إلهًا ما في حياتك، لا تحاول
الابتهاال إليه في الدوات، بل عليك أن تتحاشاه بأي ثمن. هذا مفهوم
بداهة، أليس كذلك؟

إن بين يديك مئات التعاويذ التي سوف تساعدك على الخروج من
عدد هائل من المواقف، مثل تعاويذ استعادة ما فقدته المرء بالموت؛ تعويذة
لكي يستعيد المرء فمه في الدوات، وتعويذة لكي يتذكر المرء اسمه في
الدوات، ومن أجل أن يسترجع المرء قلبه في العالم الآخر، ومن أجل
الحياة والتنفس في الدوات... إلخ. وتعاويذ من أجل استدعاء القوى
الخارقة في الحياة الجديدة؛ تعويذة من أجل اكتساب المرء القوة السحرية
في الدوات، ومن أجل التحول إلى صقر أو إلى أي هيئة يرغب فيها لنفسه،
والتحول إلى إله... إلخ. وتعاويذ لدرء الأخطار وتفادي اللعنات؛ مثل
تعويذة لطرد الثعبان ررك في الدوات، ولطرد الحمار المفترس، ولتفادي
الذبح، ومن أجل عدم الموت... مجددًا، ولتفادي أكل الفضلات وشرب
البول، ولتفادي المشي مقلوبًا، وللحيلولة دون تحلل الجسد... إلخ. أو
تعاويذ للحصول على موارد وخدمات؛ من أجل الحصول على قارب،
للتعرف على الأرواح، من أجل التوجه إلى مناطق معينة، ومن أجل
إشعال النار، ومن أجل بناء بيت... إلخ.

كثيرًا ما تصل التعاويذ إلى حد التماهي مع الآلهة والتوحيد بينك
وبين أوزير أو رع أو دحوتي، أو تحويلك إلى اتحاد من عدة آلهة، فيقال إن
ذراعك هو الإله فلان وفخذك هو الربة فلانة وعينك هي الرب علان.
بل وبلغت التعاويذ ذروتها في نصوص الصعود للسماء - تلك الحصرية
للملوك القدامى - فتجعلك تلتهم لحم الآلهة!

«...ها هو الملك (سمير^(٥٧)) الذي يفترس البشر ويقتات على الآلهة

ها هو الملك سمير يفترس قواهم السحرية وابتلع قواهم
الروحية

أعظم الآلهة في وجبة صباح الملك سمير
متوسطو العظمة في وجبة ظهيرة الملك سمير
والأدنى مكانة في وجبة مساء الملك سمير
وعجائزهم حطب لموقده

سكان السماء يخدمون الملك سمير»^(٥٨).

ويمضي النص مطولاً في تفصيل كيف يرسل الملك رسله ليقتفوا
الآلهة ويصطادوهم ويمزقوهم للملك الذي يلتهمهم التهاماً، ويكتسب
بالتالي كل قواهم ومجدهم وعظمتهم.

لا أنصح باستخدام هذه التعويذة إلا إن كنت من الملوك القدامى
وتعي جيداً ما تفعله، لكن لو كنت سمير خمارة الأهرام أو جيهان رسامة
الوشوم، أعتقد أن محاولة صيد الآلهة وأكل لحومهم في الدوات لن تكون
أكيدة النجاح، وما ستشويه الأفران لن يكون لحمهم. لو أردت فجرب
على مسؤوليتك الخاصة.

(٥٧) لا تماهي للمُتوفى مع أوزير في حالة الملوك القدامى، فأولئك تحاول النصوص جعلهم أعلى
من الآلهة كما يظهر من النص.

(٥٨) بتصرف من الصعود للسما - 274 - PT 273.

لكن لا تدع وفرة التعاويذ في جعبتك تلهيك عن مبتغاك، هدفك الآن راستاو ولا شيء غيرها. بهذا الهدف فلتستخدم «تعويذة من أجل التوجه إلى راستاو» كي يُكشف لك الطريق إليها، و«تعويذة من أجل الوصول إلى راستاو» من أجل السماح لك بالدخول، و«تعويذة للتعرف على اسم أوزير والدخول إلى راستاو» ولعلها لمعرفة أي اسم من أسماء أوزير المتعددة تستخدم ككلمة سر للدخول مثلاً.

بفرض أنك تمكنت من تجاوز كل العقبات، ولم يُقطع رأسك ولم تُجبر على أكل فضلاتك ونجحت في استخدام تعاويذ التوجيه والمروور، أنت الآن إذن في راستاو.

تهانينا، لقد اجتزت جزءاً ضخماً ومريعاً من الدوات كي تصل إلى هنا، لكن تبقى المحاكمة، وهي أهم وأخطر وأعظم من كل ما سبق. لو كان العالم مثاليًا، لكان الوصول إلى راستاو في حد ذاته علامة على خفة قلبك وطيبة سريرتك واستحقاقك للجزاء الأوفى، لكن كثيرًا من الخطاة يتمكنون للأسف من بلوغها بالغش والرشوة، لذا لا غنى عن المحاكمة.

جهز نفسك.

تجري المحاكمة في قاعة العدالة المزدوجة، ماعتي، أهم وأعظم مكان في الدوات برمته.

لكن قبل أن تحاول عبور البوابة، يجدر بك ترديد تعويذة غاية في الأهمية: تعويذة من أجل ألا يغدر قلب المرء بصاحبه في العالم الآخر.

«قلبي من أمي... قلبي من أمي
قلبي يا صاحب التحولات المختلفة: لا تشهد ضدي
لا تشهد ضدي في قاعة العدالة
لا تخاصمني أمام مراقب الميزان
أنت الروح (كا) في جسدي
لنمض معاً إلى الخيرات التي أعدت لنا
لا تلتطخ اسمي أمام المجمع الإلهي
لا تفتعل الأكاذيب ضدي أمام هذا الرب العظيم»^(٥٩).

في الواقع، يُفضل أن تُقرأ هذه التعويذة على جعران من حجر أخضر إطاره من الذهب الأبيض وتُعلق حول رقبة جثمانك. فالقلب -بالأحرى القلب الروحي، إيب- هو أهم ما يملك المرء، حيّاً وميتاً، ومن يخونه قلبه فقد خسر كل شيء، ولا يجب ادخار أي شيء يمكن بذله لإرضاء القلب. في حالة تعليق التعويذة حول رقبتك، ورد أن تماسيح الدوات مولعة بتلك التعويذة بالذات وستحاول الهجوم عليك لاختطافها، لكن، بالطبع، ثمة تعاويذ للوقاية منهم أيضاً.

لكن عليك أن تتأكد من ثبات قلبك سريعاً، فلن يمر الكثير قبل أن يلاحظ أحدهم وصولك: إنبو، ابن أوزير القوي ذو رأس ابن آوى. في الدوات، إنبو بالنسبة لأوزير مثل دحوتي بالنسبة لأتوم-رع، إنه الثاني في تسلسل السلطة، ومكلف بإدارة أغلب شؤون عالم الموتى، وله دور مؤسس لا يمكن إنكاره في نشأة الدوات ووصول أوزير لمكانته، استحق

(٥٩) بتصرف من الخروج للنهار TB30.

عليها مكانة إله التحنيط والراعي الرسمي للطقوس الجنائزية. لولا إنبو ما كان هذا العالم برمته ليكون.

يشعر إنبو بقدومك، يقول: «إني أشعر بقدوم أحدهم من أرضنا، إنه يعرف طرقنا ومدننا، له رائحتنا»^(٦٠). ما يؤكد على ما ذكرناه مسبقاً؛ لا مكان للأجانب في الدوات.

لا تتردد، لا تجعل الرهبة من مقابلة إله الموت العظيم تعقد لسانك، بل عليك أن تجيب فوراً برباطة جأش:

«أنا أوزير-سمير (...) المبرأ والمنتصر في سلام، جئت لأرى الآلهة العظيمة وأحيا من طعام قرايبنهم. لقد عبرت النهر وقدمت البخور قرباناً، ومررت بشجرة سنط الأطفال المقدسين، وأغرق النهر قارب أعدائي وعبرت أنا بسلام...»، تابع الثروة وذكر إنجازاتك، احك عن كل ما مررت به في الطريق، ولا بأس من بعض المبالغة في أهميتك، إنبو معتاد على هذا ويستمتع به، في لحظة ما سيكتفي ويقاطعك باختبار مبدئي: «أتعرف اسم هذا الباب؟».

إجابتك: «اسم الباب: المهلك بقوة الإله شو».

سيسألك إنبو: «أتعرف اسمي مصراعي الباب العلوي والسفلي؟».

إجابتك: «رب العدل القائم على قدميه، والرب العظيم راعي القطيع».

يقول إنبو: «اعبر لأنك عرفت الأسماء، يا أوزير-سمير (...)».

أحياناً لا يُكتفى بهذا، بل إن ضلفتي الباب قد تمتنعان عن الانفتاح

(٦٠) هذا الحوار وحتى نهاية مشهد المحاكمة، بتصرف من الخروج للنهار TB125.

إلا لو قلت اسم كل منهما، وكذا مقبض الباب وقفله وعتبه، وحارسه. إن كل شيء مهمما بدا تافهًا في الدوات له اسم قد يُستغل جهلك به ضدك، ومعرفتك بالأسماء تفتح لك كل السبل.

حتى حاجب القاعة قد يرفض أن يعلن عن دخولك للمجمع الإلهي من دون أن تذكر اسمه، فلتخبره أن اسمه هو «العالم بالقلوب ومنقب الأحشاء». عندما يرضى الحاجب سيسألك: «مَنْ أخبر أنك هنا؟»، «أمين سر الأرضين»، «ومن هذا؟»، «إنه دحوتي».

يخبر الحاجب دحوتي بمجيئك، فيسألك دحوتي: «لماذا أتيت؟»، «أتيت لأعلن عن نفسي»، «وكيف استطعت المجيء؟»، «لأنني طاهر من كل خطيئة ونأيت بنفسي عن كل أسباب الخلاف، فأنا لا أنتمي لهم». يهزُّ دحوتي رأس أبي منجل راضيًا، يقول: «لمن أقدمك؟»، «قدمني لصاحب النار الهائلة والأسوار العالية والثعابين الحية والأرض المروية»، «ومن هذا؟»، «إنه أوزير».

يدخل دحوتي لأوزير، ثم يعود لك بعد ثوانٍ: «حسنًا، ادخل، لقد أنبأته بقدموك. إليك بهذا الخبز وهذه البيرة، وكل ما على الأرض من قرايين لك».

سيصطحبك إنبو إلى قاعة العدالة، قدس أقداس عالم الموتى، حيث ستمثل أمام الملك العظيم أوزير نفسه. خلف أوزير تقف الأختان إيزة وحت-نبت، وفي منتصف القاعة ينتصب ميزان هائل، على إحدى كفتيه ريشة: إنها ريشة الربة ماعت، ريشة العدل والنظام الكوني، والكفة الثانية خاوية. الرب حرو نفسه يراقب مؤشر الميزان. وها هو

دحوتي يتخذ مجلسه بالقرب من الميزان حاملاً ريشته وأمامه رقائق
البردي، يستعد لتدوين نتيجة المحاكمة، يستعد لتدوين مصيرك.

على أحد جانبي القاعة واحد وعشرون مقعداً وعلى الجانب الآخر
مثلها، يجلس عليها اثنان وأربعون إلهًا، إنهم آلهة أقاليم كيميت، محلفو محكمة
عالم الموتى. الكلمة الأخيرة بالطبع لأوزير، لكن هؤلاء مكانة لا يُستهان بها.

يستدير إنبو ويواجهك، يضع يده في صدرك، تخرقه. لا تشعر بألم،
أنت ميت بالفعل، يقبض على قلبك، على إيبك، يخرجك، عندئذ تسمع
زئيراً، تنظر، كيف لم ترها من قبل؟ إنها المفترسة ذات رأس التمساح
وجسد الأسد ومؤخرة فرس نهر، عمميت المرعبة ملتهمة القلوب، تزار
بلهفة عندما تشم رائحة قلبك الذي ذهب به إنبو تجاه الميزان. يغمرك
الرعب، يدق قلبك بعنف، يدق في يد إنبو. تخطو عمميت بتؤدة من
ركن القاعة، إلى أن تستقر أخيراً في مكانها المفضل، في منتصف الطريق
بين قدمي أوزير على عرشه والميزان. حتى عمميت تعرف دورها، ولا
تجروء على الاقتراب من القلب من دون أن يؤذن لها.

تماسك، تماسك.

لن يضع إنبو القلب على كفة الميزان الخاوية الآن، لا تزال هناك
خطوة تسبق ذلك، بل يقف حاملاً إياه حذاء الميزان، ينظر لك صامتاً.
تلك إشارتك، حان وقت إلقاء كلمتك على المجمع الإلهي، عليك أن
تكون واثقاً في نفسك طليقاً في لسانك مبهرًا في خطابك.

عسى ألا يخذلك قلبك.

تقول:

«التحيات لك أيها الرب العظيم، رب العدل المطلق
جئتك سيدي وحيء بي لرؤية جمالك
أنا أعرفك، وأعرف الآلهة الاثنين والأربعين، الذين معك في
ساحة العدل المطلق

الذين يلتهمون الأشقياء ويشربون دماءهم
جئتك لأرى جمالك، ويدي مرفوعتان ابتهالاً لاسمك
يا من عيناك ماعت والعدل هو اسمك
جئتك بالعدل، وزهقت لك الباطل».

بعد هذه المقدمة تبدأ في نفي الجرائم عن نفسك:
«أنا أعطيت الحق لمستحقه، ولم أظلم إنساناً، ولم أسئ
استخدام حيوان

لم أرتكب حماقة مكان الحق، لم أسع لمعرفة الأسرار، لم
أنظر إلى عورة

لم آت باسمي قبل اسم الإله، لم أغضب الرب، لم أبدد
ميراث يتيم

لم أشبعامل عند رئيسه، لم أتسبب في تعاسة، لم أترك
جائعاً

لم أقتل...».

تابع نفي ارتكاب الخطايا عن نفسك، لا تدع صوتك يرتجف ولا
عينك تحيد عن أعين أوزير. في لحظة ما ستشعر أن نظرتة لانت ومحياه

رق، عندها فلتنقل حديثك إلى هيئة المحلفين، أرباب الأقاليم.

«أنت يا واسع الخطوة القادم من أنو، أنا لم أظلم

أنت يا من تحيطه النار القادم من شري-عحا، أنا لم أسرق

أنت يا صاحب المنقار القادم من خمنو، أنا لم أكن جشعاً

أنت يا ذا الوجه المخيف القادم من راستاو، أنا لم أقتل

أنت يا ساكن الأعماق القادم من إمنت، أنا لم أجعل أحداً

يبكي...». مكتبة سُر من قرأ

ستلاحظ أنه لا الأقاليم تطابق تماماً أقاليم عالم الأحياء ولا الآلهة

تطابق الآلهة. ربما هم رموز تنوب عن الأصليين، أو هم أقاليم وآلهة

دواتية توازي المعروفين، لكن لا تشغل بالك، التزم بالنص بين يديك

ولا تحاول تغييره، فاهوامش والملاحق في النصوص الجنائزية تؤكد أن

تلك النصوص أكيدة التأثير ومجربة ملايين المرات.

تختتم خطبتك بنفي آخر الجرائم: «وأنت يا من تمد ذراعيك،

القادم من ساحة العدالة (ماعتي)، أنا لم أسئ لإله مدينتي».

ثم تسكت، ويسود الصمت. تنزاح العيون عنك بالتدريج، للحظة

تشعر بانزياح ثقل النظرات عن كاهلك، لكن الثقل يعود أضعافاً عندما

تنظر إلى حيث تتجه أنظار الجميع الآن، إلى أوزير. يعشق أوزير أن يكون

محل الأنظار، يستمتع بتلك اللحظة، بشدة الأعصاب وارتجاف القلوب.

يجب أن تدرك هذا، يجب أن تتمالك نفسك وتتحكم في أعصابك، أترى

كيف يرتجف قلبك بين يدي إنبو؟ هذا لا يصح، يجب أن يكون قلبك

في أهدأ حالاته، في أخف حالاته. تنفس بعمق، اهدأ، أحسنت، ها هو

قلبك يرتخي.

أوزير يرفع يده، إنها الإشارة.

يتجه إنبو إلى الميزان حاملاً قلبك. إنبو ليس مثل أبيه، لا يتحرك بدرامية ولا يأبه لأن يكون مركز الانتباه. مشيته واثقة بغير تباؤ، حركاته لا هي سريعة متعجلة ولا بطيئة متكاسلة. يضع إنبو قلبك في كفة الميزان قبالة الريشة. تتأرجح الكفتان، ومعهما تتأرجح نظراتك، ويتأرجح مصيرك.

عمميت يسيل لعابها وتلمع عيناها، تنظر إلى قلبك في شوق. آه يا قلبك.

ما الذي سيحدث الآن؟

لا أعلم، لا أحد يعلم، حتى أوزير ذاته. لا أحد يستطيع أن يتحكم في الميزان، إنه العنصر الوحيد في هذا العالم الذي لا يمكن التأثير عليه ولا التلاعب به، لا يُتقدم له بقربان ولا يأبه بصلوات الكهان. وريشة ماعت هي نظام الكون والعالم، حتى أتوم-رع لا يستطيع العبث بها دون أن ينقلب الكون كله رأساً على عقب.

بعد انتهاء التأرجح، لو خف قلبك عن ريشة الماعت أو استوى الميزان، فقد نجوت، ولن يحزن اليوم إلا عمميت التي كانت تمنى نفسها بوجبة شهية. أما لو ثقل قلبك عن الماعت، فستركض عمميت من دون حتى انتظار إشارة، وتقفز على الميزان وتلقف قلبك بفكها التماسحي المريع، وتمضغ.

لا نعلم إن كنت ستفنى في حال أكلت عمميت قلبك أو لا، فمع أن الكثيرين يرجحون أنك سينتهي وجودك إلى الأبد، لكن لا تنس أن القلب أحد مكوناتك العديدة، لا تزال بقية أجزاء روحك وجسدك موجودة بشكل أو بآخر. هل ستفنى بقية الأجزاء مع القلب؟ أم أن مصيرها يؤول إلى مراحل وكهوف وبحيرات العذاب، مثل تلك الأرواح الملعونة التي يمر عليها رب الأرباب في رحلته الليلية؟ هذا سؤال أتمنى ألا تجد الفرصة للإجابة عنه، أتمنى أن يكون السؤال الذي يشغل بالك وقتها: أي مصير من مصائر الناجين ينتظرني؟

لا نعلم أيضًا يقينًا ما الذي سيحدث إن نجوت، لا تركز السجلات على تلك النقطة. لكنني أراهن على أن دحوتي سيقودك في رحلة بيروقراطية طويلة لاستكشاف خياراتك في العالم الآخر وتسكينك في أحدها بعد استيفاء أوراقك. لا أعتقد أن مصيرًا بعينه سيحدد لك ويُحسم الأمر إلى الأبد، بل أميل إلى أنك ستوضع في مكان ما يقارب مكانتك في الحياة السابقة، لو كنت فلاحًا أو خادماً لن يتغير حالك كثيرًا، ولو كنت مالك أراضٍ فحقول الدوات واسعة وسيُخصص لك بعضها، ولو كنت وزيرًا أو كاهنًا فستنضم إلى الجهاز البيروقراطي الهائل تحت أوزير بقيادة دحوتي، إله موظفي الآلهة والأحياء والموتى، ولو كنت ملكًا فهنيئًا لك بركوب مركب رب الأرباب أو الاندماج مع أوزير ورع. وأيًا كانت المكانة التي ستُخصص لك، بوسعك دومًا عقد التحالفات وتكوين العلاقات والتزلف إلى الأشخاص المناسبين، كما كانت تسير الأمور في عالم الأحياء بالضبط، وشيئًا فشيئًا، ستتمكن من الاستيلاء على مكانة شخص آخر يستحقها أكثر منك لكنه لا يعرف

بهذا نكون قد اختتمنا عرضنا الوجيز لأهم ما ستقابله في عالم الموتى، العالم الذي بات مع الزمن يفوق عالم الأحياء أهمية.

أتمنى أن تكون قد أكملت أو قاربت على إكمال دراستك للنصوص التي ذكرناها، وصارت روحك جاهزة لخوض الرحلة المباركة، وعسى أن تتسع قراءتك لإكمال هذا الكتاب، فقد شارف على الانتهاء، وربما يفيدك إلمامك بما فيه أيضًا. لكن قبل أن نتابع، دعنا نردد معًا تعويذة أخيرة: تعويذة من أجل الخروج إلى النهار والصلاة لرع في الغرب والمديح للكائن في العالم الآخر، ولفتح طريق للروح في العالم الآخر ولخلق مخرج لها وتوسيع الخطوة والدخول والخروج في مملكة الموتى والتحول في صورة روح حية؛ أي أنها تعويذة لكل شيء تقريبًا:

«رع هو السلام الساري في أوزير عند شروق سيد الأرواح
النورانية لآلهة الغرب

أنت الفريد، صاحب أسرار العالم الآخر، الروح الخفية في
الغرب، الكائن الجميل الحي، دائمًا وأبدًا

وجهك منير، أيها الكائن في العالم الآخر، وابنك حروسعيد
بك، فأنت منحته القوة

وجهك منير حقًا أيها الكائن في العالم الآخر

مزقت النأئحات شعورهن لأجلك، ضربن على صدورهن
بأيديهن لأجلك

صرخن لأجلك، ندين لأجلك، بكين لأجلك، لكن روحك
سعيدة

وجسدك تجلى نورًا

روح رع تصعد في الغرب

والأرواح فرحة في كهوفها بقدوم رع إلى الدوات
انظروا، أنا أدخل العالم الآخر، وأفتح مملكة الغرب الجميل
وأثبت الصولجان وغطاء الرأس الملكي لصاحب الاسم الخفي
فلتهتموا بي، أنتم يا من تعطون القرايين لآلهة العالم الآخر
أنا وريث أوزير، افتحوا لي الطريق

أنا على حدود الدوات، راض بوجودي

قسمت القرايين في مملكة الغرب بين أرواح الآلهة
أنا مندوب رع، أنا طائر العنقاء (بينو) المفعم بالأسرار
أدخل نزولًا إلى الدوات، وأخرج صعودًا إلى السماء
أنا صاحب العرش السماوي، أقطع السماء الأخرى في
قارب الشمس

قرباني في السماء، في حقول السماء
وطعامي على الأرض، في حقول الإيارو
أنا القوي أمام أعدائه

أيتها الآلهة والأرواح في صحبة رع، خذوني معكم في

السماء

أنا روح محروسة في مملكة الغرب»^(٦١).

(٦١) بتصرف من الخروج للنهار TB180.

أبناء نوت

الجزء الثاني





طفولة عليلة وتدريب مقتضب

١

امرأة بائسة تحمل رضيعًا وتطرق بابًا عاليًا لبیت كبير، في يوم مطير بارد، بإحدى القرى في شمال الوادي.

المرأة ورضيعها منقوعان في الماء والوحل، لكن حتى مع الصقيع البالغ يكاد الطفل المحموم يحرق صدر أمه، مثل جمرة، ويرتجف من شدة المرض. لا يزيدها ذلك إلا تشبثًا به، في محاولة يائسة لوقايته من العاصفة.

تبكي الأم وتنادي، تسأل المأوى والمعونة.

بعد برهة، يفتح الباب، ومعه تنفك أسارير الأم أملًا. تظهر امرأة ممتلئة حسنة الثياب والزينة.

تهتف الأم: «النجدة، ابني مريض، نحتاج إلى...».

لكن نظرة واحدة من سيدة الدار على مظهرها المزري، كانت كافية حتى تصفع الباب في وجهها.

٢

بعض السجلات تذكر أن حمل إيزة بحرو ومخاضه كانا مثل بقية الآلهة، حمل وجيز وميلاد سريع ونضج مباشر، حتى إنه طبقاً لتلك السرديات شارك في تخنيط أبيه وحمايته من عدوان ست وطقوس تنصيبه ملكاً على الدوات.

لكن السجلات الأوفر والأدق تؤكد أن حمل إيزة في حرو كان عادياً شبه بشري (على الرغم من ظروف تلقيحه الاستثنائية)، استغرق من الشهور عشرة، وتم بمخاض أليم، تبعته فترة رضاعة ثلاثة أعوام. بعد ذلك لم تنتهِ معاناة الربة الأم -ربة الأمومة، التي تخبر لأول مرة عن كذب الأمور التي كانت ترعاها سابقاً من بعيد- إذ إن الشيء الوحيد الذي ميز الطفل الإله الذي يُفترض به هزيمة الشرير واستعادة الملك المغصوب، كان رأس الصقر الذي حمله منذ طفولته المبكرة، بل والبعض يفترض أنه حمله منذ كان جنيناً، أما فيما عدا ذلك فقد كان طفلاً نحيلًا واهناً دائم المرض، بطيء النمو مثل أي طفل بشري ضعيف التغذية، أُصيب على مدار طفولته الطويلة الممتدة بكل أنواع الأمراض والأخطار التي قد تصيب طفلاً بشرياً أو إلهياً على السواء، بدءاً من ديدان المعدة،

وحتى تلك المرة التي رضع فيها من ثدي أمه - من دون قصد منها - بدلاً من اللبن عفريتاً.

وكان على إيزة التعامل مع كل هذا، بلا معونة إلا من حوت - نبت المغلوبة على أمرها ولم يعد لها أحد سوى شقيقتها. حتى إنبو تركهما ليتولى دوره في مملكة العالم الآخر الجديدة. وما عاد يذكرها من الآلهة - التي إما نسيتها أو تناستها - إلا ست، الذي ما برح يفتش عن ابنها وقد أقسم أن يقضي عليه قبل أن يكبر ليطالب بحقه.

ويبدو أن تلك الظروف كانت ثقيلة الوطأة - مثلما ستؤكد بلا شك أي أم تواجه العالم بمفردها - حتى أن إيزة، بعدما تركناها ساحرة قادرة على أن تشفي ابن ملك جبلا وتكاد تمنحه الخلود، أمست الآن هائمة على وجهها بين أحراش ومستنقعات وقرى شال الوادي، هاربة من عيون الملك ومستجدية المأوى والعون على علاج طفلها السقيم دوماً، ما عاد سحرها يكفيها ولا ثبات قلبها يغنيها.

وفي تلك المرة، وهي مرة من بين مرات لا حصر لها مسّ حرو فيها الضر وعانت إيزة كل المعاناة حتى تشفيه، كان الرضيع قد لدغته خطأ أثناء اللعب عقرب، وهي واحدة من سبع ربّات عقارب ثانويات كلفتهن إيزة برعاية وحماية حرو بعدما اضطرت إلى تركه في العراء، كي تذهب وتتسول حاجاتها من قرى البشر مع أختها، ما يشير إلى مدى تدهور الحال الذي أصابهم في تلك الفترة الوجيزة. وعندما عادت الأم والخالة وجدتا السم وقد سرى في دماثه، والحُمى وقد اجتاحتته، والأرض حوله وقد غرقت في دموعه ولعابه، وقلبه وقد توقف عن النبض.

لم تفلح تعاويذها السحرية ومهاراتها العلاجية في شفائه، خاصة مع تعجلها وقلة مواردها، ثم جاءت العاصفة الممطرة لتزيد الأمر سوءاً، فلم تجد إيزة بدءاً من حمل ابنها على صدرها والركض في القرى بين البيوت، تسأل المأوى والمعونة والطمأنينة. وهذا ما أدى بها إلى ما شهدناه، عندما رفضتها المرأة الغنية وتعالَت عليها وأغلقت في وجهها الباب، من دون أن تعلم بحقيقتها الإلهية.

لكن لم يطل الوقت قبل أن ينفتح باب آخر للأمم الباكية، باب امرأة فقيرة لا تكاد تجد قوت يومها، ومع ذلك رحبت بإيزة وابنها واستضافتهما عندها، ووفرت لهما أقل القليل المتاح لديها.

تحت سقف السيدة وفي ظل تعاطفها الصادق، تمكنت إيزة أخيراً من صنع ترياق فعال ضد سم العقارب، أعاد النبض لقلب حرو وبدأت الحمى تهدأ.

أما العقارب السبع، فقد تحول حزنها وندمها تجاه ما فعلته بحرو، إلى حنق وغضب تجاه السيدة الغنية مغلقة الأبواب، وأجمعن على الانتقام منها. جمعت الربات العقارب السبع سموها كلها في ذيل إحداها، اسمها تفن. وتسلفت تفن إلى بيت المرأة الغنية، ولدغت ابنها الذي كان في نفس عمر حرو تقريباً.

مرض ابن الغنية مثلما مرض حرو، وفشلت أمه في علاجه كما فشلت إيزة من قبل، ولم يمضِ الكثير قبل أن تخرج وتهيم بين البيوت وتطرق الأبواب بحثاً عن من يساعدها، وبالطبع، كما هي الحال في القصص المشابهة، قُفلت الأبواب في وجهها، وتذكرت ما بدر منها نحو

المرأة التي فعلت معها المثل من قبل، وندمت ندمًا شديدًا.

نما ذلك إلى علم إيزة، التي هدأت واستكانت بعدما اطمأن قلبها على ابنها، فرق قلبها على المرأة وغفرت لها. ذهبت إيزة إلى المرأة وأخذت معها العقارب السبع، وأمرتهن بسحب السم من جسد الطفل، ففعلن، وشُفي الطفل مثلما شُفي حرو، وتعلمت الغنية درسها - كما يتعلم الأغنياء الدروس في الحكايات - وأقسمت ألا ترد الباب في وجه سائل بعدها أبدًا.

أما السؤال المنطقي الذي يدور بخلدك الآن، فأرجوك لا تسأله... لا مكان للأسئلة المنطقية هنا.

٣

والأحداث المشابهة كثيرة، حتى إن حرو الصغير انفصل مع مرور الزمن عن حرو ابن إيزة وأوزير، وأصبح إلهًا مستقلًا اسمه حرو-بو-قراط، أي «حرو الطفل»، وهو نموذج للطفل الواهن الضعيف الذي تتغمده الآلهة بالرعاية حتى يشفى ويكبر.

لو قررنا إذن سرد حكاية كل مرض وضرر أصاب ابن إيزة في طفولته، لاحتجنا إلى كتاب كامل. لذا سنكتفي بما سبق، مع التأكيد على أن ما مرت به إيزة في تلك الفترة لم يكن هينًا، وسرى أثره على شخصيتها - التي عهدناها سابقًا قوية ذكية حصيفة ماهرة - في المستقبل غير البعيد.

أما مراهقة حرو فلم تشهد أحداثاً تُذكر، باستثناء إصرار إيزة الحاسم -والعصابي أحياناً- على تذكير الفتى بمهمته الكبرى باستمرار. عندما يستيقظ من نومه تطلب منه غسل وجهه وأخذ ثأر أبيه، عندما يخرج ليلعب تحمله على أن يستعيد ملكه المغتصب، عندما يسهر ليلاً تترجاه أن ينام مبكراً كي لا يتأخر عن مواجهة عمه القاتل. تحكي السجلات باستفاضة عن لحظات البطولة والملاحم الكبرى، لكنها لا تأبه بالتفاصيل اليومية المملة لفتى لا تنفك أمه تلح عليه كي يستعد لمعركته البطولية. ربما كانت تلك الأوقات الأكثر صعوبة في حياة حرو من كل الأوقات الشاقة اللاحقة.

مع ذلك، يصعب إنكار أنه لولا إصرار إيزة على تربية ابنها هذه التربية الصارمة القاسية، ما كان حرو ليصبح بطلاً وملكاً ومحققاً، بشكل ما، للعدالة على الأرض. ربما لو اتبعت إيزة قواعد التربية الإيجابية وتركت ابنها يبحث عن شغفه، فيصبح نحاً أو رساماً أو مزارعاً مثلاً... ما كان العالم ليستقيم ولا كان المستقبل ليتحقق بالشكل الذي صارت إليه الأمور حتى اللحظة الحالية التي أحدثكم فيها عن أبناء نوت ومآثر إيزة وابنها.

لكن، وعندما أمسى الفتى على أعتاب النضوج، ها هو الأب الغائب يأتي في زيارة مفاجئة من عالم الموتى إلى عالم الأحياء، بهدف تدريب ابنه وتجهيزه للمعركة المرتقبة.

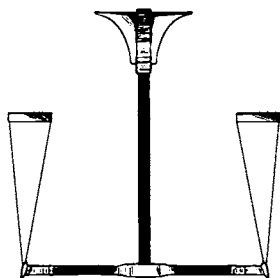
لساعات طوال، يقف أوزير بذراعيه معقودتين أمام صدره، تحمل إحداهما عصا الراعي والأخرى المذبة، وملفوف بذات الكتان الموميائي

الذي لَقَّه به إنبو ساعة التحنيط وصار من حينها زيه الأبدي الذي لا يتبدل، يقف مراقبًا باستحسان وقور حرو يجري وحرو يقاتل دمي التدريب بالسيف وحرو يصارع التماسيح وأفراس النهر، ويرمي تعليقًا مقتضبًا من حين إلى حين يفيض بما يحسبه الحكمة لتحسين أداء حرو. في نهاية اليوم يقف حرو متعرقًا أمام جثة أبيه العائدة من الموت، كي يلقي عليه أوزير أسئلة يُفترض منها أن تكون اختباره النهائي:

«أي الأفعال أنبل عندك؟»، «أن يقتص المرء لأبيه وأمه ويتنصر على الشرير الذي أذاهما»، فتفزع أسارير رب عالم الموتى ويتابع الاختبار: «أي الحيوانات أنفع للمرء الذهاب لخوض معركة؟»، «الحصان»، يُذهل أوزير من إجابة ابنه، «أليس الأسد أقوى وأجدى؟»، «الأسد أقوى وأكثر قدرة على الفتك بالعدو، لكن الحصان قادر على مطاردة العدو الهارب وقطع طريقه، ومن ثم القضاء عليه وعلى كل أعوانه بسهولة».

ساعتها يدرك أوزير أن حرو بات جاهزًا لمجابهة ست واستعادة الملك المغصوب، ويعود مغتبطًا لمملكة الموتى وهو يشعر أنه قام بواجبه في تربية ابنه، وأن الساعات التي قضاها معه في التدريب وإلقاء الأسئلة العميقة هي التي ستجعله محاربًا جبارًا وملكًا عظيمًا، لا كل تلك السنوات التي قضتها إيزة في الحماية والتربية وتحمل الصعاب، فأفعال النساء، كما نعلم جميعًا، لا قيمة لها في عالم الرجال.

هكذا صار حرو أخيرًا جاهزًا للسعي لاسترداد الحق ومجابهة الشرير. عدا أن المعركة القادمة لن تكون على صهوة الأحصنة كما تنبأ الفتى، بل في قاعات المحاكم.



المحاكمة

١

أحد أهم وأطول وأغرب السجلات عن الصراع بين الابن الشاب والعم القاتل، هو ذلك الذي يسرد تفاصيل اجتماع الآلهة في محاكمة طويلة تهدف لحسم مسألة الأحقية بالعرش نهائيًا. يبدأ السجل فورًا بسرد وقائع أولى جلسات المحاكمة، من دون أي تمهيد لملاسات عقدها.

لا يسعنا إلا التساؤل والتكهن: هل كانت إيزة هي صاحبة فكرة المحاكمة، وقد خشيت على ابنها من بطش ست لو دخل معه في مواجهة مباشرة؟ إن حرو، على الرغم من تدريبه وتجهزه للمواجهة منذ نعومة أظافره، يظل غصًا طريًا، وجل خبرته في القتال جاءت من التدريب على يد أوزير لبعض ساعة. بل إن أوزير نفسه لم يكن من خيرة مقاتلي الآلهة عندما كان حيًا، وربما كان مصيره ليختلف لو كان كذلك. في المقابل وُلد ست مقاتلاً عاتياً لا يقف أمامه أحد. لعلها إيزة وقد سعت لإيجاد سبيل سلمي لنيل مبتغاها عوضاً عن القتال.

وسواء كانت إيزة أو غيرها، من أين جاءت أصلاً فكرة المحاكمة؟ هل كانت محاكاة لمحاكمات عالم الموتى للراجلين؟ أم أن الفكرة خطرت لمن حضر واقعة بابا ودحوتي، التي يمكن أن نعتبرها السابقة الأولى للمحاكمات في عالم الأحياء؟

إنها واقعة أقل ما يُقال عنها إنها تافهة ومحرجة، لكنها قد تفسر أصل الفكرة.

بابا، وهو إله قوي له هيئة بابون أحمر الأذنين بنفسجي المؤخرة، مسؤول عن فتح وقفل السماء باستخدام مفتاح خاص؛ عضوه الذكري (ولا عزاء لنوت). كان بابا قد رأى دحوتي ذات يوم يختلس القرايين، فذهب البابون إلى كبار الآلهة وحكى ما رآه، وأثار لغطاً كبيراً حتى قررت الآلهة الاجتماع للبت في ذلك الاتهام، والسماح للبابون الآخر، المتهم، بالدفاع عن نفسه. لكن بابا عالي الصوت فظ الحديث نابي اللفظ لم يستطع أن يضاهي بلاغة دحوتي ودهاءه، واستطاع دحوتي إقناع الآلهة أن بابا ليس فقط كاذباً، بل هو أحق لا يُعتد بكلامه ولا يُؤخذ برأيه. هكذا كانت أولى المحاكمات الرسمية ليست أكثر من تجمع هزلي مرتجل، لكنها صارت على ما يبدو النموذج الأصلي المتبع لحل الخلافات بين الآلهة.

لكنها لم تكن نهاية حكاية البابونين، فقد أضمر دحوتي في نفسه الانتقام ممن جرؤ على اتهامه علناً بشيء يعرف الجميع سرّاً أنه فاعله. بعدها بأيام، استغل دحوتي انخراط بابا في ممارسة جنسية مع امرأة مجهولة الهوية واستخدم سحره ليجعل مفتاح بابا للسماء ينحشر داخل شريكته.

ذعر بابا وأخذ ينتفض محاولاً إخراج شيء ويصرخ طالباً المساعدة. أما دحوتي فلم يكتفِ بالضحك عليه، بل استدعى مجلس الآلهة مجدداً كي يشهدوا وضع بابا ويشاركوه السخرية من البابون المسكين، بمن فيهم رع ذاته الذي قهقهه حتى سالت دموعه وهو يتابع المشهد. لما تمكن بابا أخيراً من تحرير نفسه، استل سلاحه وانقض على دحوتي يبغى قتله، لكن دحوتي تلفظ بتعويذة جعلت أسلحته ترتد عليه وتطرحه أرضاً، تحت أنظار الأرباب وربهم المستمتعة.

أكانت المحاكمة إذن بطلب من إيزة تيمناً بتلك الواقعة؟ أم بمبادرة من الآلهة الكبار الذين تبرعوا بالتدخل السلمي لحل النزاع؟ ومن ذا الذي أقنع رب الأرباب أن يترأس المحاكمة وهو المترفع عن المسألة؟ ومن أقنع ست بإخضاع نفسه للتحكيم؟

كل هذه الأسئلة وأكثر، لا تجيب عنها الأحداث التالية، بل تثير المزيد منها، وستظل الإجابات محجوبة لا سبيل إليها.

لكن متى اكترث التاريخ بفضولنا؟

٢

استهل دحوتي أولى جلسات المحاكمة، بسرّد حاول أن يجعله مقتضياً لمعطيات القضية، منذ مات أوزير ميتته الأولى - هنا قاطعته إيزة بحدة لتصحيح: لم يمت، بل قُتل، وهذا قاتله - وحتى اللحظة الحالية، التي يتنافس فيها ابن أوزير وشقيقه - لتصحيح إيزة مرة أخرى:

وقاتله-. ومع أن حرو وست كانا يجلسان وجهًا إلى وجه؛ حرو وإيزة متجاوران على يمين القاعة، وست على يسارها، لا يجلس جواره أحد، إلا أنك لو ألقيت نظرة عابرة على القاعة، ثمة احتمال غير صغير أنك لن تلاحظ حرو من أول نظرة، على العكس تمامًا من الوجود الكاسح لست الذي لا تخطئه عين؛ إذ كان الفتى منكشًا على نفسه، مضموم الساقين محني الظهر زائغ النظرات لا يبدو عليه الإنصات، حتى سلاحه المتدلي من جانبه في غمده لم يمنحه هالة القوة المرغوبة. في المقابل، يجلس العم أمامه عاري الجذع منفرج الساقين مفتول العضلات منتصب الظهر متأهبًا وكأنه يقاتل أو يصطاد، يزجر مع كل تدخل في غير محله من إيزة، ويداعب طرف حربته المنتصبه بأصابعه وهو يتأمل الفتى النحيل قبالة، ويستمتع بتخيل أين سيضع نصله أولًا.

أما إيزة، فعلى الرغم من كل النظرات الزاجرة المستترة من دحوتي، وكل الهمزات واللمزات والهمسات من حوت-نبت وحوت-حرو وتفنوت، التي تؤكد لها أن حق ابنها سيعود حتمًا، فقط عليها أن تتحلى بالهدوء كي لا تثير حفيظة رب الأرباب الذي رضخ لقيادة المحاكمة على مضض، على الرغم من كل ذلك لم تتمالك نفسها من النهوض ومقاطعة دحوتي ورمي ست بالاتهامات والإساءات واللعنات بين كل كلمة وأخرى.

وأخيرًا، بعدما انتهى الوزير من كلمته الافتتاحية، التفت إلى ملك الآلهة الجالس على عرشه في رأس القاعة -ويكاد المراقب الجاهل للمشهد يحسب أن قرص الشمس ليس في عينه ولا على رأسه، بل تحته،

من فرط تملّله في مجلسه وزفيره الساخط الضجر الذي يصدر كل بضع ثوانٍ - وسأله: «هَلَّا شرفنا مولاي بكلمته؟». لكنه لم يجد منه ردًّا سوى تلويح يده بإيماءة بمعنى بلا كلمة بلا قرف، خلصنا، فالتفت بعدها إلى جمهرة الحضور:

«هل من بين الآلهة الكرام من يود مشاركتنا برأيه في قضيتنا اليوم؟».

تجاهل تلويح إيزة ونداءاتها طلبًا للكلمة، بعدما رماها بنظرة من قبيل ليس الآن، اصبري، وظل يبحث بين زمرة الآلهة المترددة عمن يود - أو يجرؤ على - المشاركة. أخيرًا ارتفعت يد مترددة، فأشرق وجه دحوتي: «اشتقنا لصوتك يا رب الهواء، تكلم».

تنحنح شو، وتحدث برفق: «أظن أن سنة العالم واضحة، أنا أول من ورث الملك عن أبي، وانتقل الملك مني، بشكل أو بآخر، إلى جب ابني، وورثه عنه ابنه أوزير. الماعت إذن تقتضي أن يرث ابن أوزير ملك أبيه».

سرت بين الحضور همهمة مستحسنة، تبعها رد دحوتي: «قول لا يخلو من حكمة يا شو»، والتفت بهدوء ليوواجه أتوم - رع، فقط لتقاطعه صيحة فرح عالية من إيزة - على الأرجح كانت زغرودة، لكن كاتب السجلات وقتها لم تكن في جعبته لفظة تميز الزغاريد عن غيرها - واستدعت الرياح لتحملها نبأ انتصار حرو، وترسلها غربًا كي تبشر أباه.

وبينما كان حرو يشد رداء أمه ويترجاها همسًا أن تجلس ولا تخرجه أكثر من ذلك، صدح لأول مرة صوت خالق الكون: «أرى أنكم اتخذتم قراركم وحدكم، لماذا إذن كلفتموني عناء الحضور ما دام رأيي لا قيمة له؟».

همهم أتوم-رع بأصوات غير مفهومة، أخذ يدير رأسه هنا وهناك، متحاشياً النظرات المتلهفة المصوبة إليه من الجميع، خاصة من إيزة وست. لما انقضى وقت صامت مريب، عاد دحوتي وتكلم: «ما قول مولاي لو طلبنا مشورة خارجية، رأياً من شخص محايد لا علاقة له بالمسألة، من شخص يحبه مولاي ويثق في رأيه؟»، قال أتوم: «من عساه هذا أن يكون؟»، «نيت».

أشرق وجه صاحب الشمس لأول مرة. «نيت، نعم، كم أفتقدها، أين هي الآن؟ لم أرها سوى مرة واحدة منذ ساعة الخلق. هل حكيت لكم عن كيف أنقذتني من عاب؟»، وانخرط رب الأرباب في حكي تفاصيل معركة الخلق الأولى وتدخل نيت، المعركة التي يحفظها الحاضرون عن ظهر قلب، من دون أن يجروأ أحدهم على مقاطعته، حتى إيزة التي تعض على شفتيها محاولة كبح توترها.

ولما انتهى بعد حين، قال دحوتي: «كم هي حكاية عظيمة يا مولاي. إنها، كما لا يخفى على علمك، قد ذهبت واستقرت في صاوا^(٦٢). ولها بالمناسبة ابن قاتل أيضاً، أقصد ابن محارب لا يتمالك أعصابه في بعض الأحيان، الإله سوبك ذو رأس التمساح... لذا قد تفهم ما لا يتفهمه غيرها».

«اكتب لها إذن واسألها المشورة».

وجاء الرد من نيت.

(٦٢) إقليم صاوا، الذي سماه اليونانيون لاحقاً سايس، هو قرية صا الحجر بمحافظة الغربية الآن. عبد القدماى نيت على أنها ربة للحرب والحكمة في آن واحد، وهو مزيج قلما حظي به أحد الآلهة القدماى، ما حدا اليونانيين إلى مساواتها بالربة التي تلعب ذات الدور عندهم: أثينا.

كيف ومتى انتهى دحوتي من كتابة الرسالة وأرسلها؟ وكم استغرقت في الطريق؟ ومتى وجدت نيت الوقت الكافي للقراءة والتدبر وكتابة الرد وإرساله؟ هكذا تجري الأمور بين الآلهة، ثمة أفعال تحتاج من البشر إلى أسابيع وشهور لكنها تنتهي بينهم في لحظة، وثمة أفعال تحتاج من البشر إلى أسابيع وشهور تستغرق عندهم قرونًا، وليس لنا أن نعترض أو نتعجب في الحالتين.

رد نيت كان: «دعكم من الظلم وأعطوا عرش أوزير لابنه، أما ست فأغدقوا عليه الأراضي والأملأك، وامنحوه عنات وعشتار زوجتين».

عنات وعشتار^(٦٣) هما ربتا حرب ثانويتان من بنات أتوم-رع، وهما في غاية الجمال والقوة في الآن ذاته، حتى إن عيني ست لمعتا عندما سمع تلاوة دحوتي للخطاب، وبدا أنه يفكر فيه جدًّا. علت همهمات الاستحسان بين الآلهة مجددًا بعد أن حسبوا أن المحاكمة قد تنتهي أخيرًا على خير، لولا أن رأوا رب الأرباب واجمًا، يقلب بصره بين حرو وست بنظرة بين المشمزة والمتعاطفة. بعدما ساد السكون أخيرًا، وجه سؤاله لكليهما: «ما الذي يجعل كلاً منكما يحسب أنه الأجدر بالملك؟».

امتعضت إيزة من تجاهل أبي الآلهة لخطاب نيت بعد تحمسه السابق لسماع رأيها، لكن قبل أن تعترض كان ست قد سبقها للرد على السؤال: «إنما أنا ست ابن السماء، أقوى التاسوع، أنا من يقف على مقدمة معندجت ويردع ثعبان الفوضى كل يوم. لا يوجد بينكم يا معشر الآلهة

(٦٣) يرجع أصل الربتين للحضارات الشرقية في سوريا والعراق، لكن الديانة المصرية وجدت فيها إضافة جيدة وعدتها ابنتين لرب الأرباب. ومع أن الأسطورة لا تذكر بوضوح أصلهما الأجنبي، فافتراح تزويجهما لست إله الصحراء وكل ما هو أجنبي يطن ذلك.

من يستطيع أن يحمل محلي والذود عن الكون ورب الأرباب مثلي. إنما أنا ست ابن الأرض، والأجدر بالعرش».

همهمات الاستحسان هذه المرة كانت من نصيب ست، وشارك فيها حتى أتوم-رع الذي هز رأسه لأول مرة راضياً.

أما حرو، فنهض أخيراً، وأزاح أمه التي كانت تحاول أن تجيب -كعاداتها- بدلاً منه، وقال بصوت رغم وجله حمل شيئاً من القوة: «لا أعرف كيف يجد حديثك الخاوي من المعنى آذاناً تصغي له! كيف تتركونه يسلبني حقي، عرش أبي، في حضور التاسوع المقدس وبرضا الآلهة ورب الأرباب؟».

وهنا، أفصح رب الأرباب أخيراً عن انحيازه الحقيقي: «بل كيف نمنح الملك لصبي واهن عطن النفس مثلك؟».

لم يتساءل أحد عن علاقة الملك برائحة النفس، وإنما ضجت القاعة بالهقهقات والشهقات ونحيب إيزة وصياح ست إثر تصريح أتوم-رع، فيما أخذ حرو ينفخ في كف يده ويتشمم بحثاً عن الرائحة الكريهة في نفسه. وسط كل تلك الفوضى، نهض فجأة بابا، إله مفتاح السماء المميز سابق الذكر، والذي يبدو أنه لا يزال حانقاً على نظام العدالة المقلوب عند الآلهة، وتقدم إلى الأمام وهتف في أتوم-رع:

«إن هذه المحاكمة برمتها مضیعة للوقت، يديرها لص ويرأسها عجوز خرف. يا رع، إن عرشك لخاص».

وكان هتافه أعلى من كل ضجيج، سمعه الحضور وكل من صادف وجوده عما قريب. بعد لحظة صمت مذهول، انفجر الآلهة جميعاً في بابا

يلومونه على ما قال، من دون أن يلاحظوا أن رب الأرباب المُهان، قد تلقى الإهانة في صدره، ونهض في هدوء وانسحب إلى غرفة جانبية، وأغلق الباب وراءه.

وبذا انتهت الجلسة الأولى.

٣

طال استياء رب الأرباب واعتكافه الحزين، وبغيا به ظلت المحاكمة عالقة غير محسومة والأجواء مشحونة، والأرض بلا ملك، وإن ظل ست يتصرف على أنه الملك الأوحد، ولم يخالفه أحد.

باءت كل محاولات الآلهة بتطبيب خاطر أتوم-رع بالفشل، وظل مكتئبًا حتى تدخلت أقرب المخلوقات إلى قلبه، حوت-حرو قرّة عين أبيها، اقتحمت عزلته وداعبته ولاعبته حتى رق مزاجه وانبسط عبوسه وقهقهه عاليًا حتى استلقى على قفاه، ووافق أخيرًا على متابعة المحاكمة.

لكن في الواقع، لم تختلف الجلسة الثانية كثيرًا عن سابقتها، ولا الثالثة ولا الرابعة في المجل، كما سئرى؛ تتجادل الآلهة عن من الأحق بالعرش -من دون أدنى اهتمام بمقتل أوزير ولا إن كان قاتله يجب أن يُعاقب، في أوضح تجسيد لقول الحي أبقى من الميت- وإيزة تقاطع بين كل كلمة وأخرى، وست يثور غضبًا، وتميل كفة الحديث نحو منح حرو الملك، فيغضب رب الأرباب الأمل لست والأحوج لقوته في قتال عاب، ويسب حرو أو الجميع.

وكان في نهاية الجلسة الثانية أن ثارت ثائرة ست ورفع ربحه، وأعلن أنه سيقتل الآلهة كلهم لو لم تنفض هذه المحاكمة.
وانفضت المحاكمة.

ولم تعقد مرة أخرى إلا بعدما داهنوا ست ورجوه، فوافق أخيرًا على متابعة المحاكمة، بشرط واحد: منع إيزة من الحضور، فوجودها يثير أعصابه.

وافقت الآلهة -إلا إيزة طبعًا- على شرط ست، وتقرر عقد الجلسة الثالثة فيما سمته السجلات «الجزيرة التي في المنتصف»، وأبقوا المكان سرًا عن إيزة.

٤

كيف يعبر الآلهة النهر لحضور المحاكمة في الجزيرة؟ على الأرجح بوسع كل منهم التحول إلى طير ما أو سمكة ما لعبور النهر بسهولة. لكن يبدو أن اللقاءات الرسمية تستدعي إجراءات رسمية للحضور، يجب أن تكون هناك وسيلة نقل معتمدة من نوع ما لا يُحتسب الحضور من دونها. هكذا جاء نمتي نوتيُّ الآلهة مجددًا بقاربه ليقدم الحل. كان نمتي قد عوقب بسلخ لحمه عن جسده بعد خيائته أوامر إيزة وقت تحنيط أوزير، لكن أعوامًا كثيرة قد مرت ويبدو أنه قد شُفي بشكل ما ونما له جلد جديد، وترقى حتى صار نوتيًّا رسميًا يُستعان به في الشؤون الهامة، ولعل ذلك يرجع إلى استمرار ست في السلطة، ما يتيح لمعاونه

فرص الترقى. تلقى نمتي تعليمات صارمة بعدم توصيل إيزة إلى الجزيرة التي في المنتصف، وعلى سبيل الحيلة من تنكرها في هيئة أخرى، منع النساء جميعًا من العبور.

عُقدت الجلسة الثالثة من المحاكمة ولم تنفض طيلة خمسة أيام؛ مهاترات عبثية لم تختلف عن سابقتها، الحدث الوحيد الجدير بالذكر هو ما خُمنَ أنه سيحدث طبعًا.

بعد خمسة أيام من البحث المتواصل، تمكنت إيزة أخيرًا من معرفة موقع انعقاد المحاكمة، وفي اليوم السادس، اتخذت هيئة امرأة عجوز، وذهبت إلى نمتي وقالت إنها تحمل الدقيق لصنع الخبز للآلهة العالقين في الجزيرة، لا شك أنهم يتضورون جوعًا بعد كل هذا الوقت. رفض النوتي اليقظ نقل المرأة امتثالًا للأوامر، إلا مقابل رشوة ضخمة أخرى من الذهب بالطبع. رشوة هذه المرة كانت خاتمًا ذهبيًا كبيرًا لامعًا في إصبع السيدة العجوز، ظلت تلوح به أمام عيني نمتي حتى لم يعد قادرًا على مقاومته.

لكن هيئة العجوز لم تدم طويلًا. ما إن حطت قدمها على الجزيرة، حتى اتخذت إيزة هيئة سيدة جميلة حزينة، وجعلت تهيم على وجهها في الجزيرة وتبكي، حتى لمحها ست. الإله ذو الغريزة الحيوانية والمفعم بهرمونات الذكورة، ولم يتمالك نفسه أمام جمال تلك المرأة، فترك المحاكمة واقترب منها مرددًا عبارات التودد والمغازلة، ولما لاحظ حزنها الظاهري سأها:

«ما الذي يبكي الجميلة؟»، «آه يا سيدي، لو أنك تعلم مصابي لبكيت معي. لقد تعرضت لظلم كبير». «أي ظلم؟ أخبريني، فأنا ملك الأرض وما عليها، أخبريني بما وقع وسأرفع عنك كل ظلم»، «يا لك من شهم شجاع، سأحكي لك. كان لي ولزوجي بعض الماشية، وكنا نعيش مع ابنا الصغير هانئين، حتى جاء غريب قتل زوجي واستولى على الماشية، والآن يعيش في بيتي ويضرب ابني»، «يا له من ظالم متبجح، أخبريني من هو لأنتقم لك ولابنك وأعيد لكما ما سلبه منكما».

عندئذ تحولت إيزة إلى هيئة طائر السنونو المفضلة لها، وطار متبعدة عن مجال يد ست، وحطت على غصن شجرة. «إنما أنت هذا الغريب يا ست، لقد أدنت نفسك بنفسك، وعليك الآن أن تراجع عن العرش وتعيده لمن يستحقه».

ثارت ثائثرته وغضب وسب ولعن، ولما لم تظلم يدها محبوبته وعدوته، هرع إلى رب الأرباب واشتكى له من فعلها.

رفض أتوم-رع معاقبة إيزة على مخالفتها للقواعد بناءً على طلب ست، ورد على صياحه المستاء بقول: «أنت من سمحت لها بأن تخدعك إلى هذا الحد».

أما نمتي، فقطعوا قدميه، وكان ذلك آخر ذكر له في حكايات آلهة المصريين.

وانفضت الجلسة الثالثة.

ولم تختلف الجلسة الرابعة كثيرًا.

انعقدت الجلسة هذه المرة على ضفة النهر، وتكرر كل شيء، حتى إن أتوم-رع نفسه أبدى ضجره وقرر حسم القضية الأثقل على القلوب: «طيب، انظر يا ست، أنت تعلم أي أفضلك على ذي الفم العطن هذا، لكن لا مفر من الاعتراف بما هو واضح. العرش لحرو، رُفعت الجلسة».

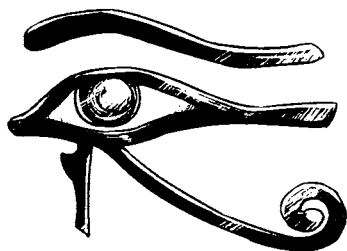
هللت الآلهة جميعًا، وهرعوا لجلب التاج ووضعوه على رأس الصبي المغتبط. لكن ست، كما هو متوقع منه، لم تعجبه النتيجة واثارت ثائرتة، وضرب التاج من فوق رأس حرو.

«لا أقبل بأن يؤول المملك إلى حرو وأنا موجود، أنا أجدر منه به وأحق»، صمت الجميع، انتظروا غضبة عاتية من أتوم-رع أو حتى إبداء انزعاج، أبدى ملك الآلهة الانزعاج بالفعل لكنه التزم الصمت. تابع ست وقد أيقن أن قوله لن يُرد: «إني أتحداك يا ولد في كتم الأنفاس. لنتحول إلى فرسي نهر ونغطس أنا وأنت في حابي، ومن يرفع رأسه منا أولًا فوق الماء، خسر».

قالت إيزة: «هذا هراء، هذه ليست طريقة لحسم مصير الحكم والعالم»، نظرت حولها فلم تجد لها نصيرًا بين الآلهة، «قل لهم يا أبي، يا ملك الآلهة ورب الأرباب، يا صاحب قرص الشمس المقدس، قل لهم أنك حكمت حكمًا نهائيًا لا مرد له».

تحاشى رع النظر إليها، واكتفى بهز كتفيه.

وعندما نظرت إيزة خلفها، وجدت ست وحرو قد تحولاً إلى فرسي
نهر واستعداً للغطس.



العين بالعين، وبغيرها أحياناً

١

نحن البشر، أبناء دموع أتوم، عندما نتبارى في كتم الأنفاس تحت المياه لأطول وقت، يدوم ذلك التحدي لدقيقة أو اثنتين في المعتاد، أو قد يصل إلى أربع أو خمس دقائق في حالة محترفي الغطس والمتدربين على ذلك طويلاً. لذا قد نجد في مراقبة تلك التحديات الإثارة، نعدُّ الثواني بأنفاس لاهثة من فرط الحماس انتظاراً لبروز أحد المتسابقين في أي لحظة. لكن، عندما تكون المنافسة بين آلهة، يطول زمنها لأسابيع وشهور، وربما لأعوام، ما يجعل من مراقبتها عملاً مضجراً ثقيلاً، لا سيما وأن الآلهة قد تعبوا من جلسات المحاكمة الأربع بين المتنافسين، ويتحرقون شوقاً للعودة إلى حياتهم العادية.

هكذا، لما طال بقاء فرسي النهر تحت الماء، انسل الأرباب واحداً تلو الآخر من موقع المنافسة عند النهر، تاركين أمر مراقبتها لتحديد الفائز لعين الشمس المطلعة على كل شيء نهائياً، ولخنسور رب القمر ليلاً. ولم يبقَ منهم، بطبيعة الحال، إلا إيزة.

اعتكفت إيزة على الضفة، لا تتركها، تجلس، تقوم، تروح، تجيء، تتحب، تهدأ، تنام، تحلم، تضطرب، تستيقظ فزعة، تقوم، تروح، تجيء... .

كيف هو ابنها الآن يا ترى؟ إنها تراه، إنه فرس النهر على اليمين، أم هو الذي على اليسار؟ إنها متشابهان، ليته احتفظ بعلامة تميزه، إنه أحدهما على أي حال. لم يتحرك أيهما قيد أنملة منذ غطسا. لكن، هذا لا يعني أن ابنها بخير، لعل ثمة خدعة من ست، لعل ست وجد طريقة لإيذائه تحت الماء من دون أن تراه، أليس هو من اقترح هذه اللعبة؟ لا بد أن لديه خطة سرية شريرة مثل خطة التابوت القديمة، لعله فعلها بالفعل، لعله أذى ابنها، لعله قتله، كيف لها أن تعرف وهي هنا لا تراه؟ بل هي تراه، لا، بل هي ترى فرسي نهر، ما الذي يدريه بأن أحدهما ابنها؟ سحرها؟ قدرتها على الاستبصار؟ حتى هذه تصعب عليها الآن، يعميها اضطراب قلبها واضطراب عقلها. آه يا إيزة، ماذا حل بك؟ أين المرأة القوية الصلدة، التي سرقت من رب الأرباب اسمه وأحيت زوجها الميت وقلبت نظام الكون رأساً على عقب؟ متى حلَّت محلها الأم العصابية التي يقتلها الخوف على ابنها؟ ينبغي عليك أن تستعيدي نفسك، وقد صار النصر الكامل قاب قوسين أو أدنى، أبعد كل هذه

السنوات تنهارين بهذا الشكل؟ ستهداً، ستهداً وتمالك نفسها، من أجل ابنها، لكن أين ابنها؟ ابنها مات، قتله ست، وما أدراك أن ست قتله؟ تظل ضائعة في دوامة أفكارها حتى تهدها أفكارها ودموعها فتنام، وتحلم بفرسي النهر يخرجان من الماء، وبينما يقتربان يتضاءل أحدهما حتى يتلاشى، ويتضخم الآخر حتى يصبح ملء السمع والبصر. يقترب الكبير منها، ويفتح فاه، و... ويقبلها، وتبادل القبل عن رضا، و... تستيقظ فزعة، تتذكر الحلم، بل تتذكر الكابوس، نعم إنه كابوس، وتسب ست وتلعنه، وتنهض ساخطة، وتروح وتجيء، وتدور الدائرة الجهنمية.

مر من الشهور ثلاثة، لكن على الأم المضطربة مرَّ من الأعوام عشرة، ولم يبرز أي من المتنافسين، ولم يأت من الآلهة من يسأل عنهما، وكأن لا مانع عندهم من أن يظلا غائبين إلى الأبد، وكأن لا مانع عندهم من أن يتخلص ست من حرو مثلما تخلص من أبيه. لا بد من أن هذا ما حدث، لقد قتل ست بالفعل ابنها. اكتملت أخيراً الدائرة الجهنمية باليقين، ييقينها بموت ابنها. لطمت وشقت الملابس ونثرت الرمل على رأسها. آه يا بني، آه يا حبيبي، يا وحيدي، من لي بعدك؟

ستنتقم، لا مناص من الانتقام. بحثت في الحقول القريبة حتى وجدت حبلاً من الكتان وثقلاً من النحاس، صهرت النحاس وصنعت منه خطأً ربطته في طرف الحبل. ربما كان غياب الآلهة من حسن حظهم، فالنظرة على وجه إيزة وعينها الجاحظة المتوهجة حينئذٍ، رغم ظلمة الليل، كانت كفيلة ببثِّ الرعب في قلب أشجع الآلهة ودفعهم للهروب،

ومن سوء حظها، ربما لو كان أحدهم حاضراً لمنعها من ارتكاب التالي من فعلها، وأوقف ما ترتب عليه من سوء العاقبة.

أدارت إيزة الحبل في يدها عدة مرات، ثم رمت الخطاف بأقصى ما في يدها المرتجفة من قوة، إلى النقطة التي تذكر أن فرسي النهر كانا فيها. انغرس الخطاف في هدفه، في هدف ما، وارتفع أحد فرسي النهر من الماء، وتحت ضوء القمر رأت هيئته تتبدل من فرس النهر إلى شاب برأس صقر.

رمت تريد ست، فأصابت حرو.

«أقتليني يا أمي؟ أجننت؟».

إنه ابنها، لا يزال حياً، لم يصبه سوء إلا ما رمت به، بنفسها. يا ويلها، لقد أضاعت عليه فرصته للفوز، وها هو ينزف أمامها.

صرخ حرو في أمه جاحظة العين مشلولة اليد: «أخرجني هذا الخطاف مني وإلا أموت». استفاقت، هتفت بكلمات سحرية فخرج الخطاف من جسد ابنها. زحف حرو خارجاً من النهر وهو ينزف، فأغرقته بالتعاونيد الشافية التي أوقفت النزيف.

قال حرو: «ست لا يزال تحت الماء، فاز ست بسبك»، «آسفة يا بني، آسفة»، «لا يزال أمامنا فرصة، اقتليه بخطافك مثلما كدت أن تقتليني»، «سأفعل، سأفعل».

أدارت الحبل، ورمت مجدداً، وأصابت مجدداً. برز عن الماء فرس النهر الثاني، مصاباً وينزف مثل الأول، واستعاد ست هيئته.

«أنتِ؟ أنتِ من تقتلينني يا إيزة؟».

«شدي الخطاف بقوة، ابقري بطنه».

«ما الذي فعلته لك؟».

«مزقي أمعاءه، اقضي عليه».

«تعلمين أني لم أكنَّ لك السوء قط، حتى في أحلك لحظات الخلاف بيننا. خلافي كان مع أوزير، وابنه من بعده».

«ما الذي يعطلك يا أمي؟ لو خرج من الماء سيقتلنا».

«آه يا إيزة، إن وجعي وجعان، وجع النصل الذي يمزقني، ووجع أنك قاتلتني».

«أعطني الحبل يا أمي، سأقتله بنفسي».

«أطلقني سراحى يا ابنة أمي».

تحركت شفتا إيزة بهمس غير مسموع، فارتخى الحبل، وخرج النصل برفق من بطن ست الممدد على ضفة النهر.

نهض ست بصعوبة، ضغط جرحه النازف براحة يده، نظر إلى عيني إيزة التي تحاشت عينيه، نظر إلى حرو الذي تجمدت يده على مقبض سلاحه، ثم تحامل على نفسه ومشى مبتعدًا.

استغرق حرو عدة دقائق كي يفيق من جموده. قال: «كان بوسعك قتله»، ثم كررها بصوت أعلى، ولما كررها مرة ثالثة كان قد نجح أخيرًا في استلال سلاحه.

وأصابت أولى ضربات حرو الشاب هدفها، رقبة أمه.
وتدحرج رأس إيزة على الأرض.

٢

ثمّة شيء خاطئ.

شعور مباغت بالاضطراب أصاب رع في مقصورته بمركب النهار ذلك اليوم. توتر عاتٍ جعله يقفز من مكانه ويتجه إلى سطح السفينة، وينظر إلى الأرض تحته بحثًا عن مصدر الطاقة العنيفة المضطربة التي اجتاحتها على حين غرة.

ولأول مرة منذ يوم إعلان إيزة عن حملها لحرو، اكترث رب الأرباب بما يجري على الأرض حتى إنه أوقف رحلته المقدسة كي يتحرى ماذا هنالك.

«ما هذا يا دحوتي؟»، وأشار إلى تمثال من حجر الصوان، تمثال لامرأة عديمة الرأس، هو مصدر اضطرابه الغريب، «لا أدري يا مولاي»، «ثمّة شيء مألوف فيها... أليس هذا المكان الذي تركنا فيه ست وحرو يلعبان تحت الماء؟»، «آه، صحيح، تذكرت»، «ماذا حدث لهما؟»، «ثانية واحدة يا سيدي، لديّ تقرير خنسو عما حدث في الأيام السابقة هنا في مكان ما...».

وظل دحوتي يبحث في جعبته حتى وجد تقرير ليلة الأمس، وبدأ يقرأ جهراً، حتى شلّ لسانه من هول ما قرأ. لكن رب الأرباب لم يعد

بحاجة لسماع قول دحوتي، فقد أدرك ما حدث أخيرًا لما رأى بعين بصيرته كيف هلع حرو من رؤية رأس أمه تحت قدميه، فرمى سيفه وهرع يعدو ويبكي ولا يلوي على شيء، حتى تاه في الصحراء. أما إيزة، فقد تمكنت من تحويل نفسها إلى تمثال قبل أن تخرج روحها، فحافظت على حياتها حبيسة الحجر إلى أن يأتي من ينقذها. ولم يستطع منع نفسه من الإعجاب بسرعة بديتها التي أنقذتها، على الرغم من العصابية التي اتسمت بها في السنوات الأخيرة.

«تجاوز ذلك الفتى كل الحدود، آتوني به كي يُعاقب على ما اقترف».

٣

لم يكن الفتى الهائم على وجهه في الصحراء بحاجة لمن يخبره أنه تجاوز كل الحدود، فقد عرف ذلك جيدًا.

كان يركض وكأن كل الوحوش تطارده، يتمنى لو كانت هناك وحوش حقيقية تطارده، عليها تلحقه وتقتله وترمحه مما هو فيه من عذاب.

كيف فعل ما فعل؟ كيف ترك جنونه يهيمن عليه ويقوده إلى... إلى... الصورة تعود إلى الواجهة كلما فكر في الأمر، صورة رأس أمه يتدحرج تحت قدميه بعد فعلته المشينة، الفعلة الأفظع من كل أفعال ست نفسه. أمسى أشر الأشرار وألعنهم، ليته مات قبلها.

يا ويلك يا ابن إيزة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لكنك يا إيزة أيضًا ملومة، لم تتركي لحظة منذ وعيت على الدنيا من دون أن تذكي نار الحقد المقدس التي أشعلتها بنفسك في قلبي، ولما حانت اللحظة أخيرًا لتحقيق ما أحلم به، ما تحلمين أنت به، ماذا فعلت؟ أفسدت عليّ الأمر بحمايتك الزائدة حد الجنون، بل وعفوت عن عدوي وعدوك وعدو أبي بعدما صار لأول مرة في قبضة يدك.

لكن أيعني هذا أن تقتل أمك؟ أتبّرر ما اقترفته يدك؟ لا، لا، أنا الملولم، أنا قاتل أمه، سُلت يدي عن رفع السلاح ضده رعبًا، فرفعته ضدها... أنا الملولم، أنا قاتل أمه، عليّ اللعنة، عليّ ألف لعنة.

ظل يركض ويركض، تنهشه أفكاره من الداخل وتنوب عن رب الأرباب في عقابه، حتى ساقته قدماه إلى واحة، وقع فيها منهكًا تحت شجرة عالية، وفقد الوعي.

٤

عندما فتح عينيه، كان أول ما ميزه هيئة سيلوتية مبهمة لشخص يجلس تحت الشجرة ويستند إلى جذعها. الظلام دامس، لكن له عينا صقر. فرك حرو عينه ونظر مجددًا، وتعرف على صاحب الهيئة.

رفع رأسه، حاول أن يستجمع قوته. يشعر وكأن جسده لا يزال غائبًا، يبدو أنه أطال النوم، ليوم ربما أو أكثر. لكنه مع ذلك تمكن من لم شتات جسده المبعثرة، ونهض. وذهب ليجلس حذاء الجالس تحت الشجرة.

التزم الصمت والسكون لبعض الوقت، وكذا فعل الجالس إلى جواره. سكون العالم حولهما كان جليلاً إلى حد فرض نفسه حتى على إلهين عظيمين مثلهما. لكن بعد بعض الوقت، بخفوت وبطء، تحدث حرو أخيراً: «دعني أخمن، لم تقتلني خلال نومي لتحرمني من الموت في سلام، تريد قتلاً عنيفاً ودماً، صح؟».

ضحك ست.

«أمررع بالقبض عليك، حياً، ليعاقبك بنفسه».

«لم يصلني عنك أنك من النوع الممثل للأوامر»، «ماذا وصلك عني؟»، «الكثير، حكّت لي أمي ك...».

منعته غصة من إكمال حديثه، أشاح بوجهه، لم يتمكن من كبخ دمعة فرت رغماً عنه من عينه.

«تبكيها؟».

«كان ينبغي أن تكون الضربة في عنقك أنت، كان يجب أن تكون أنت الميت».

«أتحسب أنك كنت ستقدر على قتلي؟»، «لا يهم، لا يهم حتى لو كنت قتلتني حينها، لكن هذا ما كان ينبغي أن يحدث... لكنني جيت، شلني الخوف وأعماي الغضب، وقتلت أمي بنفسني».

«لا تحسبن نفسك قادراً على قتل إيزة يا ولد، عمداً أو خطأ، لا أنت ولا غيرك يستطيع فعلها، ستجد تلك الساحرة سيلاً لحماية نفسها على الدوام...».

«أتعني أنها حية؟»، «تحت رعاية رب الأرباب، يصنع لها خنوم رأسًا جديدًا».

انفجرت أسارير حرو، اعتدل في جلسته... لكن سحته انقلبت مجددًا.

«وأنت هنا لتخبرني بذلك؟ لا زلت لا أفهم كيف لم تحاول قتلي حتى الآن».

«لم يعد بوسعي قتلك يا ولد، أفلت مني يا ابن اللعين»، «لماذا؟ رأيت نور الحق فجأة وندمت على ما فعلت؟».

«ما يمنعي عنك هو ذاته ما أصابك بالجنون... صفح أمك عني. لقد كان خطافها في بطني، كان بوسعها قتلي. إنها الوحيدة في الكون التي استطاعت أن تتمكن مني، ومع ذلك تركتني. صرت مدينًا لها، للأسف، لا أستطيع أن أرد جميلها بسلبها حياتها».

«ما علاقة هذا بعجزك عن قتلي؟»، «أنت حياتها يا أحمق».

بُهِت حرو، انعقد لسانه.

«هذا غير أني أصبحت أبغضك لأول مرة أقل قليلًا من المعتاد».

«أيفترض أن يكون هذا مدحًا؟ ما الذي فعلته لأستحق تقليل كراهيتك لي؟».

. «الغضب الأعمى، لطمتك لرأس أمك. هذا شيء لم ترثه منها ولا من أبيك، بل مني. رغمًا عنك وعن أمك ورثت شيئًا من خالك».

«لست فخورًا بهذا».

«جيد، هذا أيضًا مني، أبوك كان سيجد في أي شيء مدعاة للفخر... مجرد تذكره يثير تقززي ويجعلني أود قتله مجددًا».

«لا تذكر أبي بالسوء».

«كان حقيرًا».

انتفض حرو، هب واقفًا واتخذ وضع الاستعداد للقتال، صرخ بصوت لم ينجح ارتفاعه في مداراة ارتجافه: «لا تذكر أبي بالسوء».

«رائع، اغضب أكثر، أرني الجنون».

«قم وواجهني، لتكن تلك معركتنا الحاسمة».

ضحك ست، ولم يتحرك من مكانه قيد أنملة.

فهجم حرو.

أطلق لكمة بأقصى عزمه نحو وجه خاله المنمش، لكن ست حرك رأسه بخفة في اللحظة المناسبة، فأصابت قبضة حرو الشجرة. أحدثت الضربة شقًا في جذعها، أخذ يتمدد ويتوسع مثل شبكة عنكبوت بصوت مسموع، ثم انكسرت الشجرة، ووقعت وراء الإلهين.

رفع حرو قبضته أمام عينيه، كانت دامية من أثر الضربة، لكنه لم يأبه بالدماء، وإنما كان مذهولًا من القوة الناتجة عن يده النحيلة.

ظهرت على ست ملامح الإعجاب، صفق بحرارة: «رائع، ألم أقل لك أنك فيك مني؟»، ثم نهض متثاقلاً، «والآن، حان دوري».

بيد واحدة، التقطت عن الأرض الشجرة الواقعة وكأنها عود قش. وبنفس الخفة طوحها نحو حرو. وجد الإله الشاب نفسه يطير في الهواء مئات الكيلومترات بعدما أصابته الشجرة في صدره، لم يملك حتى أن يحول نفسه إلى هيئة الصقر فيتحكم في طيرانه. ظل يخلق لمئات الكيلومترات، حتى وقع على سطح جبل بعيد عالٍ، وأخذ يتدحرج لعدة دقائق قبل أن يستكين جسده المهشم على الأرض في النهاية.

اندهش من أنه لم يفقد وعيه، ناهيك عن حياته، لكن الألم العاقي الذي يحتاج جسده منعه من الحركة. التقطت أذنه فجأة هدير عاصفة بعيد، يقترب، يقترب بسرعة. نظر بطرف عينه فلمح إعصارًا عظيمًا قادمًا. لما دنا الإعصار منه تمكن من رؤية أن دوامات الهواء كانت تحمل فوقها ست، أو بالأحرى كان رب العواصف يستعمل الإعصار كدابة تحمله عبر الصحراء.

لما وصل الإعصار أخيرًا وهدأت حدته، ترجل ست عن صهوة إعصاره، اقترب من حرو المطروح أرضًا.

«قلت إنني بسببها ما عاد بوسعي أخذ حياتك»، جلس بتؤدة على صدر حرو، انحنى برفق نحو وجهه، «لكن هذا لا يعني أنني لا أستطيع أخذ شيء آخر».

حاول حرو أن يجيب، لكن لم يصدر عنه إلا أنين مبهم. أما ست، فأخذ يتحسس وجه حرو بيده، ثم بحركة مباغتة، غرس أصابعه في محجر عين حرو اليمنى.

«أتحسب يا رأس العصفور أنك قادر على أخذ الملك مني؟».

انفجرت صرخة الإله الصغير، ترددت عبر الصحراء، لكن الوحيدة التي كانت قادرة على سماع صراخه والمجيء لإنقاذه كانت في تلك اللحظة بلا أذنين، بلا رأس. انتزع ست كرة عين حرو اليمنى، لعقها بتلذذ، ورماها جانبًا.

«لا أنت ولا أمك ولا الآلهة كلهم لو اجتمعوا يقدرّون على ذلك، أنا الملك، ولا ملك غيري».

اندفعت يدا حرو وسط صراخه وبكائه تلطم ست وتدفعه عنه، لكن ست لم يشعر حتى بضربات الفتى تحته، بل غرس أصابعه من جديد في محجر عينه اليسرى هذه المرة، وأخذ يجذب. بدأت يدا حرو تبحث عما تشبث به وهو يصرخ من جديد، ووجد شيئًا بالفعل، شيئًا، قبض عليهما بكل قوته.

«ومن يجرؤ على تحدي الملك، يجب أن يدفع الثمن».

لم يشعر ست بقبضة حرو، نشوته الدموية حجبت عنه كل مؤثر بينما يحرر كرة عين حرو اليسرى من مكانها، صراخ حرو ونحيبه كانا كالموسيقى في أذنيه. تمكن من انتزاع عينه اليسرى أخيرًا، لعقها مثل أختها بنفس التلذذ قبل أن يرميها.

كان في أقصى سعادته، لم يهتم حتى بالتفكير في شيء قاسٍ يقوله لضحيته، بدأ ينهض، و...

لكن شيئًا منعه عن النهوض، ثمة ما يربطه بجسد الفتى.

بدأ يستعيد الشعور بجسده شيئًا فشيئًا. أدرك أن قبضة حرو، تلك القبضة التي هشمت الشجرة بلكمة واحدة قبل قليل، تقبض على شيء منه وتمنعه من القيام، تقبض على كرتين أيضًا مثل عيني حرو، لكنهما من طبيعة أخرى... كان حرو يقبض على خصيتيه، ويعتصرهما.

صُعِقَ ست، بدأ يشعر بالألم يعتصر خصيتيه، حان دوره لتردد الصحراء صراخه. «اتركهما»، لم يبدُ على الفتى أنه سمع، «اتركهما»، الوجه الدامي ذو المحجرين الخاويين كان في الواقع يبتسم، «اتركهما»، أخذ ست يلطم وجهه وصدر حرو، لكن الفتى لم يكثر بالضربات الجديدة، بل أخذ يعتصر أكثر.

ولم يمضِ الكثير قبل أن يتردد في العالم صوت فرقعة مكتومة... أو للدقة فرقتين.



أشكال متعددة للحب

١

دحر عابب بيسر كعاداته، لكن حركته اليوم كانت غريبة، وكذا كان مظهره، فقد كان يرتدي لأول مرة عباءة طويلة فضفاضة تغطي جسده كله بدلاً من المآزر شديدة القصر والضييق المعتادة التي تبرز عضلاته وغيرها من أعضائه بوقاحة. مشى منفرجاً وفضح ضيق وجهه محاولاته غير الناجحة لإخفاء ألمه الفائق.

تجراً بعض الآلهة وسألوه: «ست، هل أنت بخير؟».

«أنا بخير، أفضل منكم كلكم، فليحتفظ كل منكم بلسانه في فمه وإلا خسره».

تحاشوه، وإن ظلوا يراقبونه سرّاً ويتضاחקون، ويتساءلون عما حل به.

على غير عاداتها في التكاسل والاستمتاع بالفراش حتى منتصف اليوم، استيقظت حوت-حرو ذلك الصباح فجأة، ونهضت بنشاط وركضت خارجة من مخدعها.

أو للدقة دفعها شيء للاستيقاظ.

نادت على الخدم ومن كانوا موجودين من الآلهة، «ما هذه الرائحة؟»، «أي رائحة؟»، «تلك الرائحة الغريبة، الجديدة، وكأن عبير أزهار العالم كله قد اجتمع في عطر واحد قوي، لكنه مع ذلك طيار غير ممسوك... ما مصدرها؟».

تشمم الخدم والآلهة الهواء في حيرة، ولم يبدُ أن غيرها يلتقطها.

«أنت واهمة يا حوت-حرو».

«بل أنتم عديمو الإحساس، كيف لا تشمونها؟ إنها شديدة القوة والجمال، والغرابة!».

وجدت نفسها وحيدة وقد انفضوا عنها، يعاملونها وكأنها طفلة حمقاء لا تفقه شيئاً، لا أحد يقدرها حق تقديرها إلا عندما تصبح سخمت وتمزق أوصالهم. لا بأس، ليحترقوا جميعاً، إنها لا تهتم الآن إلا بتلك الرائحة المذهلة التي لا تقاوم.

خرجت من قصر أبيها بأنو، وانطلقت خلف الرائحة عبر القرى

والمدن والحقول. قادها أنفها إلى الصحراء، إلى أقصى الصحراء، إلى جبل بعيد. كيف يمكن أن يصدر عطر بهذه الروعة من مكان مقفر كهذا؟ ومع ذلك أودعت ثقتها بأنفها ومضت قدمًا. مع اقترابها بدأت تلتقط شذرات من رائحة أخرى تثيرها أيضًا، لكنها إثارة مختلفة تعيدها إلى ماضي بعيد لا تحب أن تتذكره حتى وهي تحن إليه سرًا؛ رائحة دماء.

على قمة الجبل وجدت أخيرًا مصدر الرائحة الطيبة: زهرتي لوتس زرقاوين هما أبهى وأجمل ما رأت من زهور على الإطلاق. كيف تنبت أزهار نهريّة مثل اللوتس هنا؟ على جبل؟ انحنت عليهما، استنشقت العطر بكامل رئتيهما، تحسست البتلات المفتحة والسيقان الناعمة الخالية من الأشواك. تنهدت بعمق، ودت لو تقبض على الرائحة في أنفها إلى الأبد. قررت أن تأخذهما كي تعيد زرعهما في حديقتهما الخاصة، لكنها عندما انحنت تحاول انتزاعهما وجدتهما ثابتتين في الأرض لا تنخلعان مهما شدت، ولم ينقطع منهما ولو ورقة. وكأنهما زهور من حديد. كل ما يمت لهاتين الزهرتين بصلة غريب.

نهضت، شرعت تتأمل المكان حولها بروية. بدأت تلاحظ آثار الدماء القريبة من الزهرتين، تكاد تختفي بفعل الرمال والتراب لولا عين وأنف اللبؤة الخبيرة القاتلة الكامنة تحت جلدرية الحب. أطلقت ما يشبه الزئير الخافت المكتوم، وبدأت تفحص آثار الدماء.

يبدو أن قتالًا ما وقع هنا قبل وقت غير بعيد، بين شخصين، فثمة اختلاف واضح بين رائحتي دمائهما. أحدهما أقرب لرائحة الزهرتين، والآخر زنخ عطن. تتبعت الأول، ولم تبعد كثيرًا قبل أن تجده.

إنه... حرو؟

دق قلبها.

كان ملقى على وجهه فوق الجبل، يبدو داميًا مهشمًا، ميتًا أو فاقداً للوعي... آثار الدماء تشي بأنه كان يجاهد للابتعاد عن موقع القتال، لكن لم تحتمله قدماه طويلاً قبل أن ينهار.

إن حوت-حرو لم تر ابن إيزة من قبل إلا ساعة المحاكمة، بدا لها حينها طفلاً خاملاً باهتاً يحتمي بظل أمه، وإن كان وسيم الملامح ولطيف المحيا. أما الآن، فثمة شيء فيه يغلي ويفور، يبدو على شفا الموت لكن يُحس في مطلع الحياة.

انحنت عليه، بدأت تتحسسه بحثاً عن مكنن إصابته ومصدر كل هذه الدماء، لم تتعجل في هذا. لا تجد في جسده جرحاً ظاهراً، فقط تقبض يده على شيء لزج مقرف.

قلبه على ظهره... وجهه، المشكلة في وجهه. أخذت تمسح الدماء والرمال الجافة عن وجنتيه وشفتيه وأنفه، وعن عينيه... عينيه! لما لمست الجفنين انضغطا للداخل، وكأن لا شيء خلفهما. ولما فتحتهما، هالها الخواء.

انتفضت، ثم تماكنت نفسها بسرعة. إن فطاعة هذا المشهد في النهاية لا تقارن بما شهدته من قبل، بما سببته من قبل.

قامت به بعدما حملته وبدأت رحلة العودة. مرت في طريقها على زهرتي اللوتس، وانحنت عليهما كي تستنشق عبقهما مرة أخيرة. عندها فقط أدركت سرهما؛ إنها عينا حرو.

لم تقدمه لأبيها الذي لا يزال يبحث عنه، بل أسكنته مخدعها. عملت على تطييبه بنفسها، دهنته بالزيوت ورقته بالتعاويد وأدفأته بالأغطية والحميمية. وفي محجريه، سكبت حليب غزلان من نوع خاص ملأت به التجويفين، وأغلقت عليهما الجفون.

وعندما استفاق حرو بعد عدة أيام، شعر بجسده مسترخياً في فراش وثير، ورأسه مستنداً إلى جسد، طري مشدود نضر زكي الرائحة. فتح عينيه، وذُهل ذهولين.

الأول لأنه يرى، بعدما حسب أنه خسر تلك الأفضلية إلى الأبد. والثاني مما رأى، الصدر الناهد الذي يسكن رأسه إليه. واكتشف أن في الكون أشياء غير الحرب والثأر والصراع على العرش.

«لقد تجاوزتما كل الحدود، هذا لا يصح، لا يصح».

الاجتماع هذه المرة كان في مركب الشمس، في ذروة السماء. يبدو الجسد الأكبر الآن أصغر وأبهى من أبنائه وأحفاده.

«يجدري أن أعاقبك شر عقاب على ما فعلته بأمك، اسأل جدك
جب على ما أصابه جراء تعرضه لأمه».

«في الواقع يا سيدي كان عقابه على سرقة قرص الشمس لا
على...»، «اخرس يا دحوتي»، «أوامرك يا مولاي».

«أبي الحبيب، اعفُ عن ابني أرجوك، أنا بخير حال كما ترى، رأسي
الجديد أحسن من القديم بفضل خنوم العزيز. وما حدث كان ذنبي،
أنا أفسدت عليه التحدي وأضعت عليه فرصة النصر. حرو بريء من
ذنبي».

أسكت رع إيزة بإشارة من يده. لم يكن ينوي في الواقع عقاب حرو،
بل بدأ يميل جهته هذه المرة، ليس بسبب توسلات إيزة أو نزوع مباغت
إلى الحق، وإنما لأن حرو حظي بحليف جديد غير متوقع في بيته... لا
يعرف ما الذي تراه ابتته في هذا الصبي الطري، أتصوم ربة الحب عن
العشاق طيلة عمرها، فقط لتقع في هوى نتن الفم هذا؟ لكنه لا يجب أن
يغضبها، وحرو على أي حال أثبت أنه لا يخلو تمامًا من قوة.

«وأنت يا ست، خالفت أمري لما هاجمت حرو بدلًا من أن تحضره
لي كما أمرت... وإن كنت كما أرى نلت جزاءك من دون تدخل مني».

حتى رب الأرباب لم يتمكن من وأد الابتسامة المتهكمة التي
ارتسمت على ثغره مع جملته الأخيرة، نفس ما حدث مع أغلب الآلهة
الذين جاهدوا لكتم ضحكاتهم حتى تحولت وجوه الكثير منهم إلى
الأحمر. لم يخف أي من ذلك عن ست الذي تسلم لتوه زوجًا جديدًا
من الخصي الذهبية من خنوم، وتحامره الشكوك تجاه قدراته الذكورية

مع هذه اللعبة الجديدة، ينتظر أن يعود إلى قصره كي يجربها بعيداً عن العيون الساخرة المتلذذة بنكته. كم يود أن ينهض فيجز رؤوسهم جميعاً عن أعناقهم الآن، بمن فيهم رب الأرباب ذاته. لكن لا، ستحين بلا شك فرصة مواتية للانتقام، لاستعادة هيبة ذكوره المهدورة.

«على كل حال، نال كل من أخطأ جزاءه، وكل من فقد شيئاً رُدَّ له كما أرى»، ونظر إلى عيني حرو، ورأس إيزة، أما ست فقد أشاح ببصره عنه، «ولقد عفوت عما سلف، وأرى أن ما حدث فرصة مناسبة لفتح صفحة جديدة بين الآلهة، في النهاية كلنا أسرة واحدة، كلكم أبنائي...».

كل من على معندجت الآن يستطيع أن يرى المأزق الواضح الواقع فيه ملك الآلهة. لم يعد يستطيع تمكين ست فيغضب حرو وبالتبعية حوت-حرو، ولا يستطيع تمكين حرو فيخاطر بخسارة ست وقوته الغاشمة في مواجهة عابب، بل وربما إثارة عداوته ضد مجلس الآلهة برمته. يجب أن يجد حلاً آمناً.

«...تذكرا صلة القرابة، إنكما أقرب لبعضكما من قربكما لي، هذا خالك يا حرو، وهذا ابن أختك يا ست، ربما قتل ست أوزير لكن أوزير الآن في حال أفضل منا جميعاً، فلا تجعلا ذلك يفسد الود بينكما. إني أقترح أن تجربا قضاء وقت طيب بصحبة بعضكما، تناولا الطعام والشراب وتبادلا المزاح، ربما إن عرف كل منكما الآخر على حقيقته زالت الضغينة وحلت المحبة، وحلت شؤون الحكم والعرش نفسها».

تنحنح دحوتي: «آه، إحم، فكرة رائعة يا مولاي، لكن ربما الوقت الحالي ليس أفضل وقت لـ...».

لكن ست نطق لأول مرة مندفعًا ومقاطعًا دحوتي: «فكرة ممتازة يا ملك الآلهة، إني أدعو حرو ابن أختي العزيز ليشرفني في قصري الليلة، فنأكل ونشرب ونسهر ونستمتع، وأرى أن علاقتنا بعد هذه الليلة ستختلف كل الاختلاف عما قبلها».

اندفعت إيزة مذعورة: «لا، لا يمكن، هذا فخ، يريد ست أن ينصب كمينًا لابني كي يقتله أو يمزق أعضائه مثلما فعل من قبل، لا تسمح له يا مولاي بالانتقام».

قال رب الأرباب وقد انفرجت أساريه: «إنني أشكرك على هذه الروح المضيفة الطيبة يا ست، وأشجع حرو على قبول دعوة خاله، لكن كي أضمن سلامة كل منكما، فإني أحرم عليكما أي شكل من أشكال القتال والتناحر في هذه الليلة، ومن يخالف ذلك يُعاقب بالنفي إلى نون إلى الأبد».

«أقسم بحق قرص الشمس العظيم أني لن أقاتل أو أتناحر مع ابن أختي الحبيب بأي شكل من الأشكال، ولن يرى مني سوى كل حب».

«لا تخافي يا أمي، لقد أقسم ألا يقاتلني، ما عساه أن يفعل؟».

٥

توقع حرو الخديعة في كل لحظة؛ استعد لتفادي طعنة أو تلقي ركلة أو لطمة أو لكمة من أي اتجاه، تأهب لهجمات الحيوانات المفترسة والنيران الحارقة والأعاصير الجبارة، لمؤامرات الخدم والأتباع والخونة... لكن أيًا من هذا لم يحدث.

كانت ليلة هائلة، لطيفة، أبوية.

الطعام كان غنيًا شهياً، والشراب لا ينقطع، كلما فرغ صحن أو قارورة جاء من يعيد ملئه وكأنها من مخزون لا ينضب. وحرو الذي خشي السم في البداية، سرعان ما فقد التحكم في نفسه، فحياته المتقشفة المتعسرة مع إيزة جهزته لمواجهة المصاعب، لكنها لم تعده لمقاومة الأطياب.

أما ست فكان مختلفًا تمام الاختلاف، كان دمًا مرحًا لطيفًا، مثرثًا؛ تحدث عن حبه للصيد والشراب والنساء، واستمتاعه بالقتال اليومي ضد ثعبان الفوضى، بل وبعد كؤوس نبيذ عديدة صرح لأول مرة بضيقه من الملك وشؤون العرش والبلاد، «كل هذه التفاصيل تثير جنوني، ما لي أنا بالزراعة وتوزيع المياه وبناء المعابد وشق القنوات والأشياء التي تعكر المزاج؟».

ذهل حرو من التصريح الأقرب لاعتراف بعدم صلاحيته للملك، لكن ست سرعان ما غطى فمه بيده وتراجع ضاحكًا: «يبدو أنني أفرطت في الشراب، لا تستخدم كلامي ضدي يا ولد، كلام السكارى لا يُحتسب... دعنا من الحديث في السياسة ولنذهب كي ننام، تأخر الوقت، وأحتاج للحاق بمعندجت عند الشروق وإلا التهم الثعبان الشمس».

نهضا، واتبعه حرو إلى قاعة النوم التي يتوسطها فراش واسع وثير. اضطجع ست في الفراش، «تصبح على خير»، «ما هذا؟ وأنا؛ أين سأنام؟»، «هنا، الفراش يتسع لعشرة». وقف حرو في مكانه مترددًا، مشوشًا من أثر الشراب. «إن لم تحب النوم هنا فلتنم حيث شئت، أو لتصرف إن أردت، لك مطلق الحرية».

خرج حرو من الغرفة، وبحث في قصر ست عن مكان آخر ينال فيه. لاحظ لأول مرة أن لا مكان في القصر يصلح للنوم سوى الفراش الكبير، كل أماكن الجلوس ضيقة لا تكفي للتمدد، والأرضية وعرة مفعمة بالأحجار البارزة القاسية. حتى حديقة القصر لا يوجد فيها شبر خاوٍ من سجاد الحيوانات أو صفوف نبات الخس المتلاصقة حتى لا تكاد تسمح بموطئ قدم ناهيك عن مضجع جسد.

ولما فكر في الرحيل، وجد الرياح خارج القصر شديدة القوة، وهو في الواقع منهك، رأسه يدور من كثرة ما أكل وشرب، يحتاج إلى النوم فوراً.

هكذا عاد حرو إلى قاعة النوم، ورأى ست في ركنه، يغط في عمق. قال في نفسه: «لن يفعل شيئاً، لقد أقسم أمام رب الأرباب قسماً لا يُحْثُ».

لم يعد قادراً على الوقوف أكثر من ذلك، فارتقى إلى جوار خاله.

٦

قال ست: «كل هذه التفاصيل تثير جنوني، مالي أنا بشؤون الزراعة وتوزيع المياه وبناء المعابد وشق القنوات؟».

فقال له رب الأرباب: «أعد العرش إلى صاحبه إذن، حرو الشاب القوي الذي سيصبح أعظم الملوك».

«هذا بالضبط ما أنوي فعله، إن العرش عرشك يا حرو، وأنا من الآن فصاعدًا خادمك المطيع».

فجلس حرو على العرش، وجاء أوزير وابتسم له، وجاءت إيزة فبكت من السعادة، وجاءت حوت-حرو فارتمت في حضنه وأخذت تقبله، وأخذ يبادلها التقبيل، وتحول العرش إلى فراش ارتميا فيه معًا. أحاطت به حوت-حرو بذراعيها القويتين -متى صارت بهذه القوة؟- ثم قلبته على بطنه بحركة عنيفة -ومتى صارت بهذه الخشونة؟- ثم... ما هذا الذي يخزّه من الخلف؟

استيقظ بغتة، آخر جزء فقط لم يكن حلماً، فهو بالفعل مطروح على بطنه، وهناك من يشبهه ويمنعه من الحركة، لكنه ليس حوت-حرو، بل ست. «ما الذي تفعله... آي!». اخترقه ست، ليس بسيف ولا خنجر ولا حربة...

«أحسبت أن فعلتك... آه... ستمضي بلا عقاب... آه... أيها النغل القذر؟».

«آي... لا... اترك... آي... لقد أقسمت أنك لن... تفعل... بي... شيئاً».

«بل أقسمت... ألا أقاتلك... وأنا لا أقاتلك... بل أريك... من هو الرجل... القوي... هنا».

حاول حرو أن ينفذ ست عنه، لكن قوة خاله كانت عاتية، ظل يلجّه ويخرج منه بعنف.

انخرط حرو في البكاء.

لكن، بالإضافة إلى تأوهات ست، تردد في عقل حرو صوت آخر، صوت أنثوي، صوت أمه.

«حرو، حرو، أعلم أنك تسمعي يا صغيري!».

قال حرو بصوت مسموع: «أمي؟»، فأجابه ست: «أنت أيضًا تفكر في إيزة؟ آه... أنا أيضًا أفكر فيها كلما فعلتها».

«لا يا حرو، أنا في عقلك فقط، أجبني بأفكارك فقط يا بني»،
«يا أمي، أنقذيني»، «لا أستطيع إنقاذك من مكاني، ليتني منعتك من الذهاب. لا وقت للندم، عليك الآن ألا تتركه يبلغ مبلغه في داخلك».
«ماذا تقولين؟».

«لا وقت للشرح، إنه على وشك الوصول. عليك أن تتلقى ماءه في يدك، ولا تدع نقطة منه تبقى فيك، وإياك أن يلاحظ أنك فعلت».

«ما هذا الجنون الذي تقولينه؟»، «اسمع كلامي، ثق بي أرجوك.
وبعدما يتركك تعال إليّ على الفور ولا تدع أحدًا يراك».

عندها سمع حرو أنين ست المتقطع يتحول إلى خوار. استطاع تحرير ذراعيه من سيطرة ست، وأنزل يديه في اللحظة المناسبة. تلقى حرو في راحتيه ما تلقاه، ولم يدرك ست في خضم نشوته ما فعله.

وفيما كان ست يفرغ آخر قطراته، استفرغ حرو كل ما في بطنه.

بعد ثوانٍ، أطلق ست سراحه وانقلب على ظهره، «اذهب يا ولد... اذهب وقل لأمك أني سأفعل بها ما فعلته بك عما قريب، وبالألهة كلها لو استدعى الأمر، لو لم تتوقفا عن المطالبة بمملكتي». وغرق في النوم مجددًا.

٧

«أنا هنا، تعال يا بني... على مهلك، لا تتعجل».

جاء يبكي، متعثراً بخطوات منفرجة. كرامته، مثل مؤخرته، تحرقه وكأن بها نارًا موقدة. لما رأى أمه تنتظره غير بعيدة عن قصر ست، تعالى نشيجه وأراد أن يرتقي في حضنها، لكنها أوقفته بإشارة من يدها.

«ليس الآن يا بني، أنا آسفة لكن عليك أن تتحمل، ليس أمامنا الكثير. يكاد خبري أن يخرج من رحم نوت، وست ينوي بلا شك أن يحكي عما فعله أمام الجميع، ليقنعهم بضعفك وتفوقه عليك»، «ماذا سنفعل إذن؟»، «سأخبرك، لكن أطعني بلا نقاش». ابتلع الفتى دموعه ووقف متحيرًا، وجه إيزة كان مغمومًا والدموع تجري عليه بلا انقطاع، لكن حركاتها كانت حاسمة وسريعة وكأن لا علاقة لها بمشاعرها. «هات يديك».

مد حرو يديه، وأدرك أنها لا تزالان تقبضان على السائل الكريه. تهوعت إيزة لما رأتها، وأخرجت من حقيبة بحوزتها سكينًا ضخمًا كما الساطور، «أكرر أسفي يا ولدي». بضربة خاطفة من سكينها بترت يدي حرو بها تحملانه.

صرخ حرو ألماً وبكت إيزة حزناً على ابنها، لكنها غالبت دموعها، «صارتا نجستين بما تحملانه يا ولدي ولا يمكن تنظيفهما. لكن لا تخف، هذا سكين مسحور، سينمو لك غيرهما بعد قليل». وأدرك حرو أن مكان البتر لا ينزف، وثمة شعور غريب بالوخز إلى جوار الوجع هناك، وكأن شيئاً ما يجاهد للخروج.

أما اليدان المبتورتان، فقد حملتهما إيزة بحبل محاذرة أن تمسهما، ورمتهما في النهر.

«والآن حان الجزء الأصعب»، «وماذا قد يكون أصعب مما تعرضت له؟ لقد اغتصبني خالي وقطعت أمني يدي»، «ما سيحدث الآن يجب أن يظل سرّاً بيننا، لقد مارست أصعب السحر كي يصبح خفياً عن أئوم-رع نفسه، إياك أن تُخبر به أحداً، بل حاول حتى ألا تتذكره أبداً»، «ماذا ستفعلين يا أمني؟».

أخرجت من حزامها قارورتين، إحداهما خاوية، والأخرى تحتوي زيتاً عطرياً. فتحت قارورة الزيت وسكبت القليل في يدها. «اجلس هنا»، جلس، «ماذا ستفعلين؟».

صمت أذنيها، حاولت أن تحجب كل مشاعرها وحواسها، إن ما تفعله لا يختلف عن ممارساتها السحرية لهدف نبيل، لهدف تحقيق العدالة والثأر، أمسكت بيدها الملساء بفعل الزيت ابنها، جزءاً بعينه منه، لأجل الانتصار على ست ومواجهة الشر في العالم، أخذت تمسّده صعوداً وهبوطاً، اشتد في يدها، صاح حرو: «ماذا تفعلين؟ اتركيني!»، «اثبت مكانك ولا تتحرك»، لا يمكنها أن تدع مجهود عشرات السنوات يضيع هباءً، لا يمكنها أن تدع

ست ينتصر بفعل غادر شرير قذر مثل ما فعل، إن ما تفعله لا يختلف عن حلب ضرع بقرة، ليس أكثر من ذلك، نعم، نعم، «اتركيني، أرجوك!»، نعم، هذا ليس إلا ضرع بقرة، شيء تفعله بلا شعور، بلا اهتمام خاص، صعودًا وهبوطًا، لأجل حق أوزير المهدور، صعودًا وهبوطًا، لأجل مُلك حرو المستحق... شعرت به يتنفض في يدها، التقطت القارورة الخاوية، تلقفت بها في اللحظة المناسبة ماء الفتى الباكي.

«أعلم أنها كانت ليلة صعبة يا ولدي، لكن أعدك أن الأمور ستكون أفضل بعد ذلك، أو هكذا آمل. اسمعني جيدًا، هذا ما سنفعله...».

أصغى لها بين دموعه. كررت عليه خطتها مرتين حتى تتأكد أنه استوعبها، ثم أعادت القارورة بمحتواها الجديد إلى حزامها، وتحولت إلى هيئة طائر السنونو المفضلة لديها، وأخذت حملتها وطار.

طار إلى قصر ست، نحو حديقة الخس.

٨

استيقظ ست منتعشًا، منتشيًا، فخورًا.

تناول افطارًا سريعًا كعادته من إنتاج حديقته من الخس، ولم يسمح للتغير الطفيف الذي شاب مذاق طعامه المفضل أن يعكر مزاجه، فاليوم هو في أفضل حال ولا ينوي تغيير ذلك (ربما يقطع رأس الجنائني أو يسلمه حيًا، لكن سيفكر في هذا لاحقًا).

عوضًا عن ارتداء عباءة الأمس الطويلة الفضفاضة، اختار مئزرًا قصيرًا لا يكاد يداري شيئًا، وسيحرص على أن يكون اليوم مليئًا بالرياح القوية التي تجعل زيه يتطاير، فيرى الجميع جيدًا حمولته، ويعرفون أنه رجل، رجل جدًّا، لا يوجد بينهم، هؤلاء الآلهة الجبناء، من يضاهيه في الذكورة ولا يجاريه في الفحولة. كانوا يسخرون منه بالأمس، واليوم سيرون من هو الرجل الحقيقي.

خرج من قصره متبخرًا، وصعد ليعتلي معندجت.

٩

«هيا، احكيا لنا، كلنا شوق لمعرفة كيف كانت ليلتكما بالأمس، هل صرتم صديقين؟ أراهن أنها كانت سهرة لطيفة وممتعة، أرى ذلك في أعينكما... هيا هيا».

جلس ست أمام رب الأرباب بابتسامة منفرجة مثل ساقيه، وبجواره حرو منكمشًا على نفسه زائغ النظرات. تناثر الآلهة حولهما متلهفين على الإنصات مثل رب الأرباب، وإن كانوا غير متفائلين بالنتيجة مثله. أما إيزة، فجلست بجوار دحوي في الصف الأمامي، مشدودة كوتر، حتى إن دحوي خشي إن لمسها عرضًا أن ترن.

قال ست، بصوت جهوري بما يكفي لسمعه الجميع، «ما حدث أن العرش لي والمملكة مملكتي، وهذا ال... الولد ليس لي بمنافس ولا يصح أن يجلس بيننا بعد الآن»، «ما هذا الذي تقوله يا ست؟»، «ما الذي حدث بالضبط؟».

«ما حدث أني فعلت به ما يفعله الرجال».

شهقت الآلهة جميعاً، وأخذ حرو يتفادى نظرات التقزز والشفقة المنهمرة عليه من كل اتجاه.

هتف رع: «ما هذا الجنون الذي تقوله يا ست؟».

أجاب ست: «لا أقول إلا الحقيقة، و...»، «بل إنك لكاذب، قل الحقيقة يا بني، قل ما فعلته به».

نهض ست معترضاً على مقاطعة إيزة، لكن حرو، بعدما تنفس بعمق، شدَّ عوده وقال: «صحيح، ست كاذب، أنا من فعل به ما يفعله الرجال».

أما هذا فكان تصريحاً صادمًا لكل بلا استثناء، فمجمع الآلهة رغم تقززه من ادعاء ست، لم يستغرب أن يرتكب الإله المهووس بالذكرورة فعلاً كهذا في ابن أخته وأخيه، أما أن يحدث العكس، أن يفعلها الفتى الصغير بالعم الفحل، فهذا أمر لا يصدقه عقل، بل إن ملامح الصدمة والاستنكار كادت ترسم على وجه حرو نفسه، عدا أن ثورة ست شدت انتباه الآلهة بعيداً عن سياء الكاذبين في عين المدعي.

«ماذا تقول يا ابن القحبة المجنونة، لا أحد يستطيع أن يمسنني، لا أنت ولا أحد من الموجودين، أنا أستطيع فعلها بكم جميعاً، هنا والآن، أنا...».

«اخرس يا ست، اخرس، يا لكم من ذرية نجسة... ما هذا الجنون الذي أسمع؟ أترى يا دحوقي؟ أترى الآن لماذا أردت منع ولادة هذه

البذرة الحقيرة؟ أرأيت ماذا جلبته لما ذهبت من وراء ظهري ولعبت في الزمن كي تسمح لهم بالولادة؟».

فوجئ دحوتي بهجوم رب الأرباب عليه بدلاً من صبه على المتنافسين، ذعر وود أن يهرب، خاصة مع تلويح ست بأعضائه وتهديده بأن يفعل بالجميع ما يفعله الرجال. أخذ يعتذر ويبرر لرب الأرباب ما حدث، ويقترب منه محاولاً أن يتحامي فيه من الجلبة التي أثارها ست وهو يحطم كل ما تطوله يدها بينما تهرب الآلهة من متناوله، بمن فيهم حرو الذي اختبأ خلف صاري السفينة متفادياً الرمح الذي يسعى إلى رأسه.

صرخ رب الأرباب أخيراً: «هدوء. ست، اجلس في مكانك».

جلس ست أخيراً، مرغماً، في حين ذهب حرو ليجلس إلى جوار إيزة بعيداً عن متناول رمح خاله، غير أنه جفل لما حاولت أن تربت على ظهره، فاسترجعت أمه يدها واكتفت بالتضامن بالنظر.

قال رع: «مع أي أفضل الآن صحبة عابب على التواجد معكم، إلا أنني أجد نفسي مضطراً لحسم هذه المسألة القذرة. ولسبب غير معروف، أجدني غير قادر على استبصار ما جرى، وبصراحة أنا ممتن لهذا. من يستطيع منكما إثبات صحة ادعائه؟».

نهض ست: «سأريكم بنفسي».

صرخ رع: «إن لم تجلس يا ست سألقي نفسي في فم عابب فنفني كلنا ونستريح...».

قال حرو على استحياء: «يمكنكم أن تستدعوا مائي وماءه، ولنر من أين ستأتي مياهنا».

قال رع: «أتوافق على هذا الاقتراح يا ست؟»، «نعم، نعم، لقد وضعت ال...»، «اسكت، اسكت، عليكم اللعنة أنتم ومن أنجبوكم حتى آخر جد... من منكم يستطيع استدعاء ماء هذين المقرفين؟».

دفعت إيزة دحوتي للأمام. همس دحوتي: «توقفي، ماذا تفعلين؟»، «أنت الأقدر على هذا الدور، اذهب هيا»، أجابها وقد بدأ همسه يتحول لما يشبه الشجار بين أطفال يخشون أن يسمعهم ذووهم: «أنت أيضًا قادرة، افعلي أنت، لا شأن لي بهذا الخبل، رع لا يطيقني بالفعل»، «أنا لن يؤخذ بشهادتي، أنت محايد، تحرك».

صاح رع: «فيم تتهامسان؟»، قال دحوتي: «لا شيء يا سيدي، لا شيء، اسمح لي بأن أستدعي... آه... بأن أتولى الأمر».

أشار له رب الأرباب أن يتقدم، ودفعته إيزة إلى الأمام مشجعة. وقف دحوتي في المنتصف أمام رب الأرباب، استجمع شجاعته: «باسم قرص الشمس العظيم، باسم رب الأرباب والتاسوع المقدس، باسم كيميت وحابي، نشرع في مهمتنا للبحث عن حقيقة، من الذي فعل بمن... آه!... حرو، ست، تقدما من فضلكم».

اقترب حرو وست ووقفوا في المنتصف، يرتجفان، أحدهما قلقًا والآخر غضبًا، وبحذر عادت الآلهة المشتتة للتجمع حولهما في نصف دائرة، ترقبًا للنتيجة التي سيفصح عنها هذا التحكيم الفريد من نوعه.

تقدم دحوتي، وضع يده على كتف حرو، قال: «يا مني ست، أفصح عن نفسك أينما كنت».

مرت ثوانٍ من الصمت، ثم تردد فوران بعيد قادم من الأرض. هرعت الآلهة جميعًا -عدارِع وإيزة- إلى حافة المركب ليتحروا مصدره. وجدوا أن الفوران يحدث في حابي بالأسفل، نجم عنه كتلة من سائل لزج، طارت من النهر صاعدة إلى السماء، ثم هوت على سطح المركب بين الآلهة التي تقافزت في كل اتجاه تحاشيًا أن يصيبها ماء ست.

قال دحوتي: «هذا يثبت أن ماء ست كان في النهر». ثار ست: «هذا لا يمكن، لقد أفرغته بنفسه في...»، واندفع يشرح من التفاصيل ما كان الكل في غنى عنها.

قال رع: «دحوتي، تابع أرجوك».

سكت ست وهو لا يكاد يفعل. اقترب منه دحوتي مقدمًا خطوة ومؤخرًا أخرى، قال لست بتوسل: «هل أستطيع وضع يدي على كتفك؟»، «إن أردت خسارتها إلى الأبد»، «لا دخل لي، إنه أمر مولانا ملك الآلهة»، صاح رع: «نفذ الأمر يا دحوتي»، «أوامرك يا مولاي»، ووضع يده على كتف ست. ردد وهو على شفير البكاء: «يا مني حرو، أفصح عن نفسك أينما كنت».

لم يطل الوقت قبل أن يتردد فوران آخر، فوران مكتوم، ليس من النهر هذه المرة، بل من بطن ست. رأى الجميع بطن رب العواصف يتموج، ثم أخذ يتجمع تحت جلده بروز، ويصعد من بطنه إلى صدره، إلى عنقه... وخرج خيط ماء حرو من أذن ست، وجعل يتجمع فوق

رأسه بهدوء، حتى ثبت في الهواء على شكل نسخة فضية مصغرة من قرص رع الذهبي.

جن جنون رب العواصف، رفع يده كي ينتزع قرص ماء حرو من فوقه مطلقاً لعنات تداخلت حروفها فاستعصت على الفهم، غير أن يد دحوتي النحيلة سبقتة وانتزعت القرص قبله، فقبضت يد ست على الهواء. اندفع ست ليمسك برقبة دحوتي ويكسرها، فجرى رب الكتابة والحكمة محتضناً قرص ماء حرو وهو يصرخ: «الحقوني، الحقوني».

صاح رع: «حُسم الأمر، حرو محق وست كاذب».

اختبأ دحوتي خلف رع.

قال ست: «لا يمكن، هذا كذب، لقد خدعني هذا النغل وأمه القحبة، أنا من فعل به ما يفعل الرجال، أنا الملك، أنا الرجل، أنا الذكر، أنا...»، «أخرس يا ست، انتهى الأمر، عليك التنحي من على العرش وتسليمه لحرو في الحال»، «لا، لم ينته أي شيء، لقد خُدعت، لم يُحسم القتال، إني أتحده مرة أخرى»، «لا مزيد من التحديات»، «بل مزيد من التحديات، سأتحده وأتحده حتى يُحسم الأمر لصالحي».

تبع قوله ارتجاج السفينة ارتجاجاً هائلاً مباغتاً. إنه عاب، هذا موعد هجومه اليومي، لكن الآلهة انشغلت عنه بالجدال حول من فعل ماذا بمن ونسوا واجبهم. صرخوا، وهرب منهم من هرب وذهب البقية لحمل أسلحتهم والشروع في الدفاع عن السفينة، إلا ست الذي ظل واقفاً أمام مقصورة رب الأرباب: «إما أن توافق على التحدي وإما أن أترككم لمواجهة عاب وحدكم»، «هل تهددني يا ست؟»، «ألم تقل منذ

قليل أنك تفضل أن تلقي نفسك في فمه لتستريح؟». أظلم وجه ملك الآلهة وانعقد لسانه، لكن الهجمة التالية لعابب فكت عقده: «لك ما أردت».

التقط ست حربته وانطلق كي يذبح عابب.

أما دحوتي، فقد ترك المعركة الدائرة وانتحى جانبًا بقرص ماء حرو، واصطنع لنفسه منه تاجًا سيزين رأسه إلى الأبد.



نهاية محبطة لحكاية مثيرة

١

قال له رع: «طال الوقت يا ست، ألم تقرر بعد التحدي الذي تريده؟».

كان قد مضى من الوقت بعضه منذ واقعة «ما يفعله الرجال». ومع أن القضية لم تُحسم يومها، بدأ ست يدرك من وقتها أن البساط ينسحب من تحت قدميه وكفة الآلهة تميل نحو حرو. علاقته بآبنة خالق الكون المفضلة وفوزه الأخير -بالغش والخديعة- عليه، تسببا في نيله وظيفة قائد دفة سفينة رب الأرباب النهارية الرسمي، بدوام كامل. أمسى الآلهة يقدمون إلى حرو آيات الاحترام والتقديس اللائقة بالملك القادم ووريث التاسوع المنتظر، لكن فقط إن قابلوه في غفلة عن عين ست، أما إن صادف وكان موجودًا فيغضون البصر عن حرو وكأنه ليس هنا... ما

زال يثير خوفهم ولا يتمنى أحد إثارة سخطه وعداوته، لا سيما مع تعكر مزاجه الكامل منذ ثبت رسمياً أنه لا يُعرب في الجملة كفاعل.

بيد أن المزاج العكر لم يكن إلا واجهة تحاول أن تداري الهلع الداخلي. إن تأجيله لاختيار تحد جديد ليس إلا ممانعة لما هو محسوم مسبقاً، فحتى إن فاز عليه لن يستعيد هيئته الضائعة. بل إن حتى تهديده لرب الأرباب بالتخلي عن مواجهة عابب يعلم أنه لن ينفعه كثيراً، فبقية الآلهة يزدادون خبرة بمرور كل يوم بمواجهة الوحش القديم، وعمما قريب لن تعود لست أفضلية تذكر.

يحتاج كي يحتفظ بعرشه إلى تخطيط وتدبير محكم، مثلما خططت إيزة لعقود كي تنجب من جثة ويستلب ابنها الوضع الضعيف العرش. لكن من أين له بعقل كعقل إيزة؟ ليته كسب ود دحوي، ربما كان سينتفع بعقل البابون الداهية في مواجهة إيزة... آه يا إيزة.

قال ست: «ليس بعد»، «لا نستطيع الانتظار أكثر، يجب حسم المسألة في أقرب وقت»، «وما الداعي لحسمها الآن؟ أم أن ابنتك الحبيبة تلح عليك أن تفعل»، «تأدب يا ست، لا تنس أنك تخاطب خالق الكون. لو لم تختر تحدياً الآن سأعلن حرو ملكاً».

ليس لديه في الواقع أي تفضيل، أي شيء يصلح، أو أي شيء لا يصلح، لم يعد يهتم، لكنه لا يستطيع أن يتراجع، لا يستطيع أن يترك نفسه فريسة لألسنة هؤلاء الحمقى. نظر حوله، لا شيء سوى السماء وقارب الشمس يخوض في نهر السماء... «ليكن بيننا سباق قوارب، لنبني قوارب حجرية ونتسابق بها في حابي».

قال رع: «حجرية؟ هل أنت متأكد؟». بالطبع، وما المشكلة؟ لطالما اعتقدت أن رب الأرباب غبي لاختياره الخشب لصناعة سفنه، الخشب هش، إن الحجر أقوى وأمتن، وأوفر، على عكس الأخشاب نادرة الوجود في هذه البلاد. «نعم، أنا متأكد». لعل تلك فرصته، سيهزم حرو بقاربه الحجري، وستنبهر الآلهة بفكرته غير المسبوقة، ويجذون حذوه في صنع سفن الليل والنهار، وتعود له هيئته الضائعة... ولعل حوت-حرو تترك حروها وتصبح حوت-ست بعدها.

قال رع: «كما تحب، لكن ليكن في علمك أن نتيجة هذا التحدي ملزمة»، ثم استدار لقائد الدفة: «هل يناسبك هذا يا حرو؟». هزَّ حرو كتفيه وابتسم.

٢

لم يحتاج حرو إلى مساعدة إيزة هذه المرة.

ذهب واصطنع لنفسه قاربًا خشبيًا، ثم طلاه بطبقة رقيقة من الجبس كي يبدو لمن يراه حجريًا.

وفي الموعد والمكان المحدد للسباق، تظاهر حرو بثقل قاربه وهو يجره على الأرض بالحبال، ما أثار فخر ست الذي كان يشدُّ قاربه الحجري خلفه بيسر واضح، وقرر أن نظرات الشفقة على وجوه الآلهة المتجمعة لشهادة التحدي كانت شفقة على حرو الذي يبدو ضعفه للجميع.

وما إن أنزل الإلهان قاربيهما في الماء، حتى غرق قارب ست وطفا قارب حرو، أمام أعين الآلهة غير المندهشة.

قال رع: «حُسم الأمر، المُلْك لحرو». ترددت همهمات الآلهة المؤيدة بغير حماس، وتراجعوا جميعًا بضع خطوات إلى الوراء، في نفس الوقت بلا اتفاق مسبق، اتقاءً لخروج ست العنيف المنتظر من المياه، ليعترض على القرار ويهدد بقتلهم جميعًا ويقترح تحديًا جديدًا، وخضوع رع له في النهاية... صار الأمر مملًا.

ولم يخيب ست ظنهم، فخرج من الماء بهيئة فرس نهر، وبدأ يهاجم قارب حرو يبغى إغراقه. حرو، الذي كان مستعدًا لهذا الأمر بالذات، التقط حبلًا ذا خطاف، مثل ذلك الذي استخدمته أمه من قبل، وبدأ يلفه في الهواء استعدادًا لرمي فرس النهر الهائج.

لكن رع أوقفه: «حرو، أرجوك، لا تفعل».

أطاع حرو قول رب الأرباب. ترك حبله وحمل مجدافه، وأخذ يجدف مبتعدًا. حذت الآلهة حذوه وانفضوا جميعًا عن المكان، تاركين فرس النهر الهائج يناطح المياه... يناطح الحياة.

٣

«أقرت الآلهة بحقي مرات عديدة، وانتصرتُ على ست بأشكال مختلفة. لكنه في كل مرة يرفض الاعتراف بالهزيمة والخضوع للمنطق والامثال للحكم، وفي كل مرة تخشى الآلهة ثورته ويخضع رب الأرباب لتهديده... لم أعد أعرف ماذا أفعل».

أنصتت نيت بتمهل لسرد حرو المطول - وفطنت من زيغ نظراته في بعض المواضع أنه يبطن أكثر مما يظهر - لتقاعس الآلهة عن نصرته في مواجهة عمه الغاصب. مع أنها كانت قد قررت ألا يكون لها علاقة بهذا الصراع مرة أخرى، بعدما تجاهل أبوها رأيها على نحو مهين رغم أنه من سألها المشورة، إلا أنها لم تجد في نفسها قدرة على رفض استقبال حرو في مدينتها صاو، بعدما جاءها شاكيًا باكيًا على قاربه المطلي بالجبس. إنها، بصراحة، لا ترى فيه ملكًا ملائمًا وحاكمًا جيدًا، لكن الحق معه، وهي لا تحب الحال المائلة والتقاعس عن الظلم. ولهذا بالذات لم تحب البقاء مع الآلهة واعتزلتهم في إقليمها الصغير... سينفجر عقلها بلا شك لو اضطرت للتعامل معهم طوال الوقت.

«أفهمك جيدًا، هذه حال لا يقبلها شخص سوي. لا شك أن ذويك مستائين بشدة مما يحدث»، «هذا صحيح، أُمي في أسوأ حال ممكن، لقد فعلت المستحيل كي تستعيد العدالة، فعلت أشياء... لا تُوصف. لو رأيتهما لما عرفتهما، أمست إيزة القوية الحكيمة على حافة الجنون، إن لم تكن تجاوزتها بالفعل»، «أعرف، سمعت عن هذا، قلبي يتقطع عليها، كانت خير من أنجبت بطون الآلهة. ماذا عن أبيك؟».

«أبي؟».

«نعم، أوزير! كيف يواجه هذا الظلم؟ كيف لشخص له مكانته الحالية أن يقبل بما يحدث مع ابنه ووريثه الوحيد؟».

زاغت عينا حرو، «في الواقع... لم أسمع من أبي منذ... أقصد لم أسمع من أبي قط إلا عندما جاء ليجهزني لمواجهة ست، بعدها عاد إلى مملكته ولم...».

«أي بني، ما هذا الذي تقول؟ أتعني أن هذا الصراع كله كان بلا تدخل من أوزير؟ إن مملكة أبيك الجديدة تنمو كل يوم، حتى أمسى عالمه ينازع أهمية عالم رب الشمس، كيف لم يتدخل حتى الآن؟».

«لا أعرف... لم... لم يخبرني أحد أن...».

ضربت الربة المبعجلة رأسها براحة يدها وهي تلعن غباء الآلهة. نادى خدمها، «استدعوا لي دحوتي فوراً».

لم يمضِ الكثير قبل أن يمثل دحوتي في حضرة نيت برفقة حرو، «التحية والسلام على...»، «وفر الرسميات يا دحوتي. كيف لم يكن لأوزير رأي في قضية حرو وست حتى الآن؟».

أجاب دحوتي: «لأن أحداً لم يطلب منه التدخل»، «أتعني أن كل هذا الصراع الدائر على خلافته يخفى عنه؟»، «لم يخفِ عنه أحد شيئاً، بل هو لم يسأل»، «هممم، لم يسأل؟ ألا يعنيه شأن خلافته؟».

تنهد البابون الحكيم، نظر إلى حرو الذي ترسم على ملامحه الحيرة، ثم قال: «بالطبع تعنيه، لكن أوزير يدور في فلك نفسه، لا يرى إلا ما يدور تحت قدميه، على الأرجح نسي أمر ابنه وعالم الأحياء بالكامل وانشغل بمملكته المظلمة»، «لكني سمعت أن قوته ونفوذه بلغا حدًا يقارب رع نفسه، وربما إن تدخل في المحاكمة بشكل أو بآخر سيرجح هذا كفة ابنه»، «أعتقد هذا، فكرت بنفسي أن أكتب إليه أكثر من مرة، لكن...»، «لكن ماذا؟».

سكت لوهلة، ظهر عليه التردد في الإفصاح عن مكنونه، قال أخيراً: «لكن هذا سيكون... نهاية محطة لحكاية مثيرة».

«ماذا تقصد بنهاية محطة لحكاية مثيرة؟ ما هذه الحماقة؟».

«فكرا معي في الأمر. لقد كان هذا الصراع طويلاً مدهشاً مليئاً بالمفارقات والعجائب، ألا يجب أن ينتهي بنهاية عظيمة تليق به؟ تخيلي شخصاً يقرأ تلك الحكاية و ينتظر بلهفة نهايتها، ألن يكون من المحبط أن تنتهي بتدخل أوزير لصالح ابنه فجأة؟».

قال حرو، متحسناً مؤخرته دون أن يعي: «أتعني أنك كنت تعلم بأن هذا ممكن من البداية، لكنك فضلت أن تجلس وتراقب ما حدث... ما حدث لي... فقط كي تكون الحكاية مثيرة؟».

«ليس بالضبط، ربما، نوعاً ما. انظر يا حرو... ما رأيك أن تواجه ست بيدك العارية، وتخوضا صراعاً جباراً، ويكاد يقتلك، لكنك تتمكن منه في اللحظة الأخيرة وتقضي عليه؟ ويا سلام لو يكون هذا على صهوة حصان، كي يلائم هذا قولك لأبيك عندما جاء ليدريك... ستكون نهاية عظيمة، سأحرص على تسجيلها بدقة و...».

لم يكمل جملته، إذ كانت قبضة حرو تقبض على رقبته النحيلة، «بل سأقتلك أنا بيدي العارية وسأسجل مقتلک بنفسی إن لم ترسل لأبي حالاً كي يتدخل لإنهاء كل هذا الهراء بأي شكل».

قالت نيت: «وأرجوكم، أيًا كانت نتيجة تدخل أوزير، لا تدخلاني في أموركم مرة أخرى».

لم يذهب دحوتي ويكتب لأوزير مباشرة، فهو لم يعد يضمن رد فعل رب الأرباب على تدخلاته الخفية في سير الأمور. لكنه ذهب واقترح على رب الأرباب أن يسمح له بأن يفعل، وهو ما كرهه رع بشدة، «أتريد أن تقول الآلهة ملك السماء يحتاج إلى ملك الدوات لحسم أمور عالمه؟»، لكن إلحاح دحوتي وإيضة وحات-حرو، ورغبته في حسم تلك المسألة التي تكاد تطفئ شمسه بأي ثمن، جعلاه يوافق على مضض.

رد أوزير جاء بسرعة، تعجب فيه من تراخي آلهة السماء في حسم مسألة بسيطة مثل تلك في صالح ابنه، في حين أنه، أي أوزير، صاحب فضل على عالمهم قبل أن يكون ملكًا على الدوات، «فأنا من خلق القمح والشعير الذي تأكلون منه وبفضله تحيون، ولم يكن منكم إله قادر على فعل ذلك قبلي».

عندما سمع حرو ذلك، مال على أذن أمه وهمس: «ما علاقة القمح والشعير بما نحن فيه يا أمي؟»، «هكذا هو أبوك يا بني، لا يرى في الأمور إلا ما يخصه، أو ما يحسب أنه يخصه».

أما رع، فقد استفزته هذه الرسالة حتى إنه أمل ردًا مختصرًا لحظيًا على الإله الكاتب: «قل له: لو لم تكن موجودًا يا أوزير لاخترع القمح والشعير أي إله غيرك، ولسار العالم على أكمل وجه بك أو بدونك، فعالمي كامل وممتاز ولا يفرق معه وجودك أو عدمه. ولا تنس أننا نقتات على الماعت قبل قمحك وشعيرك».

رد أوزير كان: «كلامك صحيح يا خالق الكون، شؤون الحياة كانت ستتحقق بي أو من دوني، لأن العالم عظيم ومذهل. كيف إذن يعجز خالقه العظيم عن تحقيق العدالة في مسألة بسيطة مثل إعطاء إرثي لمستحقه؟ أخبروني إن لم تكونوا قادرين على حسم المسألة لأريحكم وأفعلها أنا. إن مملكتي مليئة بالشياطين ممسوخة الوجوه التي لا تخشى أحدًا، لا إنسان ولا إله، وإن أطلقتها عليكم فلن تترك مذنبًا دون أن تلتهم قلبه. هل أنتم مستعدون لمواجهةها؟».

«أيهددني؟ إنه يهددني، يهددنا جميعًا!». لم يرد أي من الآلهة الحاضرين، فقد كانوا مشغولين بتبادل نظرات الذعر من «الشياطين ممسوخة الوجوه التي لا تخشى أحدًا، ولن تترك مذنبًا دون أن تلتهم قلبه»، تابع رع: «من يحسب أوزير نفسه؟ إننا لن نخضع للتهديدات ولن نخشى شيئًا. أسمع يا دحوتي؟»، «نعم، نعم يا مولاي».

مضت بعدها سفينة النهار في السماء يخيم عليها صمت لم يجرؤ على كسره أحد. وحينما بلغت جبل الغرب باخو، تعلل كثير من آلهة مركب الليل بالمرض أو الانشغال الذي يحتم عليهم التخلف عن رحلة الدوات هذه الليلة. هكذا دخلت مسكت وادي رع، منطقة ساعة الليل الأولى، ليس على متنها إلا أتوم، جثة هامدة، وإن لم يمنعه موته من التفكير في ممسوخى الوجوه، ودحوتي، الوحيد الذي لم يسمح له أتوم بالتخلف عن رحلة الليل مثل البقية، والذي قضى الساعة كلها يبكي ويرقب هجوم آكلي قلوب المذنبين.

قبل بلوغ بوابة ورنس، منطقة ساعة الليل الثانية وأولى مناطق نفوذ أوزير في الدوات، نادى أتوم بصوت واهن: «دحوتي»، هرع الوزير إلى مرقد سيده: «أوامرك يا مولاي».

«أرسل لأوزير وأخبره أن له ما أراد».

٥

لم يعد ست إلى معندجت منذ النهاية المخزية لسباق القوارب، ولا إلى قصره، وإنما حان دوره ليهيم على وجهه في البلاد بلا هدف، كإعصار عاتٍ يدمر كل ما يقابله تارة، وكريح حائرة تدور حول نفسها بلا هدف تارة. التهم ربّ الصحراء من الداخل مزيج من الغضب واليأس والعجز، فما عاد يعرف كيف يتصرف.

يعرف أنها النهاية، نهاية حلمه بالملك، بقلب إيزة، نهاية تمرده على القدر الظالم الذي سلبه كل شيء. لم يعد ست يرغب أو يأبه بأي من هذا، ليحترق كل شيء. لكن ما يحطمه الآن هو المهانة، هو المذلة أمام عيون الجميع.

استقر به المطاف في الجزيرة التي في المنتصف، تلك التي خدعته إيزة فيها بتنكرها إبان المحاكمة. ولعله كان ليظل هناك إلى الأبد، وحيداً شريداً معترلاً، لولا أن قطع خلوته ذات يوم وفد من الآلهة، دحوتي وحررو وإيزة ولفيف ممن شهدوا جلسات المحاكمة والتحديات.

كان بادي الوهن والإنهاك، حتى إن دحوتي لم يخش الاقتراب منه وهو يعلن النتيجة النهائية غير القابلة للاستئناف التي قررها رب

الأرباب، وإن تجنب ذكر دور أوزير: «الحكم هذه المرة نهائي يا ست، لا مزيد من الصراعات والتحديات، المُلْك لحرو، وعليك تسليم نفسك للتاسوع كي يبت رب الأرباب في أمرك».

كان موافقًا على قرار الآلهة.

«لا، لا حكم لأحد عليّ».

«لا مجال للرفض هذه المرة يا ست».

لم يكن راغبًا في مزيد من الصراعات.

«لن أتخلّى عن العرش بلا قتال».

«لا مزيد من القتال».

«قلت لا، تعالَ يا ولد، قاتلني هنا والآن، أمام الكل، لا سباق قوارب ولا تحدي أفراس نهر، بل بأيدي عارية كما يفعل الرجال، والعرش لمن يصرع الثاني».

«لا يا ست، لم...».

«بل أنا موافق»، وكان ذلك قول حرو، الذي أخذ يضع أسلحته ودروعه أرضًا بهدوء، «ألم تكن تلك النهاية الملحمية التي رغبت فيها يا دحوتي؟ استعد للتسجيل».

توترت إيزة، لكنها لما لاحظت ما غاب عن البقية، نظرة الامتنان الوجيزة على وجه ست لابنها، أومأت لحرو مؤيدة قراره.

والتقى الخصمان.

تخبرنا السجلات أن حرو انتصر، هكذا باختصار من دون اكتراث بتفاصيل اللقاء، وأن إيزة بعد اللقاء ذهبت وكبلت شقيقها المهزوم بالأغلال، وقادته مع الآلهة إلى رب الأرباب، حيث اعترف ست أمامه بهدوء غير مسبوق بخسارته، وأن لحرو الحق في عرش أبيه.

٦

تتعدد الروايات في مصير ست بعد ذلك.

قيل إنه أرغم على الانتحار، أو قُتل، أو نُفي خارج البلاد. لكن الرواية الأرجح أن أتوم-رع استبقاه على معندجت كأحد أهم أبطال مواجهة عابب اليومية، ولا يزال يستمر في هذا الدور حتى الآن. ما مدى رضاه عن ذلك؟ لا نعلم، لم يُسمع له صوت منذ ذلك الحين. إما أنه قد رضي، أو رضح، أو تابع -ويتابع- محاولاته الفوضوية الانقلابية، لكن خارج السجلات.

أما حرو، فبعد تنويجه في احتفال مهيب، وتزوجه من حوت-حرو في احتفال جليل، فلم تهتم السجلات بذكر تفاصيل حكمه، لم نعرف إن كان شق قنوات أو بنى معابد (على الأقل نعرف بهزيمته للأعداء... بالواسطة)، ولا كيف انتهى حكمه ومن حكم من بعده.

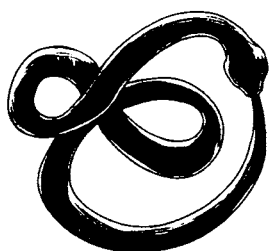
كل ما يهم على ما يبدو أنه جلس على العرش وصار ملكًا.

تستمر حكاية أبناء نوت من وقتها وتكرر من خلال تماهي ملوك البشر اللاحقين المستمر مع حرو؛ كل ملك بشري يتولى عرش هذه

البلاد من الآن فصاعدًا سيُعد نسخة من حرو، وستُعد حكاية توليه عرشه نسخة من حكاية حرو، حتى لو كان ذلك بانتقال شديد السلاسة، سيُعد بمثابة انتصار رمزي جديد على ست الغاصب واستعادة للشرعية. ويظل الملك ظلًا لحرو على الأرض ما دام حيًا، إلى أن يموت ويتحول تماهيه، كما رأينا سلفًا، لأبيه.

ثمة إشارات متناثرة أن بعد حرو استمر حكم الآلهة على الأرض بعض الوقت قبل الانتقال إلى حكم البشر، لكن لا توجد أدلة واضحة على طول هذا الوقت ولا على هوية هؤلاء الآلهة، ولا يوجد ما يمنع أن نوجه أصابع الشك في طمس هذه السجلات لشخص بعينه، يتفاخر طوال الوقت بتحكمه الكامل فيما يسجل وفيما لا يُسجل. لكن الأمر الأكيد، أن حكم الآلهة لم يستمر، وحقق رب الأرباب أخيرًا ما وعد به من انسحاب كامل للآلهة من الأرض، وإن ظلوا ممسكين بزمام الأمور من السماء أو من العالم الآخر، أو من مقصوراتهم الرمزية في المعابد... وستدوم تلك الحال إلى الأبد.

أو بالأحرى، ستدوم حتى النهاية، فثمة نهاية.



النهاية

١

اعتاد الآلهة هذيان رب الأرباب الراحل.

مع أنه يقضي أغلب رحلته في الدوات جثة هامدة، قلما تخلو الرحلة من همهمات ودمدمات وكلمات متكسرة، تصدر عن الشفتين المقدستين من حين إلى حين على مركب الليل. كان الآلهة يخشونها في البداية ويحسبونها لعنات، ثم اعتادوها مع الوقت كما اعتادوا تجاهل الكثير من تصرفات أتوم-رع، في صحوه ونومه ومماته. إن ملك الآلهة أشقى الآلهة والخلق أجمعين، ورحلته اليومية من المهد إلى اللحد أثرت بلا شك، حسب اعتقادهم، على سلامة عقله وتحكمه الكامل بذاته، بالتالي ما عاد خرفه مستغرباً مستهجنًا، بل إنهم حتى باتوا يتندرون عليه سرًا.

لكن في تلك الليلة، بينما هو لحم راقد بلا روح في قارب الليل، اختلف هذيانه عن المعتاد.

هتف فجأة: «دحوتي، دحوتي»، هرع الوزير إلى جثة سيده، «نعم يا مولاي»، «ما هذا الذي يفعله أبناء نوت؟». حرو، قائد الدفة الذي كان يلقي أوامره على المجدفين، ارتفع حاجباه دهشة. قال دحوتي: «ما بهم يا سيدي؟».

«يقتتلون، يتصارعون، يظلمون بعضهم بعضًا، يسجنون بعضهم بعضًا، ويدمرون الماعت».

التفت دحوتي إلى حرو: «هل حدث شيء جديد بينك وبين عمك؟»، «لا»، «هل تورطت أمك في مشكلة؟ هل تشاجرت مع ابن خالتك؟»، «لا يا دحوتي، انتهت مشاكلنا منذ زمن بعيد»، «ماذا يقصد جدك إذن؟»، «ما أدراني؟ لعله يخرف كعاداته».

قطع تهامسهما صياح الجذ الميت ولعابه المتناثر: «افعل شيئًا يا دحوتي»، انتفض البابون، «ماذا أفعل يا مولاي؟»، «لا تتغاض عن الظلم ولا تصبر عليه. اقتطع من أعمارهم ما تبقى من سنوات وشهور، فهم قد دنسوا في الخفاء ما فعلته لهم».

نظر دحوتي إلى حرو هلعًا، تخيل نفسه يحاول إنهاء حياة أبناء نوت... سيقتله أيّ منهم في لحظة. «سيدي، ربما من الأفضل أن...»، «لا تتغاض عن الظلم يا دحوتي، لا...». همس حرو: «قل له حسنًا»، «أوافقه على قتلكم؟»، «أتظنه سيذكر شيئًا مما قال في الصباح؟ أسكته بأي شكل، شارفنا على منطقة جعران الحياة... هناك سيتحد مع خبري ويغفو حتى الصباح»، «طيب، لكن لتعلم أني لم أكن لأؤذك أو أيًا من أبناء...»، «دحوتي»، «أوامرك يا مولاي، سأقضي عليهم جميعًا من أجلك».

همهم أتوم بشيء ما ثم سكت. تنهد دحوتي، وعاد حرو إلى الدفة وبدأ يلقي أوامره:

«استعدوا، اقتربنا من التل. جهز جثمان الإله يا دحوتي». رفع الوزير ذراعه: «هلاً جهزه أحد غيري؟ مزاجه مكفهر الليلة وبصراحة أخشى أن أقرب منه»، «من ذا الذي يجيد التعامل مع مزاج رب الأرباب المستقلب أكثر منك؟ هيا، لا تضيع الوقت».

اقترب دحوتي من الإله الميت وهو لا يكاد يفعل، وما إن لمسه حتى انفتحت عينا الجد، بيضاوان نقيتان كما الحليب الصافي، بلا حدقة ولا شمس ولا قمر، صرخ الجد: «ستموووووووت».

جفل دحوتي ووقع على ظهره، وسط ضحك الآلهة، لكن الضحك انقطع لما تابع الإله من مرقدته: «ستموتون جميعاً... ستعيشون ألوف ألوف السنين، وكأن الزمن بلا نهاية، لكن في النهاية سيأتي الطوفان ويهلك كل شيء، ولن يبقى إلا كلانا».

شجبت الوجوه، تابع الإله بعد وقفة قصيرة: «إلى نون».

ثم همد. عاد جثة ساكنة كما يكون عادةً في تلك اللحظة.

انبثق جعران خبري من السماء، راقبه الجميع يتدلى برفق حتى استقر فوق جثمان ملك الآلهة.

ساد صمت لا تقطعه إلا الصرخات المتقطعة للأرواح المعذبة من بعيد.

أنكر رع الشاب في الصباح التالي أنه صدر عنه ما صدر، وأعلن أن ما يتناقلونه عنه ليس إلا وهماً جماعياً للآلهة وسوس لهم به عاب، وأن من يردد هذا الافتراء مرة أخرى سيُعد مستهزئاً مهرطقاً عدواً لصاحب الشمس، وسيعاقب أشد العقاب.

منع رع لترديد هذا الكلام ساهم، مثلما يساهم كل منع لترديد أي كلام، في انتشار ما قيل تلك الليلة على ألسنة الجميع، بعدما كان مقصوراً على القلة الحاضرة ساعتها بمركب الليل. انقسم الآلهة مختلفين على تفسيره؛ رأى بعضهم أن هذا لا يختلف عن الهذيان المعتاد من أتوم الليل، وحسب البقية أنه نبوءة من رب الأرباب بنهاية العالم.

أصحاب التفسير الثاني كانوا الأكثر رعباً، والأكثر حماسة لنشر رؤيتهم مثلما هي عادة أصحاب النظريات الكارثية. لكن هؤلاء بدورهم سرعان ما انقسموا أيضاً على تفسير ما عدوه الجزء الأهم من النبوءة: «إلا كلانا»... من هو الآخر الذي سينجو من طوفان نهاية العالم مع خالق الكون؟

«أنا طبعاً»، قالتها حوت-حرو لوصيفاتها بينما يمشطن شعرها الطويل الناعم، «هل ينبض لأبي قلب من دوني؟».

«ومن غير ابنه الأول؟»، قالها شو لنفسه، وهو يمني نفسه بمكافأة أخيرة على تحمله بصبر الحمل الأثقل في الكون، رفع السماء على كتفيه بلا كلل ولا ملل.

«بل أنا طبعًا»، قالها ورمى النرد، «إنه يعتمد عليّ في كل صغيرة وكبيرة، أتظنه يختار غيري؟»، ولما رأى عدم التصديق على وجه خنسو، تابع دحوتي: «لقد أسر لي بعدها بأني المختار للبقاء معه، بل وأخبرني أنني بوسعي اختيار رفيق لي ينجو معي إن أردت»، هتف خنسو في لهفة: «وهل اخترت رفيقك بعد؟»، ابتسم دحوتي واسترخى في مجلسه: «لا زلت أفكر... لو أراد أحدهم إثبات حبه وتقديره لي، فالآن هو الوقت المناسب»، ثم انتبه، «خنسو، إياك أن تنقل عني حرفًا من هذا، هذا سر». حرك رب القمر رأسه في إيحاءة من نوع عيب عليك، شرك في بير.

ولم يمضِ الكثير قبل أن يبلغ ملك الموتى نبأ تنافس صغار الآلهة على شراء ود دحوتي بالتزلف والهدايا، ليختارهم للنجاة بصحبته مع رب الأرباب من الطوفان. لا يهتم أوزير كثيرًا بأمر نهاية العالم أو غيره، كان من الفريق المرجح لتفسير الهذيان، غير أن فكرة أن ينال غيره مكانة بتلك الأهمية، حتى لو كانت وهمية، كانت فكرة مؤلمة، تجرح كبرياءه.

فوجئ رع بمجيء رسل ملك الدوات على مركب النهار - إذ يدرك أوزير عبث محاولة الاتصال برب الأرباب في الدوات ليلاً - تقرأ عليه طلب أوزير أن يكون آخر من ينجو معه لا دحوتي. رب الأرباب، الذي غابت عنه تأويلات هذيانه والصراع الدائر في الخفاء، تابع إنكار ما تُسب إليه، لكن رسل أوزير لم يهتموا وكشفوا عن تهديدات ملك الدوات بإرسال الشياطين ممسوخى الوجوه إياهم وعرقلة رحلة الإله الميت الليلية، لو لم يعلن فورًا اختياره لأوزير لينجو معه من طوفان آخر الزمان.

صمت رع لبعض الوقت، ناقلًا بصره بين رسل الدوات ودحوتي المرتبك الذي يود أن تنشق أرض المركب وتبتلعه.

أخيرًا، قال بهدوء: «ولم لا؟ كما تريدون، أوزير هو من سينجو معي من الطوفان».

هلل رسل الدوات، وانطلقوا إلى ملكهم لتبشيرهم بالخبر، لاحقًا، سيعمل أوزير على أن يوعز لكهنته في عالم الأحياء بتدوين النسخة المحدثه من النبوءة في الإصدارات الحديثة من النصوص الجنائزية. وأظلم وجه دحوتي الذي سرعان ما أصبح محل سخرية البعض، وإحباط البقية لما لم يعد هناك أمل أن يكونوا هم الناجين. وحدها إيزة، ظلت تراقب ما يحدث في صمت، وتفكر.

٣

«أظني أعلم من هو الآخر».

اندهش رع من اقتراب إيزة المفاجئ، إذ جاءت وجلست بجواره في مقصورته الخاصة في منتصف النهار، على غير عادتها ولا عادة غيرها. إنه لا يسمح لأحد بدخول مقصورته، إلا دحوتي عندما يستدعيه لشأن خاص، لكن أن يدخل أحدهم ويجلس بلا استئذان فهذا غير مقبول. عدا أنه لم يمانع، في الواقع لم يعد هناك من يمانع صحبة إيزة لأي سبب. لم تعد تلك العصابية المهووسة التي كانت أيام صراع حرو وست، مضى على ذلك زمن طويل، عادت الآن إلى ما كانت عليه في البداية من حكمة

وسكينة وطيبة، لكن بقلب يعرف الوجد كما يعرف الشفاء.

«أي آخر تقصدين؟»، «الذي سينجو معك من الطوفان»، «ألا زلت تذكرين هذا الحديث؟ كان زلة لسان عجوز خرف»، «لا يا أبي، لم يكن كذلك، ولا أصدق أنه أوزير أيضًا»، لم يتمالك رع ابتسامته، «من إذن تحسبين؟».

«عابب».

سكت، عاد إلى شروده. عرفت أنها لمست وترًا حساسًا، فاحترمت صمته وشاركتة إياه.

لم يعد عابب يشكل للآلهة أي قلق، بل بات بعد كل هذا الزمن محل تنافس ومصدر شرف، يتبارى الجميع في الحصول على فرصة لقتاله وهزيمته، وكل من يفعل يتباهى بعدها أنه أنقذ العالم، مع أن في الواقع هزيمته لم تعد عسيرة، فقد خبر الجميع مواطن ضعفه وحفظوا أساليبه وحركاته، وصار هو نفسه واهنًا من كثرة الهزائم التي تعرض لها. لم يعد هناك من يتساءل عنه، لا عن سر وجوده وسعيه المضني للدمار ولا أي شيء يتعلق به، خاصة أن مجرد ذكر اسمه في أي سياق يتسبب في إثارة غضب ملك الآلهة.

«ماذا تعرفين أنتِ عن عابب؟».

«شاركت من قبل في مواجهته، بل إنني ذات مرة لمست جثمانه الممزق قبل أن ينسحب إلى نون. إنه يختلف عن كل شيء في هذا العالم، إنه... إنه النقيض الكامل»، لم يرد عليها، لم ينظر إليها حتى، لكنه ينصت، تعلم

ذلك يقينًا، تابعت: «نقيض الحياة. ولا أعني بذلك أنه ميت، فالموت ليس إلا حياة أخرى، انعكاس لحياتنا، إنه نقيض حتى لثنائية الحياة والموت. عندما لمستّه، فهمت أنه نقيض الوجود...»، سكّنت لثوانٍ، «نقيضك أنت، فأنت الوجود».

كانت تود قول المزيد، لكنها لما رأت أنه يحاول حثّ نفسه على قول شيء اكتفت بما قالت وانتظرت.

«أريت حلماً...».

«بم حلمت يا أبي؟».

«بل في الواقع أرى حلماً... أراه باستمرار، من حين إلى حين. أراه يهشم هذا المركب فتاتًا، ويفني الآلهة جميعًا. أراه ينفث سمه في العالم، فينكسر ظهر نوت ويتفتت جذع جب، وتنهار ماعت، ويحف حابي. وأرى نون يحتاج العالم، ليس مثل فيضان النهر السنوي، بل طوفانًا عارمًا لا يبقى ولا يذر، يدمر كل شيء، السماء والأرض والدوات... ولن يبقى إلا كلانا».

«كيف هذا؟ ألم نكن هناك في حلمك؟ كيف لم نقض عليه مثلما نفعل طوال الوقت؟».

«بلى، كنتم هناك، لكن... ثمة ما منعكم»، «ما الذي منعنا؟»، «أنا».

ضربت على صدرها، وكادت تعود إلى عاداتها في شق الثياب وغيره لكنها تماكنت نفسها بسرعة مع نظرة رع المحذرة، كيلا يلاحظها بقية الآلهة.

«أراني أمنعكم من قتاله، أكبلكم بقدرتي، وأراقبه يدمر كل شيء من دون أن يهتز لي طرف».

«لماذا يا أبي؟»، «ألا تذكرين ما قلته ليلتها؟»، «أتعني... أبناء نوت؟»، «بالطبع»، شهقت، ثم لما ابتسم فكرت قليلاً، «أنت لا تقصدنا نحن، أي أنا وأشقائي وذريتنا، صح؟»، «نوعاً ما... بصراحة لا أعرف بالضبط. يبدأ الحلم كل مرة وأنا أشكو لدحوتي من أبناء نوت، لكنني لا أقصد أربعتكم، بل البشر برمتهم، عالمهم كله. ربما كان البشر من دموعي، لكن عالمهم الحالي ورثوه منكم يا ابنتي، شقاقهم وخياناتهم وسوء أفعالهم يرجع لما فعلته أنت وأشقاؤك، لقد شكلتم عالمهم بصراعكم، فصاروا امتداداً لكم».

خفق قلبها، لم تملك ألا تلاحظ أنه ناداها «ابنتي» لأول مرة، ارتسمت ابتسامة مريرة على محياها. «لم أحسب أنني سأكون سبباً في فناء العالم. لا بأس، ما حدث قد حدث، ولو عاد بي الزمن ما أحسبني أغير فيه شيئاً. متى ستكون تلك النهاية يا أبي؟».

«قبل أن تولدي بزمان بعيد، قال لي نون «ستهزمه ما دامت بك إرادة للحياة، ويوم تفقد تلك الإرادة سينتصر، وفي نصره نصرك». لم أفقد إرادة الحياة حتى الآن...»، اختلج صوته، خفض بصره، «لكن، بحسب ما أرى، لا أستبعد أن أفقدها يوماً، هذا رهين بأفعال البشر، أبناء نوت، كلما ازدادوا وزادوا في غيهم زدت أنا ضعفاً وفقدت من إرادة الحياة... وأنت ترين كما أرى إلى أين هم ذاهبون».

«وكيف يكون في نصره نصرك؟»، «أما هذا فلا زلت لم أفهمه».

تنهد رب الأرباب، وسكت، وسكتت بدورها، ثم نادى الذي لا يسكت أبدًا: «مولاي، هلاً سمحت لي بال... ما الذي تفعلينه هنا يا إيزة؟»، قالها دحوتي بصوت ملؤه الحسد، واقفاً عند مدخل المقصورة ليطلب الإذن بالدخول.

ابتسمت إيزة، نهضت.

«ما الذي يحدث هنا؟ ماذا بك يا مولاي؟».

تجاهلاه. قبلت رأس جدها العجوز الذي يحاول تمالك نفسه في وجود الوزير.

«لا عليك يا أبي، عندما يحين الوقت، أنا واثقة أن ما ستفعله سيكون عين الصواب».

وذهبت.

٤

أما النهاية فلم تقع بعد، وإلا ما كانت لتتاح لنا فرصة هذا التواصل الوجيه.

لكنها سوف تقع، ربما اليوم، ربما غدًا، ربما بعد ألوف ألوف السنين. سيتحقق حلم الإله في النهاية.

سيتكاثر البشر ويتسع العالم وتتكدس الخليقة بعضها فوق بعض، و يبلغ الشقاق والصراع حدًا غير مسبوق. ومع كل هذا يزداد أتوم-

رع وهناً وهرماً، لن تعود دورته اليومية كافية لتجده، ولن تفارقه الشيخوخة حتى في مهده. حتى الدوات سيمتلئ ولن تعود هناك أراضٍ لتوزيعها ولا أماكن في مركب رب الأرباب، وستتخم عمميت بالقلوب الفاسدة حتى تزهدا، ولن يعود هناك متنفس مُتوفى جديد. لن تعود ماعت قادرة على المحافظة على نظامها الصارم للعالم والحياة، ولن يعود بوسع الرب الخالق مساعدتها.

سينخر الفساد جذور كل شيء، ومع الفساد، يزدهر عاب.

لن يقبل أتوم-رع الاعتراف أن الوقت قد حان، سيتابع حثّ الآلهة على القتال، وسيحاول عبثاً إصلاح العالم. لكنه في النهاية سيفهم، سيفهم عندما يفشل، سيفهم ما كان يقاوم فهمه من البداية، أن مثلما على الناس أن يموتوا كي يعيشوا من جديد في الدوات، ومثلما عليه أن يموت كل غروب كي يحيا من جديد عند الفجر، ومثلما على حابي أن يفيض كل عام مدمراً في فورته كل ما يحيط به، وخصباً العالم كله بالحياة في الآن ذاته، على الوجود كله أن ينتهي، أن يموت، أن يفنى... هل سيتبع ذلك حياة جديدة؟ يتمنى ذلك، يراهن على ذلك، أليس «في نصره نصر ك؟»، لكنه مع ذلك يتعذر عليه اليقين.

سيحين يوم يهجم فيه عاب كعاداته على قارب النهار، سيهم الآلهة إليه كعاداتهم، لكن أرجلهم ستنهار بما تحمل، وأيديهم ستتشل بأسلحتها وألستهم ستعقد بتعاويذها. مشيئة رب الأرباب ستمنح مركب الشمس هدية لعاب، الذي لن يصدق السهولة التي يسحق بها معندجت.

سيطلق عابب فحيحًا هائلًا، سينفث سمه في السماء فيهطل مطرًا على الأرض والدوات، سيحترق العالمان الأول والآخر، ستتفتت الجبال وتجف الأنهار وينهار شو بما يحمل وتقع نوت على وجهها، وسيفنى الناس والدواب والأرواح والوحوش والآلهة.

وفوق كل هذا، في الفراغ الذي ستخلفه السماء، سيقف أتوم-رع العجوز وحده في مواجهة عابب. سيدور الثعبان عدة مرات حول غريمه العجوز يتفحصه بعينه القبيحتين، لكن خالق الكون سيظل في مكانه ساكنًا، ينتظر الهجوم الأخير. في النهاية سيهجم الثعبان بفك مفتوح على أقصى اتساع وأنيابه الهائلة تفرز شلالات من السم لا حصر لها.

لكن، وبينما تنغرز الأنياب في جسده، سيرتكب الإله فعل خلق أخير، سيخلق سلاحًا، رمحًا أو سيفًا أو سهماً، أو بندقية أو مدفعًا أو صاروخًا نوويًا، أو أيًا كان ما سيبلغه علم العالم وخالقه بأدوات الدمار في هذا الزمان.

سيموت الرب، في ذات اللحظة التي يصيب فيها سلاحه الأخير الندبة الصغيرة بين عيني عابب.

ومن فوق ومن تحت ومن اليمين واليسار، ستنهمر مياه نون، لتسترد ما سُلِب منها باسم الخلق والحياة.

انتهى كل شيء، لم يبقَ من العالم القديم إلا فتات، شذرات من الإله القديم وخلقه لا تصلح لشيء.

لقد انتصر، آن له أن يرتاح، أن يطمئن، أن يُشفى من جرحه على مهل. لن تقوم لأتوم قائمة أخرى، يراهن على ذلك، يتمنى ذلك.

عاد نون له وحده، ليس حوله إلا مياه مظلمة لا نهائية، وذرات واهية من عدوه اللدود وعالمه متناثرة في أرجاء المحيط... لا تشكل عليه تلك الذرات أي خطر، أليس كذلك؟

ملاحق

الالهة المصرية القديمة الواردة في الكتاب

أتوم: اسم أتوم من الجذر (إتم)، ويعني التهام والكمال باللغة المصرية القديمة. أتوم هو الإله الأول خالق الكون الذي انبثق من المحيط الأولي نون بحسب نظرية الخلق الهليوبوليسية، وأول آلهة التاسوع المقدس. لكن عندما ظهرت عبادة رع وسادت في الدولة القديمة، اندمج أتوم مع رع ليصبح إحدى مراحل رحلة الشمس.

أمون: الإله الخفي. أحد الآلهة الثمانية التي تقترح نظرية الخلق الهرموبوليسية أنهم خالقو الكون. كانت عبادته محصورة في الجنوب، لكنه ترقى في الدولة الحديثة حتى صار على رأس المعبودات الرسمية في الدولة، ودمج مع رع ليصبح «أمون-رع».

إنبو (أنوبيس): ابن أوزير وحت-نبت وإله التحنيط وحارس الجبانات. أنجبته حت-نبت في معزل عن عين ست، لكن وجدته إيزة

لاحقًا ليصبح تابعها الوفي في رحلة البحث عن رفات أوزير.

أوزير (أوزيريس): أول أبناء نوت وأهمهم، زوج إيزة، في حياته ورث ملك العالم من أبيه جب وجلب الحضارة للبشر وعلمهم الزراعة وصنع النبيذ، وفي موته صار الدوات (عالم الموتى) بعدما جمعت إيزة رفاتة في رحلة ملحمية. جعل أوزير من عالم الموتى مكانًا يضاهي عالم الأحياء أهمية.

إيزة (إيزيس): زوجة أوزير وشقيقته، ومن ربات الأمومة والنساء والخصوبة. إيزيس من أذكى الآلهة وأقدرهم على السحر. جابت العالم كي تستعيد رفات أوزير بعد قتله وتحبيه لتنجب منه حرو. بغير مجهودات إيزة ما كان حرو ليتنصر ولا كانت روح أوزير تعرف للدوات طريقًا. أحب المصريون إيزة وفُتن بها البطالمة وبعدهم الرومان، وانتشرت عبادتها في أوروبا، إلى حد أنهم وجدوا لها مزارات في الجزيرة البريطانية ذاتها.

بابا: إله له هيئة قرد البابون، تتركز قوته في عضو ذكوره الذي يتحكم به في فتح وقفل السماء. كانت له مشادة مع دحوتي لم تنته في صالحه.

بنبن: أول تجلٍ لأتوم الذي خلق نفسه بنفسه، تل طيني ظهر في قلب المحيط الأولي قبل كل شيء آخر في الوجود، ومنه بدأت الخليقة. فوqe، بحسب الأسطورة، شُيدت مدينة أنو/ هليوبوليس.

تفنوت: حُلقت من دفقة الخليقة الأولى مع شقيقها وزوجها شو. تفنوت هي الرطوبة والنداوة، الماء العذب الذي لا غنى للحياة عنه.

جب: ابن شو وتفنوت وشقيق نوت. فك أتوم-رع التصاق جب ونوت عنوة، وجعل جب الأرض. تولى جب ملك العالم بعد شو بانتقال للحكم لم يكن الأكثر سلاسة، وتمكن من الاتصال بمعشوقته نوت/ السماء خلصة، وثمره لقائهما كانت أبناء نوت الأربعة: أوزير وست وإيزة وحت-نبت.

حابي: الاسم المصري القديم لنهر النيل.

حرو (حورس): ابن أوزير وإيزيس، أنجبته أمه من جثة أبيه المقتول بعد إحيائها، وكبر ليأخذ بثأر أبيه ويستعيد ملك البلاد المغصوب.

حرو (حورس) البحدتي: أو حرو القديم أو حرو الكبير. إله قديم من دفقة الخلق الأولى. يُميز بالبحدتي أو القديم أو الكبير تمييزاً له عن حرو الأشهر ابن إيزة وأوزير. إله محارب قوي، عيناه من الشمس والقمر. يفضل الابتعاد عن طريقه عند ثورته، حتى لو كنت حليفه.

حكا: تجسيد السحر. يصحب رع عادةً على مركبه.

حو: تجسيد الصوت الخلاق، أي هو الكلمات التي ينطق بها الإله الخالق فتكون. يصحب رع عادةً على مركبه.

حت-حرو (حتحور): خُلقت من عين رع الشمسية، هي ربة الحب والجمال والجنس والخمر والسعادة والموسيقى، وإحدى صور عين رع الشمسية. وتولت في مراحل متعددة من التاريخ أدوار ربة الأمومة وربة الموت وربة السماء وأم الآلهة. لكن لا يغرنك كل ما توحى به أدوارها من طمأنينة إن غضبت (انظر سخمت).

حوت-نبت (نفطيس): رابعة أبناء جب ونوت، وزوجة ست، لكنها أحبت أوزير وأنجبت منه إنبو، وعلى هذا عاقبها ست وتحلى عنها. انضمت إلى أختها إيزة في محنتها وأعانتها في مسعاها لاستعادة حق أوزير. يُعد الثنائي إيزة وحوت-نبت أيقونة مصرية في رثاء الراحلين، نظرًا لرثائهما المطول والحزين على أوزير المقتول.

خبري: رب الأرباب أتوم رع في هيئة الجعران، وتلك هيئته ساعة الولادة اليومية عندما يستيقظ من مواته الليلي ويشرق/ يولد من رحم نوت شرقًا.

خنسو: رب القمر، يعني اسمه «المسافر»، وكان يُعد حامي المسافرين ليلاً ومرشدهم. صديق دحوتي وموظفه ورفيقه في الرهان على القرابين المختلصة. وهو ابن للإله أمون.

خنوم: الإله الكباش. يعني اسمه «الخالق»، وهو الإله الذي كلفه رب الأرباب بصنع وتصميم المخلوقات من الفخار. البعض يعده الخالق الأول للآلهة والبشر.

دحوتي (تحوت): العقل المنطقي والمعرفة المادية لرب الأرباب، إله البيروقراطيين ومخترع الكتابة ووزير الآلهة والداية الذي يعرف كيف تسير الأمور في أروقة بانثيون الآلهة المصرية. مركز عبادته كان مدينة خمنو، أو هرموبوليس كما سماها اليونانيون بعدما كافأوا بينه وبين إلههم الشبيه (هرمس)، والآن مركز الأشمونين في محافظة المنيا.

رع: إله الشمس. الصورة الشابة النهارية لرب الأرباب في ذروة قوته خلال رحلته اليومية في السماء.

ست: الشقيق المارق من ذرية السماء. مُنح السيادة على الصحراء والعواصف والأجانب، ومُنح حوت-نبت زوجة. لكنه قتل أخاه أوزير واغتصب عرشه، حتى استعاد حرو ابن أوزير وإيزة إرث أبيه منه بعد منافسة طويلة معقدة لاحقاً.

سخت: هي حوت-نبت بهيئة اللبؤة السوداء، وهي ربة الحرب والانتقام، المحاربة الجبارة التي انتقمت لأبيها من إساءة البشر إليه حتى كادت تقضي على الحياة برمتها.

سشات: ربة للكتابة والمعرفة، وقرينة للإله دحوتي.

سوبك: إله تمساح، ذو رأس تمساح أو هيئة تمساحية كاملة، وهو أحد آلهة المياه، وابن للربة نيت.

سوكر: أحد آلهة عالم الموتى، وله سلطة إقليمية على المنطقة التي يعبرها رب الأرباب في رحلته الليلية بالدوات في الساعتين الرابعة والخامسة.

سيا: هو تجسيد المعرفة والذكاء، يصحب رع عادةً على مركبه.

شو: خُلق من دفقة الخليقة الأولى مع شقيقته وزوجته تفتوت. شو هو الهواء، الغلاف الجوي. سيصبح شو أول ملوك العالم بعد صعود أتوم/رع إلى السماء، وسيتولى دور رفع السماء، ابنته نوت، على عاتقه إلى الأبد.

عاب (أبوفيس): شيطان الأسطورة المصرية الأول. ثعبان سرمدي، يكمن في نون متربصاً بملك الآلهة صاحب الشمس ويحاول

القضاء عليه -وعلى الحياة كلها- بشتى الطرق، لكن أبا الآلهة وأبناءه
خبروا أساليبه مع الزمن ويتصرون عليه كل يوم في رحلة الشمس
النهارية وكل ليلة في رحلة الشمس الدوائية.

عمميت: ربة مفترسة تلتهم قلوب الآثمين في عالم الموتى، ذات
رأس تمساح وجسد أسد ومؤخرة فرس نهر، تربض بجوار الميزان في
انتظار سقوط رجوح كفة قلب المتوفى عن كفة ريشة الماعت، فيتحول
لعشاء دسم لها.

ماعت: أصل الكلمة «ماع»، والتاء للتأنيث، ومعناها الضبط
والقياس والإرشاد. ماعت خلقت من دفقة الخلق الأولى مع شو
وتفنوت. إنها ربة العدالة والحق والنظام الكوني شديد الدقة. وماعت
موجودة في عالم الموتى، إذ إن ريشتها، تجسيد النظام والحق والعدالة،
توضع في الميزان مع قلب المتوفى، الذي إن ثقل عنها حُرم من الخلود
وتلتهمه عمميت ملتهمة القلوب.

نمتي: نوتِيُ الآلهة، إله ثانوي ليس له دور معين، سوى ظهوره أكثر
من مرة بقاربه في الحكايات التي تدور على جزر منعزلة يتطلب الوصول
إليها قطع النهر. نمتي نموذج مثالي لـ«السبوتجي» المصري صاحب
الابتسامة اللزجة الذي لا يتورع عن فعل شيء مقابل الهدية المناسبة.
لكنه نال جزاءه.

نوت: ابنة شو وتفنوت وشقيقة جب. فك أتوم-رع التصاق جب
ونوت عنوة، وجعل نوت السماء. تُمثل نوت في هيئة حسناء طويلة
منحنية، ساقاها في أقصى الشرق وذراعاها في أقصى الغرب، وجذعها

الممتد الأزرق هو سماء عالمنا. يُولد جدها أتوم-رع من رحمها شرقاً في الفجر ويمضي على نهر جسدها طيلة اليوم حتى يدخل ثغرها عند الغروب. تمكنت من الاتصال بحبيبيها جب/الأرض خلصة، وثمره لقائهما كانت أبناء نوت الأربعة: أوزير وست وإيزة وحوت-نبت.

نون: المحيط السرمدي القديم، من مياه أو طين، المسرح الكوني للأحداث الذي في داخله خلق أتوم نفسه والكون الذي نعرفه، ويكمن فيه عابب، وينبع منه حابي.

نيت: ربة محاربة. من أوائل ذرية ملك الآلهة، وقيل إنها من أعانته على مواجهة عابب أول مرة. نيت حكيمة وذكية، يلجأ إليها الآلهة للمشورة. بعض الأساطير تقترح أنها أم الآلهة وهي المسؤولة عن خلق الكون.

قائمة قراءات ونبذة عن نهج الكتاب

إن البحث في الأساطير المصرية القديمة ليس بالأمر السهل، لا سيما على شخص غير متخصص فيها، ولهذا أنا أدين للأعمال التالية بما عرفت وفهمت عن الميثولوجيا المصرية القديمة:

- نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة - المجلد الثاني: الأساطير والقصص والشعر - كلير لالويت - ت: ماهر جويجاتي - الهيئة العامة لقصور الثقافة - ٢٠١٢.
- آلهة المصريين - والاس بدج - ترجمة: محمد حسين يونس - مكتبة مدبولي - ١٩٩٨.
- الديانة المصرية القديمة - ياروسلاف تشرني - ترجمة: أحمد قدري - المجلس الأعلى للآثار - ١٩٨٧.
- وادي الملوك أفق الأبدية: العالم الآخر لدى قدماء المصريين - إريك هورنونج - ترجمة: محمد العزب موسى - مكتبة مدبولي - ١٩٩٦.

- إيزيس أم الآلهة - فرانسواز دونون - ترجمة: عبلة عبد الرازق - المركز القومي للترجمة - ٢٠٢٢.
- متون الأهرام: الصعود للسماء - ترجمة من المصرية القديمة: شريف الصيفي - مكتبة تنمية - ٢٠٢٠.
- كتاب الموتى: الخروج للنهار - ترجمة من المصرية القديمة: شريف الصيفي - مكتبة تنمية - ٢٠١٩.
- كتاب الطريقتين - ترجمة من المصرية القديمة: شريف الصيفي - مكتبة تنمية - ٢٠٢١.
- تفسير كتاب ما هو كائن في العالم الآخر: مدجات إيمي دوات - شرح وترجمة: محسن لطفي السيد - نشر خاص.
- Legends of the Gods :The Egyptian Texts, edited with Translation - E. A. Wallis Budge - Dover Publications - 1994.
- Egyptian Mythology: A Traveller's Guide from Aswan to Alexandria - Garry J. Shaw - AUC Press - 2021.
- The Labours of Shu And The Tribulations Of Geb According To The Naos 2248 Of Ismailia - Georges Goyon - Translated by: Donald Keith Mills - https://www.academia.edu/50184511/Griffith_Shrine_of_El_Arish
- On Isis and Osiris - Plutarch - Raven Publishing - 2017.
- Seth, God of Confusion: A Study of His Role in Egyptian Mythology and Religion - Herman te Velde - Brill Academic Publishers - 1967.
- The Complete Gods and Goddesses of Ancient Egypt -

- Daily Life of the Egyptian Gods - Dimitri Meeks - Christine Favard-Meeks - Cornell University Press - 1996.
- The History of Ancient Egypt - Bob Brier - The Great Courses - 2013.

تلك المجموعة بطبيعة الحال غيض من فيض، هناك مئات وربما آلاف الكتب والدراسات من باحثين سخرُوا حياتهم لدراسة وفهم وتقديم الميثولوجيا المصرية القديمة. لا شك أنني فأتتني كنوز سأكبي لاحقاً عندما أكتشفها، لكن عزائي أن ما قرأته بغرض وضع هذا الكتاب كان كافياً ومناسباً للغرض إلى حد بعيد، وأرشحها لمن أراد الاستزادة والرجوع إلى الأصول.

بعض تلك العناوين ترجمة مباشرة لنصوص قديمة (مثل «نصوص مقدسة - كلير»، «كتاب الموتى - الصيفي»، «The Labours Of Shu - Goyon»، وبعضها تحليل وتفسير وتقديم (مثل «الديانة المصرية - تشرني»، «The Complete Gods - Wilkinson»)، ومنها ما يقدم الوظائف معاً (مثل «آلهة المصريين - بدج»).

وعلى سبيل بعض التوضيح لنهجي في الحكايات المختلفة والأصول التي اعتمدت عليها، إليك كلمة مختصرة عن كل من الفصول السابقة:

البداية:

اخترت أن أعتمد هنا على نظرية الخلق الهليوبوليسية، وهي من أشهر وأهم نظريات الخلق (العديدة) في مصر القديمة، خاصة أنها

تؤسس لعالم آلهة التاسوع، الذين يمتازون عن غيرهم من الآلهة المصرية القديمة بشراء حكاياتهم وتنوعها. اعتمدت على نصوص الخلق المذكورة في كتابي كلير وبدج، وتفاصيل كثيرة من أكثر الكتب المذكورة. أما معركة أتوم مع عابب، فأنا مدين بها إلى «Daily Life – Meeks» في المقام الأول.

أول تمرد:

شردت في هذا الفصل عن الأصول إلى حدٍّ ما. أنباء تمرد الآلهة وانتصار حورس الكبير أو البحتي منقوشة على حوائط معبد كوم أمبو «نصوص مقدسة - كلير» ومعبد إدفو «آلهة المصريين - بدج»، لكن تقديم «Daily Life – Meeks» للحكاية بتفاصيل أكثر تنوعًا من مصادر متعددة، جعلني أرى حورس الكبير بالشكل الغاشم الذي أحببته وقدمته.

أما ذكر أمون وزملائه، فلا مكان له على الإطلاق في أي من النصوص الأصلية، لكن الفكرة فرضت نفسها عليَّ فرضًا حين وجدت أن عدد قادة الأعداء ثمانية، فكرت عندئذٍ لم لا يكونون الثمانية الذين تقدمهم نظرية الخلق الهرموبوليسية بأنهم الثامون الخالق للعالم؟ خاصة أن النظريتين متنافستان؟

الموقع الزمني لهذه الأسطورة (بعد الخلق، وقبل أسطورة فناء البشر) من افتراضي، وكذلك الترتيب الزمني لبقية الأساطير وربطها ببعض، إذ إن أكثر الحكايات المذكورة في النصوص القديمة بمعزل عن

البقية. لكن رهاني أنك توافقني أن ترتيبها بتلك الطريقة (أو بأي طريقة تفضلها) أمتع.

فناء البشر:

وهي المعادل المصري الموضوعي لذكر الطوفان الذي قضى على أغلب البشر في أكثر الديانات القديمة والمعاصرة.

نص هذه الأسطورة من أغنى النصوص بالتفاصيل، ولا يخلو كتاب عن الميثولوجيا المصرية من ذكرها. وجب ذكر أن النص الأصلي لم يجعل لظهور نون أهمية سوى نصح الملك الإله بتكليف حتحور/ سخمت بالمهمة القاتلة. لم أستطع بصراحة ترك نون يدخل ويخرج دون أن أستغل ظهوره ببعض البهارات والمحسنات... إنه المحيط السرمدي، ألا يستحق بضعة سطور إضافية؟

رحلة الشمس:

لا يرجع هذا الجزء إلى مصدر بعينه، فتفاصيل الرحلة شائعة الذكر في كثير من النصوص القديمة وأكثر المصادر المذكورة أعلاه.

زمن الهواء والأرض:

أستغرب ندرة ظهور حكاية جب وأبويه في كتب الأساطير المصرية الشائعة، مع أنني أجدها مثيرة للاهتمام جدية بالحكي. اعتمدت بشكل أساسي على النص الأصلي للأسطورة في «The Labours Of Shu - Goyon»، وأضاف لي كتاب «Egyptian Mythology - Shaw» المزيد من التفاصيل المتناثرة في نصوص تعذر عليّ الوصول إليها.

أبناء نوت - الجزء الأول:

اعتمدت هنا على نص المؤرخ اليوناني القديم بلوتارخ «On Isis and Osiris». يتضمن النص الحكاية منذ لقاء جب بنوت وتحريم رع لولادة أبناء اللقاء المحرم، وحتى تدريب أوزوريس الرمزي لحورس كي يستعد لمقابلة ست.

تقترح بعض الروايات أن أبناء نوت وجب كانوا خمسة لا أربعة، وخامسهم هو حرو البحتي نفسه. لكنني فضلت بصراحة اعتباره سابقًا على زمانهم بكثير (مثلما تقترح روايات عديدة أخرى)، خاصة أنه لن يتدخل في السردية المعتمدة هنا لصراع حرو وست، أي المحاكمة بتفاصيلها المعقدة (وإن كانت هناك بصراحة نسخة أخرى تقترح أن حرو القديم ساعد حرو الشاب في إحدى المناسبات في التغلب على ست).

وأضفت إلى النص بعض التفاصيل المستقاة من مصادر أخرى فضلت أن أرصع بها حكاية بلوتارخ، مثل سرقة إيزيس لاسم رع السري (نصوص مقدسة - كلير، آلهة المصريين - بدج)، وهي أسطورة مستقلة بذاتها تمامًا، لكنني وجدت أن إضافتها في هذا المكان أفضل للحكاية بشكل عام. ومثل هجوم ست على موقع تحنيط أوزير وصراعه مع إنبو الذي انتهى بنصر الأخير «Egyptian Mythology - Shaw». وأيضًا حكايات حورس الطفل المريض، أو حربو قراط «Daily Life - Meeks»، ليست في نص بلوتارخ، وإضافتها في هذا المكان لا تحتاج إلى تبرير.

أبناء نوت - الجزء الثاني:

المحاكمة وما تضمنته من تنافس بين ست وحورس تُعد من أغنى وأهم المصادر التي تناولت الصراع بين حورس وست، ونصها الكامل يرجع إلى بردية معروفة باسم شستر بيتي Chester Beatty، وهي مترجمة إلى العربية في «نصوص مقدسة - كليز». لكن هذا المصدر لم يتضمن النص على ما فعله حورس بعمه بعدما فقأ عينيه. ذكر تدمير حورس لخصيتي ست مذكور في مصادر عديدة أخرى (اعتمدت فيه على «Egyptian Mythology - Shaw»، و«Daily Life - Meeks»)، فكانت إضافته لهذه السردية في هذا المكان منطقية، خاصة وقد مهد خير تمهيد للجزء التالي المثير للجدل (وكل التفاصيل المثيرة للجدل في هذا الموضوع بالذات قادمة رأساً من بردية شستر بيتي، أنا مليش دعوة).

الدوات:

كتابة هذا الفصل كانت الأصعب لاتسامه بغزارة التفاصيل مع عدم وجود حكاية بعينها يمكن ربطها بسردية آلهة التاسوع. كل المحاولات الأولية للحديث عن الدوات فشلت. يعرف الكتاب هذه اللحظات، ويدركون أنهم لتجاوزها يحتاجون عادة إلى التوضحية بشيء نفيس وغالٍ. ولعلك الآن بعدما قرأت قسم الدوات عرفت ما الذي اضطررت للتوضحية به... إليك خالص العزاء والأسف عزيزي القارئ. النصوص المصرية المتعلقة بالعالم الآخر كثيرة كثيرة تدير العقل، لو أردنا استكشاف الدوات بالكامل من خلالها لاحتجنا إلى عشرة

كتب مثل هذا على الأقل. لذا كان جزء الدوات هو الجزء الوحيد الذي عمدت فيه لاختزال التفاصيل المتاحة لا للإضافة إليها مثل البقية.

اعتمدت في ذكر أنباء عالم الموتى على قائمة القراءات كلها تقريباً، لكن الأبرز والأهم كان ما توفر لي من النصوص الجنازية: متون الأهرام، كتاب الموتى، كتاب الطريقين، وقد ترجمها من المصرية القديمة شريف الصيفي بمقدمات وملاحق ممتازة، والإيمي دوات، بترجمة وشرح محسن لطفي السيد.

من النصوص التي وددت أن أستخدمها باستفاضة النص الطويل لحكاية الساحر ستنا وابنه سا-أوزير ومغامرتهم في عالم الموتى (النص الكامل في: «نصوص مقدسة - كلير»)، لكن لم أجدها مكاناً هنا. عسى أن قراءة هذا الكتاب تحمس أحدهم (لعله أنت؟) لخوض تلك الرحلة.

النهاية:

أما فناء العالم فذكره في النصوص المصرية القديمة محدود، لا يتجاوز النبوءة المذكورة في التعويذة TB ١٧٥ من كتاب الموتى. لم أستطع منع نفسي من مد الخط على استقامته واستكشاف نهاية الكون الميثولوجي المصري القديم كما استقرأتها، أتمنى أن تكون نالت إعجابك، أو أثارت رغبتك في استكشافها بطريقتك الخاصة.

خاتماً

آمن المصريون القدامى أن الكتابة، اختراع الداهية دحوتي، فعل مقدس، إلهي، خلقي. عندما تكتب شيئاً فأنت لا تفعل ذلك لمجرد نقل المعرفة أو حفظ سجل، بل كتابة أمر ما بالحروف المصرية المقدسة تعني استدعاءه وتحقيقه وتخليده. من ثم كان تسجيلهم لحكايات الآلهة يتسم بحذر شديد مقتضب في أغلب الأحوال، خشية استدعاء المذكورين عرضاً والتسبب في تكرار الأحداث المكتوبة من جديد، خاصة عند ذكر الأشرار. ففي حكاية تمرد الآلهة مثلاً، المنقوشة على جدران المعابد في الجنب، لا ذكر لأسماء المتمردين ولا لكيفية عصيانهم وتمردهم، في مقابل إسهاب طويل لبطولة حورس البحتي وتدميره لهم تدميرًا. وعاب، أو أبوفيس، ينذر أن تجده في سياق يصف أكثر من هيئته المخيفة القبيحة والقليل من محاولاته العبثية للقضاء على الحياة باقتضاب، في مقابل الإطالة في وصف هزيمة الآلهة له وتمزيقه تمزيقًا؛ فلو أنهم استفاضوا في تفاصيل تمرد العصاة وقدرات عابب القوية، لعاد هذا وهؤلاء ليعيشوا في العالم فسادًا ويهددوا الحياة من جديد. لهذا كان الملوك والنبلاء يحرصون على تسجيل مآثرهم على الجدران والبرديات،

فذلك يعني خلودهم، وكانوا يمحون أسماء القدامى المغضوب عليهم،
فذلك يعني إفناءهم.

نحن في أمان نسبي هنا لأن كتابنا هذا ليس بالحروف المصرية
القديمة، وأتمنى ألا يترجمه أحد إليها وإلا...

غير أن هذا أيضًا يعني أن محاولتي لتقديم أساطير الآلهة المصرية
القديمة في ثوب معاصر، لو تمت استنادًا إلى مصادرها الأصلية بأمانة
كاملة، كانت ستنتهي إلى نصوص مبهمة أو ثقيلة أكاديمية الوقع، تظل
مقصورة على فئة بعينها.

لكن رهاني أن هذا لم يكن نوع الحكيم السائد في مصر القديمة، بل ما
ساد وانتشر كان الحكيم الشفهي المتوارث جيلًا عن جيل، الذي تضمن بلا
شك كل الحيل السرديّة الأولى التي يمارسها الحكاءون منذ فجر التاريخ.
أما الحكايات المدونة والمنقوشة في النصوص القديمة فلم تكن بغرض
الحكي، وإنما كانت - غالبًا - جزءًا من سياقات وظيفية أغراضها سياسية أو
تعبدية أو سحرية، والحدود بين تلك المجالات كانت سائلة حد الذوبان،
تلمّح تلميحًا لحكايات نعلم يقينًا أنها كانت أكبر وأغنى وأوسع، ولا
نملك إلا إعمال الخيال لملء الفراغات الضخمة كي نستنبط الحكاية كاملة.

ومن ثم تولد الصراع القائم في كل سطر هنا بين كاتب الخيال في
داخلي والباحث الذي أردت أن أكونه، فمع أني لم أكن أكتب رواية
أو مجموعة قصصية تبرر تدخل المؤلف، لم أستطع منع نفسي من
محاولة استكشاف بعض الدوافع والرغبات ومحاولة استنباط دواخل
شخصيات، ورسم الخيوط بين ألف وباء وجيم، والتلاعب بالخط

الزماني لترتيب الحكايات والأحداث بها يلائم سردية درامية متماسكة أو تحاول أن تتماسك. أي أنني لجأت لاستخدام حيل سردية وأدوات درامية لإخراج الأسطورة بمنظور يسهل على قارئ معاصر الوصول إليها... لكنه لا ييسر عليه بالضرورة قبولها.

ذلك لأن تدخلني كان محدودًا لم يمسّ الهياكل الأساسية للحكايات بقدر الإمكان، لم يمسّ الكيفية التي خلق بها أتوم الكون بحسب الرؤية الهليوبوليسية، ولا كيف أنجبت إيزيس من فقيدتها ابنهما الوحيد، ولا ما فعله ست بابن أخيه/ ابن أخته عندما دعاه للعشاء لتصفية الخلاف بينهما، وغيرها من التفاصيل التي قد تُحفز أو تُحفظ قارئ معاصر. كل الأحداث الرئيسية في كتابنا هذا تعود إلى مصادر مصرية قديمة يمكن تتبعها من خلال الكتب والمراجع والنصوص التي ذكرناها، وتدخلني لم يتجاوز ألعيب الرواة التقليدية وهم جلوس حول النار في الليالي معتدلة الطقس منذ دبت قدم الإنسان على الأرض: بعض المبالغة حينًا، بعض الإثارة حينًا، وهنا ضحكة وهنا رقصة وهنا نقر على طبله، ومحاولة استحضار النشوة لدى السامعين/ القراء... فإن حضرت، فبها ونعمت.

وجب أيضًا ذكر أن أي حديث عن آلهة أو أرباب في هذا الكتاب، هو إعادة سرد لأساطير قديمة آمن بها بعض البشر في زمن غابر ولم تعد أكثر من تراث، ولا يُقصد من قريب ولا من بعيد الإشارة لرب الأديان السماوية، سبحانه وتعالى عما يصفون. يفترض أن يكون هذا بديهيًا لا حاجة لذكره، لكن لعلي بحاجة إلى ذكره، تحسبًا...

محمد أ. جمال

١٣ فبراير ٢٠٢٤

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وعرفان

الشكر لله أولاً على ما يسرني إليه.

الشكر والامتنان والمحبة وفيض من المشاعر الأخرى من نصيب هند رمزي، زوجتي الحبيبة، أعظم زوجة وصديقة ممكنة... لولا هند وملحوظاتها وتحملها لمزاجي المتقلب وتقويمها لرأي المتصلب ما وُلد هذا الكتاب، ولما ت أشياء كثيرة في مهدها.

خالص الشكر للأصدقاء والزملاء والأساتذة: محمد ربيع، وأحمد الفخراي، وتامر فتحي. دعمكم وقراءاتكم وتعليقاتكم كان لها فضل كبير عليّ وعلى كتابتي.

وللصديق والشاعر والناشر محمد ماجد العتاي، على الدعم والنصح والإيمان بمشاريعي حتى وهي لا تزال هلوسات متحمسة لا أكثر.

ولنيل غايان وستيفن فراي، اللذين لا يعرفان أنني أخذت منهما طرف الخيط، ثم نسجت بساطي بنفسني.

وللصندوق العربي للثقافة والفنون «آفاق AFAC» على دعم هذا المشروع دعمًا لم يكن ليخرج بهذا الشكل من دونه.

عن المؤلف

كاتب ومترجم مصري، نُشر له: «طيران» (٢٠٢١)، و«كتاب خيبة الأمل» (٢٠١٨)، وعدد من الأعمال المترجمة من الإنجليزية إلى العربية، منها: «البطل بألف وجه» لجوزيف كامبل، و«إفطار الأبطال» لكورت فونيجت، و«أساطير إسكندنافية» لنيل غايمان، و«ميثوس» لستيفن فراي، و«سباحة في بركة تحت المطر» لجورج سوندرز. حاز جائزة «أخبار الأدب» في الرواية عام ٢٠١٧، ومنحة آفاق في الكتابة الإبداعية عام ٢٠٢٢.

قراءة هذا الكتاب لا تتطلب أي دراية مسبقة بالأساطير المصرية أو غيرها، تحتاج فقط إلى معرفة أنه كانت على أرض مصر حضارة قديمة طالت وتشعبت لآلاف الأعوام قبل ظهور الهوائف الذكية. وحكايات هذا الكتاب هي نزر يسير من أصل غزير مما آمن به المصريون القدماء في بعض الأوقات.

الأساطير المختارة هنا من أشهر أساطير الآلهة المصرية القديمة، وأبطالها هم أفراد الناسوع العظيم - الآلهة التسعة الأعظم بحسب عقيدة هليوبوليس - ومن ارتبط بهم من الآلهة المصرية القديمة. رهاني أنك ستحب ما ستقرأ من دون حاجة إلى تحضير مسبق، وأملّي أنك، بعد الانتهاء من هذا الكتاب، ستذهب في رحلتك الخاصة لاستكشاف المنابع والجدور.

كل الأحداث الرئيسية في كتابنا هذا تعود إلى مصادر مصرية قديمة يمكن تتبعها من خلال الكتب والمراجع والنصوص المذكورة، وتدخلي لم يتجاوز ألعاب الرواة التقليدية وهم جلوس حول النار في الليالي معتدلة الطقس منذ دبت قدم الإنسان على الأرض: بعض المبالغة حيناً، بعض الإثارة حيناً، وهنا ضحكة وهنا رقصة وهنا نقر على طبله، ومحاولة استحضار النشوة لدى السامعين/ القراء.. فإن حضرت، فيها ونعمت.

المؤلف

مكتبة

t.me/soramnqraa

محمد أ. جمال
أبناء نوت وأساطير أخرى
حكايات مصرية عتيقة



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



تكوين
ARTS AND CULTURE
فنون وثقافة